بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
2019

دار التعارف للمطبوعات

لبنان- بيروت- حارة حريك- شارع دكّاش- بناية الحسنين
هاتف : ٢٧١٩٠٧ – ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١
فاكس : ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١
موبايل : ٨٢٣٦٢٠ ٣ ٠٠٩٦١

مفاتيح التواصل

مجموعة من محاضرات

سماحة السيد عمار الحكيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطاهرين.

قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

لم تشهد الساحة المعرفية في حقل العمل التنظيمي، دراسات وبحوثاً كما شهدتها في الحقول المعرفية الأُخرى، بل كادت تكون نادرة وغير مألوفة، بالرغم مما نمتلكه من ثراء في النصوص والتجارب عبر تأريخنا الطويل، ولعل السبب في ذلك هو عدم دخول هذا الحقل من المعرفة في حيز الدراسات الأكاديمية، واقتصار البحث فيه على بعض أصحاب التجارب الحركية، لأسباب سياسية معروفة.

وقد تضمن هذا الكتاب شذراتٍ من قراءاتٍ في الفكر الحركي الأصيل الذي تمثله مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، وهو مجموعة من المحاضرات والكلمات التي ألقاها سماحة السيد عمار الحكيم في الاجتماعات مع القيادات والنخب المتقدمة لتيار الحكمة الوطني.

وقد وصلتنا أكثر هذه المحاضرات مدونة بشكل مختصر جداً، وقمنا بتوزيعها بين أربعة فصول وملحق، وقد تناول الفصل الأول مجموعة من

1. الملك: 22.

المفاهيم الحركية المستنبطة من الأحاديث الشريفة المروية عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام، وشملت العناوين التالية: أهل الحق والكثرة العددية، خدمة الخلق والقرب من الله تعالى، حركة الإنسان ومخافة الله، العمل بين الإخلاص والرياء، الموقف الصحيح واحتمال الخطأ، علامات الأشقياء، مفازع الناس، الإحسان والحب، حقيقة الإيمان، تخشُّع النفاق، خصال الإيمان، مبدأ الكتمان، الدنيا وسنة الابتلاء، عاقبة الظلم، الأهداف الاستراتيجية، الحاجة إلى النور الدائم، الميزان الحقيقي للقوة والضعف، واقع الحياة الدنيا، التفاضل في الرؤية الإسلامية، استعراض سمات المؤمنين، التوأمة بين العقل والقلب، التقارن بين الحكمة والشجاعة، المعايير الصحيحة في تقييم الناس، التوازن بين التوقعات والأداء، أهمية المشورة، الارتباط بين العجز والفشل، صيانة الإيمان من الشك، الخطوة الصحيحة في الأجواء المضادة، معايير التفاضل بين الرؤية الإسلامية والرؤية المادية، الحاجة إلى العطاء المستمر، مقومات التوازن في الشخصية الإنسانية.

وتناول الفصل الثاني مجموعة من الدروس الحركية، احتوت على بيان الأحاديث المروية عن أئمة الهدى عليهم السلام، التي تعطي دروساً مهمة في ديناميكية العمل الاجتماعي، وشملت العناوين التالية: الكريم والمسؤولية، الجدّ والمثابرة، حدود المخالطة، اكتساب الاخوان، استيعاب الناس، استثمار الوقت، مرونة المؤمن، منهج التعامل مع الناس، الكتمان والبشاشة والاحتمال، مفاتيح التواصل، الإنسان بين التوفيق والاخلاص، خطورة التلون، القناعة في العمل السياسي، علم جواهر الرجال، أخلاقية العمل الاجتماعي، بناء الذات، معيار التعاطي مع الواقع، العلاقة بين الهمة والطموح، مواصفات المسؤول، الارتباط بين التقييم والمهام المناطة، تحديد الأهداف وتشخيص الغايات.

وتناول الفصل الثالث مجموعة من التعليمات الحركية المستفادة من الحكم المروية عن أمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام، وشملت العناوين التالية: سمات الحازم، الهمة والحمية، التعامل بين المال

والأخلاق، شرف الهمة، قبول النقد، الإخلاص، صيانة الأسرار، التركيز على العمل، اغتنام الفرص، المؤمن بين الصلابة والذل، تقارن العلم والعمل، استشارة الشبان والشيوخ، الحزم والتواني، علاج مرض التواكل، محاسبة الذات، الإخلاص لله، الصبر والثبات والاستقامة، الأُخوة الإيمانية وقبول العذر، أهمية التخطيط والتدبير، ثقافة الاعتذار وبراءة الذمة، فن مخاطبة الناس، الهمة العالية.

وتناول الفصل الرابع مجموعة من وصايا شهيد المحراب سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) إلى العاملين والمتصدين للعمل السياسي والتنظيمي، وشملت العناوين التالية: العمل للخدمة لا للسلطة، التخطيط للوقت، سعة الصدر، الاحتراف في العمل، القدوة، التواصل ضمن منظومة العمل، الرقابة والمتابعة.

وتناول الملحق مطالعة سريعة لحياة الإمام الحكيم (قدس سره) بمناسبة مرور أربعة وأربعين عاماً على وفاته، استلهم منها حفيده السيد عمار الحكيم ما يتعلق بموضوع البحث، وذلك من خلال التركيز على الأبعاد الاجتماعية في حياته المباركة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ أغلب هذه المحاضرات كانت منشورة في حلقتين من حلقات مفاتيح التواصل، أضفنا إليها ثلاثاً وعشرين محاضرة جديدة في نفس الموضوع موزعة بين عناوين الكتاب في فصوله الثلاثة الأُولى. سائلين المولى الكريم أن يعم نفعها جميع المسلمين، بل الناس أجمعين، بما يعمق الوعي الاجتماعي لإيجاد مجتمع متماسك تسود بين أبنائه قيم الخير والفضيلة، بما يُسعد الإنسان ويهديه لتكريس حياته لما خُلق من أجله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المكتب الإعلامي
لرئيس تيار الحكمة الوطني

الفصل الأول

مفاهيم رسالية

(1)

أهل الحق والكثرة العددية

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لرجل سأله عن جماعة أُمته :(جماعة أُمتي أهل الحق وإن قلّوا)[2] .

وهذه الرواية على قصرها تشير إلى مبدأ مهم يضعه رسول الله(صلى الله عليه وآله) ، وهو أن المدار في معرفة جماعة الأُمة هو اتّباع الحق ، وأنه لا علاقة للكثرة أو القلة في تشخيصها ، وهو مبدأ إسلامي أصيل .

فالمهم أن يكون الإنسان مع الحق ، وأن يكون على الحق ، وأن يعتنق الحق ، وأن يدافع عن الحق ، والمهم هو حقانية المشروع ، وحقانية الرؤية ، وحقانية المنهج ، وحقانية السلوك ، وهذه هي البوصلة ، وهذا هو الأساس ، وهذا هو المعيار ، و هذا هو الفيصل في تقييم ما إذا كنا ناجحين أم لا .

وأما العدد ، والظهور ، والبروز ، وأن يكون الإنسان في مقدمة الركب أو في آخره ، أو يكون في الواجهة أو في الخلف ، فهذه كلها اعتبارات ثانوية ، والأساس هو هل نحن مع الحق أو لا ؟ وهذا ما نجده في المنهج الإسلامي الأصيل .

فحينما نزل الإمام الحسين(عليه السلام) الثعلبية وقت الظهيرة ، وضع رأسه فرقد ثم استيقظ فقال : لقد رأيت هاتفاً يقول أنتم تسرعون والمنايا تسرع بكم إلى الجنة . فقال له ابنه علي(عليه السلام) : يا أبه أولسنا على الحق؟ فقال : بلى والذي إليه مرجع العباد . فقال : يا أبه إذن لا نبالي بالموت»[3] .

2 . بحار الأنوار 2 : 265 ، ح 21 .

3 . بحار الأنوار 44 : 367 .

فليس الأساس هو هل نموت أو نحيا. نصعد أو ننزل. نأخذ الوهج أو نكون في الصفوف الخلفية، فهذه كلها اعتبارات تأتي وتذهب، فمن يأخذ الوهج اليوم، يمكن أن ينتقل إلى الصفوف الخلفية في يوم آخر، ومن هو في الصفوف الخلفية قد يأخذ الوهج ويتقدم في مرحلة لاحقة.

فالمهم هو أن نكون مع الحق، ويكون الحق معنا. يقوينا ونقوى به. نتقدم بالحق، ونتمسك بالحق. ولكن حبنا لا يكون أحياناً حباً للحق، بل هو حب لأنفسنا، وإلا فالناس متدينون، والحديث عن الدين يأتي بالوهج. يأتي بالسلطة. يأتي بمواقع أمامية. يأتي بأصوات. وليست شطارة أن نتكلم بالدين في ظروف كهذه، ومن الممكن أننا لا نحب الدين بقدر كبير، بل نحب أنفسنا.

لقد جلس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) خمسة وعشرين عاماً في بيته، وكان الناس والوهج مع غيره، ولكن بعد ذلك تاب الناس ورجعوا لعلي بن أبي طالب(عليه السلام) في بيعة لم يشهد لها التأريخ نظيراً، لا من قبلها، ولا من بعدها، وقد قال(عليه السلام) واصفاً ذلك اليوم: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفاي»[4]، أي أصبحت هناك حالة من الروع، وقد وطئ الحسن والحسين(عليهما السلام). كانت بيعة طوعية عفوية، وقد جاءت الناس بأعداد هائلة واحتشدت على باب علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وكان الحضور قوياً، وتلاحظون أن من الناس من يحب أن يبرز، وتحركه مشاعر العقل الجمعي، فيجتمعون أحياناً مع هذا الذي يحبونه؛ مع أمير المؤمنين(عليه السلام)، فمسكوه من شدة الحب، وهناك أناس متحصنون، يقولون لا أحد غيرك يا علي، جربنا ورأينا.

4. نهج البلاغة 1: 36، الخطبة الشقشقية.

(2)

خدمة الخلق والقرب من الله

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (أحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده ، وأقومهم بحقه ، الذين يحبب إليهم المعروف وفعاله)[5] .

هذه الرواية الشريفة عن الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) تشير إلى واحد من المبادئ الأساسية والمهمة التي تقرب الإنسان إلى الله تبارك وتعالى، وتجعله الأقرب والأحب إليه، وهو حينما يكون الإنسان أكثر نفعاً لعباد الله .

إن للعبادة الشخصية دوراً كبيراً في منهج الإسلام، كالصلاة والصيام، لكن رسول الله(صلى الله عليه وآله) هو من عرفنا أن الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم انتقل إلى التركيز على البعد العملي فقال: «الدين المعاملة»[6]، هذا البعد العملي له نسبة كبيرة في مدى تجسيد الإنسان للقيم الإسلامية .

تضمنت الفقرة الأولى من الحديث الشريف: «أحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده»، فلم يقل أكثرهم عبادة، أو أكثرهم صلاة، أو أكثرهم تلاوة للقرآن، وكلها أعمال محببة ومهمة، ولكن لا يكفي أن يكون الإنسان جالساً في مكان معزول عن الناس يتلو القرآن ويتعبد وهو منقطع عن الناس، فهذا لا يكفي في سمو الإنسان في مراتب الكمال وفي القرب الإلهي، وإنما الأمر المفيد هو كيف يتعاطى مع الناس .

5. بحار الأنوار 74 : 152 ، ح 11 .

6. عجائب الآثار 3 : 3 . 1 .

ومعنى «أنفعهم لعباده» هو أن يخدم المجتمع الذي هو فيه، ويتواصل معه، ويقدم الرعاية للناس من خلال حل مشاكلهم والسعي في قضاء حوائجهم، وخدمة الوطن والمواطن، فهذا مدخل حقيقي ليكون الإنسان أحب الناس إلى الله سبحانه وتعالى.

والمراد من قوله(صلى الله عليه وآله): «وأقومهم بحقه» هو أن يكون أول الناس في طاعة الله تبارك وتعالى وأداء حقوقه والحفاظ عليها وصيانتها، ومنها خدمة عباده.

إذن، مسؤولية الإنسان في عملية التكامل ليست مسؤولية شخصية فقط، ولا يكفي للإنسان في إيصال نفسه إلى مرتبة القرب الإلهي أن يصحح علاقته مع الله تبارك وتعالى، بل لا بد له من أن ينفع الآخرين ويتواصل معهم، ويخلق معهم بيئة تضامنية، ويوفر سبل التعاون معهم، وهذه مسألة مهمة جداً في فهمنا للإسلام وواجباتنا الإسلامية، ولذلك نرى البعض ممن يدعون التدين يركزون على البعد الشخصي فقط، ويأبى التواصل مع الناس بذريعة أن كل شيء فيه شبهات وفيه مشاكل، ويفضل الاجتناب والابتعاد حتى لو كان في ذلك رضا الله سبحانه والقرب منه، مع أن أعلى مراتب القرب الإلهي لا تتحقق إلا من خلال خدمة عباده والتواصل معهم وتسهيل أُمورهم والحفاظ على حقوقهم.

ومعنى قوله(صلى الله عليه وآله) «الذين يحبب إليهم المعروف وفعاله»: أن الله جل جلاله هو الذي يحبب لهذه الفئة من المؤمنين فعل الخيرات إلى الناس، فهناك شخص متكاسل ولا يتفاعل، ولكن من باب المسؤولية وإسقاط الواجب يقوم بعمل ما، وهناك أشخاص قد وفقهم الله سبحانه وتعالى لخدمة الناس، وراحتهم في متابعة شؤون الناس، فإن أهل الخير يستأنسون بفعل الخير ولا يشعرون بالتعب عندما يسعون بحوائج الناس، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من هذا الصنف، خصوصاً نحن المتصدين. المهم أن نعرف ما هو دورنا، نحن المدعين للتصدي والخدمة، نحن القيادات الميدانية في مشروع رسالي اسمه تيار الحكمة الوطني، الذي شعاره خدمة

الوطن والمواطن، وما هو مقدار ما يمكن أن نساعد عليه؟ وما هو مقدار ما نستشعر من مسؤولية تجاه المجتمع؟ فهذه قضية أساسية وبنيوية في اتجاهات عملنا، وفي تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى عنا.

(3)

حركة الإنسان ومخافة الله

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) :(من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء)[7] .

تشير هذه الرواية الشريفة عن الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) إلى واحدة من القواعد المهمة في حركة الإنسان وشعوره بالقوة والعزة والمنعة والثقة ، أو شعوره بالهزيمة والانكسار . فحينما يخاف الإنسان من الله سبحانه وتعالى ، وحينما يجعل مخافة الله هي الأساس في دوافعه ومنطلقاته ونواياه ، وفي سلوكه ومواقفه وأقواله وأفعاله ، سيرى الله سبحانه وتعالى حاضراً معه .

ويكون ميزانه في أعماله هو مخافة الله سبحانه ، فيأتي من الأعمال ما يرضى الله تبارك وتعالى عنها ويقبل بها ، ويترك ما لا يرضى الله تعالى عنها ولا يقبل بها ؛ لأن في رضا الله تعالى العز والكرامة والرفعة والالتزام بالضوابط التي تجعل الإنسان دائماً مع الحق ، فالشيء الذي فيه مخافة الله سبحانه ليس فيه شطط ، ولا انحراف ، ولا ابتعاد عن جادة الصواب ، وحينئذ لا يخاف الإنسان من شيء ، لأن حجته بالغة ، والله تعالى هو الحجة البالغة ، فإن من يسير في طريق الله ويجعل رضوان الله هو الأساس تكون الحجة معه دائماً ، ويكون الموقف الصائب والصحيح إلى جانبه دائماً ، وسيشعر بالقوة لأن القوي معه . كما أن مخافة الله سبحانه تجعل جميع القوى ما سوى الله سبحانه وتعالى تتصاغر أمام الإنسان . فتضمن من ناحية سلامة المصير وصحة المسار لمن يسير في طريق الله تعالى ولمن يخشاه سبحانه ، ومن

7 . الكافي 2 : 68 ، ح 3 .

ناحية أُخرى تمنحه الشعور بالقوة والعزة والانتماء إلى الله سبحانه وتعالى، فتجعله قوياً جداً لا يخاف من شيء. وحينما تكون مخافة الله تعالى هي المعيار الأساس في حركة الإنسان، يصبح مصدر قلق وخوف لجميع من لا ينسجم ويتواءم مع المسار الإلهي لأهل الحق.

وأما الآخر الذي نسي الله سبحانه فما يفعل؟ إنه يُطمع ويغري الآخرين أو يخوفهم، فالطغاة والظالمون ومن يريد أن يشق طريقه بعيداً عن السياقات الصحيحة، يتشبثون دائماً بالإغراء والأهواء من خلال الوعد أو الوعيد، ومن خلال تغرير الناس وتطميعهم بأمور أو إخافتهم من أُمور معينة. والذي يخاف الله سبحانه وتعالى ويشعر بالقوة والعزة لانتمائه لله عز وجل لا يُطمّع ولا يخوّف، فلا يؤثر فيه التطميع، ولا يؤثر فيه التخويف، وحينئذ لا يمكن أن يغير مواقفه الترغيب والترهيب، فبماذا يطمع ومما يخاف وقد جعل الله تعالى نصب عينيه.

وكل إنسان أعلم بنفسه ومواقفه وسلوكه وتأريخة ونظافته في مساراته، لا يخشى من شيء، إن عرض على محكمة عادلة فإن الحق معه، وإن كانت ظالمة فالنتيجة أن ينكل به على يد الظلمة، وهذا هو نوع من أنواع اللطف الإلهي، فقد كان بعض أصحاب الإمام الحسين(عليه السلام) يقولون لظالميهم في أثناء حز رؤوسهم: الحمد لله الذي زادنا فيكم بصيرة وعرّفنا حقيقتكم. فالإنسان عندما يعرف الحق، ويطمئن إلى أنه منحاز إلى الحق، وعندما يرى خصومه على باطل، تسري فيه حالة من الاستقرار والطمأنينة. وهذه هي إحدى الحسنيين التي يجري الحديث عنها في ثقافة الإنسان المؤمن، ينتصر في المعركة أو يقتل فيها شهيداً في سبيل الله، فكلاهما حسنى وانتصار، ولا توجد كلمة خسارة في قاموسه. ومثل هذا الإنسان الذي يقطف ثماره في أسوأ خياراته، وهي طموح له، وهي نصر ومكسب، فماذا سيُفعل له لكي يخوّف؟. هل يخوّف بأن يقال له سنقتلك؟. سيقول: القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة. فهي التي يبحث عنها، وهي مكسب إلهي كبير بالنسبة إليه، فكيف يمكن أن يهدد بما هو مطمع ومطمح ومغنم

لـه . لذلـك فـإن مخافـة الله سـبحانه هـي الأسـاس والركـن الأوثـق الـذي يحـدد اتجـاه البوصلـة ، ويجعـل للإنسـان حصانـة ومناعـة ، ويشـعر الإنسـان بالقـوة والرفعـة ، فـلا يؤثـر فيـه شـيء ، ولا تزعزعـه الريـاح والعواصـف ، ولا تقلـل مـن همتـه النتائـج .

فعلـى الإنسـان أن يراقـب عملـه كيـف صـار ، وأمـا النتيجـة فهـي مـن عمـل الله تبـارك وتعالـى ، فهـو أرأف بعبـاده وبـلاده ، وسـواء أثـرت هـذه النصيحـة أو لـم تؤثـر ، فهـي لا تقلـل مـن عزيمتـه شـيئا . والقـرآن الكريـم يحدثنـا عـن أبـي الأنبيـاء نـوح عليـه وعلـى نبينـا وآلـه السـلام ـ ويبـدو أن مـدة نبوتـه كانـت أطـول مـن مـدة جميـع الأنبيـاء ، فقـد لبـث فـي قومـه ألفـاً إلا خمسـين عامـاً ، كمـا أخبرنـا القـرآن بذلـك ـ أنـه قـال : ﴿رَبِّ إِنِّـي دَعَـوْتُ قَوْمِـي لَيْـلاً وَنَهَـاراً فَلَـمْ يَزِدْهُـمْ دُعَائِـي إِلَّا فِـرَاراً﴾[8] ، وهـذه شـهادة ينقلهـا لنـا القـرآن ، ونـوح(عليه السلام) نبـي معصـوم ، فكـم هـذه القضيـة معقـدة وصعبـة ! لقـد كانـت دعوتـه لقومـه ليـلاً ونهـاراً بشـهادة القـرآن ، فلـم تكـن دعوتـه موسـمية وفصليـة ، ولـم يتأخـر أسـبوعا عنهـا ، بـل اسـتمر ليـلاً ونهـاراً تسـعمائة وخمسـين سـنة ، فلـم يزدهـم دعـاؤه إلا فـراراً ، وكلمـا بالـغ فـي دعوتـه ، ابتعـدت عنـه النـاس أكثـر . ومـع كل ذلـك ، لـم يشـعر بالملـل ، ولـم يوهـن عزيمتـه مضـي القـرون تلـو القـرون ، ولـم يفـلّ مـن إرادتـه عـدم اسـتجابتهم لمنطـق الحـق ، بـل لـم يكـن لهـم مـن رد سـوى الاسـتهزاء والضحـك ، وبالرغـم مـن اعـادة الكـرّة عليهـم المـرة بعـد المـرة لعلهـم يهتـدون ، ومـع ذلـك كانـوا يفـرون منـه فيلحـق بهـم ويركـض وراءهـم وهـو يصـرخ بهـم : أيهـا النـاس أخـاف عليكـم نـزول العـذاب الإلهـي فتهلكـون جميعـاً ، حتـى بلـغ السـيل الزبـى ، ونـزل عـذاب الله سـبحانه وأغرقهـم بطوفـان لـم يكـن لـه مـن نظيـر ، ولـم ينـجُ منـه إلا تلـك القلـة القليلـة المخلصـة التـي اصطفـت مـع نـوح(عليه السلام) . فـأيّ صبـر كان يتمتـع بـه هـذا الرجـل العظيـم فـي تلـك الصحـراء القاحلـة ؟ ، عندمـا كانـت النـاس تبحـث عـن قطـرة مـاء خشـية أن تمـوت مـن العطـش كان(عليه السلام) يمسـك فأسـاً ويقطـع الأشـجار ، وكان

8. نوح : 5ـ6.

الناس يسألونه وهم في دهشة: ماذا تصنع بهذه الأخشاب؟ فيقول أُريد أن أصنع سفينة لأن الطوفان آت ليغرقكم. ويتعجبون من جوابه، فأي طوفان يتحدث عنه وهم في صحراء قاحلة؟! ويمرون به وهو يصنع السفينة، فيسخرون منه ويضحكون: وماذا عسى أن تجدي هذه السفينة في طوفان عارم؟! فيقول: إن الله أمرني بذلك، وكانوا يسألونه مستهزئين: متى يأتي الطوفان؟ فيجيبهم: في الموسم القادم. ويمضي الموسم ولم يأت ذلك الطوفان الموعود. ويزداد استهزاؤهم ويعيدون عليه السؤال كرة أُخرى عن الموعد الجديد لحلول الطوفان، فيقول لهم إن الله تعالى أخبره بأنه سيأتي في الموسم القادم. وتمضي السنون ويتأخر الموعد عشر مرات ـ كما تقول الرواية[9] ـ ولا شيء غير سفينة جاثية على رمال قاحلة، وقهقهات السخرية تملأ فضاء الصحراء، ورجل عجوز يحيط به بعض من آمن به ومجموعة من الحيوانات التي جمعوها ليحملوها معهم في السفينة حين يأتي الطوفان المرتقب كما أمرهم الله بذلك.

فتخيلوا، أيّ موقف محرج لنبي يخبر عن الله في وعد خطير بحلول كارثة لا تبقي ولا تذر، ثم لا يتحقق ذلك الوعد؟!. ولو كان الوعد خاصا بشخص أو شخصين لهان الأمر، ولكنه أمر يتعلق بالناس جميعاً. ولو كان الوعد مجرد كلمة أطلقها مرة أو مرتين أمام عدد محدود من الناس لسهل الخطب، ولكنه وعد قطعي كان يردده ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، وسنة بعد أُخرى، وأمام جميع الناس. لقد كان نوح(عليه السلام) على يقين من أمره، ولم يتزعزع يقينه لحظة في وقوع الطوفان. ولم يكن ما يحذّر منه مجرد كلمات، بل كان إصراره على هذا الأمر مقروناً بالعمل، فقد كان يجهد في بناء سفينة ضخمة تكفيه وعائلته وأصحابه والحيوانات التي جمعها من شتى الأصناف؛ من كلٍ زوجين اثنين.

لقد كان شهيد المحراب متأثراً كثيراً بشخصية نوح عليه وعلى نبينا وآله السلام، وعندما كان يتكلم أحياناً عن أحوال نوح(عليه السلام) كان يبكي،

9. انظر: بحار الأنوار 11: 339، ح 76.

لأنه كان يتمثل هذه المحنة، فقد كان مضغوطاً عليه ويعرف ما المحنة، لقد مر بسنين عجاف، وكانت عنده ثقة بالله سبحانه وتعالى، وأنجز كتابا أسماه (القصص القرآني)، وقد تعب في تأليفه كثيراً، وهو استعراض للسنن الإلهية في القرآن الكريم، وكان في تلك المرحلة التي كتب فيها هذا الكتاب، يركز جداً على هذه السنن.

لقد جئتكم بمثال نبي الله نوح(عليه السلام)، ومثال شهيد المحراب، وهو حالة حية عشناها وعاصرناها وعايشناها، ونحن اليوم ننتمي لهذا العنوان، لنتعلم كيف يمكن لنا أن نحوّل مخافة الله والمبدئية في حركته وسلوكه ومساره إلى مصدر قوة حقيقية، فلا نخشى أحداً إلا الله، وكيف يخشانا الجميع من غير ان تكون هناك أدوات ضغط على الآخر، وهذا أخطر، وهي تصبح مخيفة جداً لأعداء الله، بينما نحن في ذروة وقمة القوة، لأننا لا نخشى أحداً إلا الله سبحانه وتعالى.

نسأل الله تبارك وتعالى أن نكون من هؤلاء، ونراجع أنفسنا وندقق في دوافعنا وخياراتنا ونياتنا ومساراتنا؛ لماذا نتكلم هكذا ولماذا نتصرف هكذا؟ ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[10]، ارجع لنفسك فإنك لا تخطئ في تقدير نيتك أبداً؛ إن كنت مخلصا أم لا، وعلينا جميعاً أن نكون بيننا وبين الله تعالى مخلصين في أعمالنا لله، ونعلم لماذا نتكلم بهذا الكلام، ولماذا نتصرف بالطريقة التي نتصرف بها، وما دوافعنا؟ ولذلك على كل واحد منا أن يراجع نفسه ويتيقن أن جميع أقواله وأفعاله خالصة لله تعالى، ثم تبقى مشكلة كبيرة وهي كيف نحافظ على استمرار هذه النية إلى نهاية أعمارنا، فقد ينبثق العمل بنية صالحة، ولكن هل يستمر العمل أيضاً بهذه النية؟ فإن راجعنا أنفسنا وعلمنا أن نياتنا لم تكن في أساسها لله سبحانه، وإنما كانت لشيء آخر، فعلينا أن نرجع ونصحح النية، والتصحيح أمر ممكن في أي مرحلة، وفي أي مقطع زمني كان.

10. القيامة: 14-15.

(4)

العمل بين الإخلاص والرياء

قال الإمام السجاد(عليه السلام) : (لا تعمل شيئاً من الخير رياء ، ولا تدعه حياء)[11] .

تشير هذه الرواية الشريفة المروية عن الإمام السجاد(عليه السلام) إلى واحد من الأصول المهمة والمفاتيح الرئيسة في التصدي للعمل الاجتماعي لفعل الخير ، ألا وهو التوازن الدقيق بين أن يكون العمل خالصاً لله سبحانه وتعالى من ناحية ، ومن ناحية أخرى ألاّ يمتنع عن فعل الخير بذريعة أن دافع هذا العمل هو من أجل الآخرين ، أو أنه يحظى برعاية الآخرين ، أو أن هناك شكا وترددا في مدى إخلاص النية في هذا العمل ، فالإنسان الذي يتحرك ويقوم بأعمال صالحة قد يحصل في قلبه تردد وشك في خلوص نيته ، لاسيما من هو متصد ويصبح له جاه ومكانة في قلوب الناس ، أو في الأقل من المحيطين به ومن يتواصل معهم ويرتبط بهم ، فهنا تدخل امور على الخط بالتدريج ، كأن يرى نفسه ملزماً بفعل الخير ولكن ليس بنية خالصة لله تعالى ، وإنما لتوقع المحيطين به ذلك ، أو يفعل ذلك لجلب انتباه الآخرين ، أو ليتنافس مع أخ له أو زميل في مساحة التصدي ، فهو في الحقيقة يحقق ذاته وينتصر لنفسه ويتصارع على وجاهة أو موقع أو فرصة لأخ أو أُخت متصدية في ساحة العمل ، فالعنوان العام فعل الخير ، أو الانتصار للمشروع ، أو أن يقدم شيئاً للناس ، أو ينتصر للمذهب ، أو ينتصر للدين ، أو ينتصر للوطن ، ولكن الدوافع الحقيقية هي أن ينتصر لنفسه ويعمل لتغليب إرادته على إرادة الآخرين .

11. الكافي 2 : 231 ، ح 3.

إن الكثير من المسائل التي تحدث في مجتمعاتنا، حتى الصداقات والمشاريع الخيرية ومسائل من هذا النوع، تخضع أحياناً لعنصر التنافس، فالظاهر مجلس حسيني أو فعل خير أو زيارة مؤمن أو أي فعل من الأفعال، ولكن الواقع هو تنافس أو بحث عن شهرة. وتتداخل هذه القضايا بشكل كبير جداً حتى يصعب أحياناً تفكيكها وفرزها، ولكن نرجع ونقول إن الإنسان هو الأقدر على تشخيص نيته.

وعلى ضوء هذه الخلفية يقول الإمام السجاد(عليه السلام): «لا تعمل شيئاً من الخير رياء» لئلا تكون الدوافع دوافع غير إلهية؛ فلا تفعل شيئاً لكي يرى الناس فعلك أو لكي تحصل على مكانة عند الناس. ولكن لا يكن القلق من أن يكون العمل رياء أو ليس لله مانعاً لك من أدائه، أو مانعاً لك من فعل الخير، فتترك الزيارة مثلاً لأن عندك شكا وخوفا من ألاّ تكون خالصة لوجه الله، أو تترك إعطاء الفقير صدقة لأن صديقك كان يمشي معك وتحذر أن يشوب نيتك الرياء، وهكذا يتحول الاحتياط فجأة إلى سبب يمنع الإنسان من فعل الخير والإقدام على العمل الصالح، والصحيح أن الاحتياط في مثل هذه الأُمور هو في ترك الاحتياط، وهذا هو التوازن الدقيق بين الإقدام على العمل والمراجعة والتدقيق والتأكد، والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من أن تكون نية العمل لغير الله، فلا تقل إن نيتي ليست لله وعندي دوافع أُخرى، وتترك العمل، بل أصلح النية ولا تترك العمل، وانظر كيف يخلق هذا معادلة جديدة في سلوك الإنسان وحركته اليومية، هل تترك العمل لأن النية غير خالصة لله تعالى، او تستمر وتغير وتعدل النية التي هي فعل اختياري، فما كان لغير الله فاجتهد في أن يتحول ليكون عملاً إلهياً ويكون لله.

وإذا استطعنا أن نوجد هذا التوازن الدقيق، فإن فعل الإنسان سيتحول إلى فعل رسالي، وفعل إلهي، وحينئذ يمكن أن تكون جميع الأعمال عملاً إلهياً، وعملاً قُربياً يستحق عليه الثواب، حتى أكل الطعام والنوم والراحة والاسترخاء والنزهة التي يذهب فيها الإنسان مع رفيق ليقضي ساعات ويخفف عن نفسه. وحينئذ يمكن أن يكون الهدف هو التقرب إلى الله

سبحانه وتعالى في كل عمل يأتي به الإنسان، فالإنسان يحتاج إلى الطعام حتى يتقوى على طاعة الله تعالى، ويحتاج إلى النوم حتى يستعد لطاعة الله تعالى، ويحتاج إلى أن ينفس عن نفسه حتى يقوى على طاعة الله تعالى وفعل الخير والعمل بواجباته، وحينئذ تصبح هذه الأعمال مقدمة للواجب، ومقدمة الواجب واجبة، أو مقدمة للمستحب، ومقدمة المستحب مستحبة، كما قرر ذلك في علم أُصول الفقه، وبما أن جميع هذه الأُمور يقوم بها الإنسان حتى يكون في وضع يمكنه من فعل الخير والإقدام على العمل الصالح، فسيصبح كل عمله إلهياً.

فيا من تضعف أمام الأفعال وتبتعد عن نية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، لا تترك العمل بذريعة أن النية غير خالصة، بل ركز على نيتك واصلحها حتى تكون نية صالحة، وهذا هو التوازن الدقيق بين أن نفعل ونقدم ونتعامل مع الحياة ونندفع أكثر في فعل الخير وفي التصدي، وبين ترك العمل خوفاً من عدم وجود نية القربة.

ولكن من ناحية أُخرى، يجب أن يكون هذا العمل خالصاً لله سبحانه، وليس لاعتبارات أُخرى، وبالتدريج نستطيع أن نشذب ونقلّم هذه التداخلات الأُخرى والعناصر الجانبية الأُخرى التي قد تدفع بالإنسان إلى أن تكون نيته باتجاه آخر غير النية الصالحة والعمل الصالح. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للحفاظ على هذا التوازن الدقيق، وأن نقدم المزيد، وأن يكون ذلك لله سبحانه وتعالى، وأن يجعلنا أقرب إلى الإخلاص، وأقرب إلى التوكل على الله تعالى، وأقرب إلى الاستعانة بالله سبحانه وتعالى موجد هذه السمات في وجودنا، وهذا ما سيفتح أمامنا أبواباً واسعة، ويفتح أمامنا التوفيق الإلهي، وهذا هو ما نحتاج إليه، وهو أن يكون عملنا عملاً إلهياً بدوافع إلهية لخدمة الناس، ولغايات شريفة ونبيلة، وهذا هو الأساس. وقد مرّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو سيد الأنبياء والمرسلين وأعظم الخلائق على الاطلاق في مسيرته الرسالية بانتصارات واخفاقات.

فالحياة الدنيا هي دار البلاء والابتلاء والتمحيص والغربلة، يجب أن

يخوضها الإنسان الشخص، والإنسان المشروع، والإنسان الرسالة، وهي كما قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[12]، فهذا رسول الله(صلى الله عليه وآله) نراه مرة في بدر ونراه مرة أُخرى في أُحد، ولكن شتان ما بين بدر وأُحد في ظروفهما وخلفياتهما، ونشاهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) والذين معه من المسلمين في تجربة جديدة في حنين، كما وصفها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[13]، فحالة الإدبار، وحالة النكوص والتراجع، قد مرت بالمسلمين ورسول الله(صلى الله عليه وآله) بين ظهرانيهم، ولكن الأُمة الإسلامية ما كان يمكن أن تصقل وتعد هذا الإعداد الكبير لولا هذه المخاضات العسيرة. ولذلك فنحن لسنا استثناء، ولسنا أفضل، وما نحن إلا قطرة في ذلك المحيط والبحر الكبير المتلاطم لوجود رسول الله(صلى الله عليه وآله).

لقد عاش شهيد المحراب وعزيز العراق ظروف الانتصار والوهج الكبير، وعاشوا ظروف الانتكاسات والتلكؤ في المشاريع، وعلى كل حال فنحن لسنا استثناء، والحمد لله رب العالمين.

12. البقرة: 214.

13. التوبة: 25.

(5)

الموقف الصحيح واحتمال الخطأ

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (غريبتان : كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها ، وكلمة سيئة من حكيم فارفضوها)[14] .

تشير هذه الرواية الشريفة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلى مفاهيم في الأُصول المهمة في التعامل مع الآخرين ، وفي دروس الحياة ، وطبيعة العلاقات مع الآخرين ، وتمتد إلى الإنسان نفسه ، مهما كان هذا الإنسان ، فرداً أو ممثلاً في جماعة ، فهو يتسم بالحكمة والموضوعية باستحضار المصالح بالدقة ، ولكن قد يزل ويخطئ ، وقد تصدر منه بعض المواقف وبعض الأفعال مما لا يليق به ، ويجب علينا أن ندرس هذه الحالة ، لأننا نرى في واقعنا اليوم انتشاراً لها ؛ فلان قال هذا ، وفلان صنع هذا ، وتستغل للتذكير المستمر بهذا الأمر لتشويه السمعة وإضعاف الآخر ، في حين يجب على الإنسان أن يغفر لمن قلّت زلته ومن اعتاد الناس أن يسمعوا منه كلاماً طيباً ويروا منه مواقف صحيحة ، ولكنها رسالة لمن يعتقد بأن على المفكر أن يتأمل ويدقق ، ولكن مهما كانت هذه الدقة فإن احتمال الزلل يكون وارداً في غير المعصوم إلا ما رحم ربي .

وهذا هو الدرس ، إذ مهما تألق الإنسان الفرد أو الإنسان الجماعة ، فإنه يجب أن يبقى دائماً يحسب لنفسه حساباً في احتمال الوقوع في الخطأ ، لئلا يقع في أوهام العصمة وأوهام التمسك بعدم الوقوع في الخطأ . وفي هذا بعد أخلاقي للإنسان نفسه ؛ إذ كلما تألق الإنسان وتميز وبذل جهوداً

14. بحار الأنوار 2 : 42 ، ح 7 .

أكبر وشكل لجاناً تخصصية ودرس الظروف بنحو أدق، يجب عليه دائماً أن يستحضر احتمال الوقوع في الخطأ.

انظروا إلى هذه الثقافة في حوزاتنا العلمية، فمراجعنا العظام الذين بلغوا مراتب عالية في الفقه وفي المعرفة، الذين يجب تقليد الأعلم منهم، عندما يطرح رسالة عملية يدون فيها ما توصل إليه في استنباطاته للأحكام الشرعية، لكي يعمل بها مقلدوه، ويكتب في الصفحة الأُولى من الرسالة العملية: هذه الرسالة الشريفة مبرئة للذمة إن شاء الله تعالى. أي أن المكلف الذي يعمل على ضوء ما ورد فيها من الأحكام الشرعية يكون بريء الذمة أمام الله عز وجل. وهذه العبارة التي نجدها في أول الرسالة العملية هي لمن يرى نفسه أعلم الفقهاء، ولمن يدقق ويتأمل حتى يصل إلى الحقيقة، ولكن لا يزعم أن فتاويه هذه مطابقة للواقع وهي عين الأحكام الواقعية التي أنزلها الله تبارك وتعالى، بل هي تمثل ما وصل إليه من الأحكام الشرعية بعد بذل الجهد والسعة، إذ أن بعضها أحكام ظاهرية ووظائف شرعية للمكلف يبينها الفقيه في حالة غياب الأحكام الواقعية. وهذا منطق الإسلام، فمهما بلغ الإنسان في مراتبه الكمالية وفي قدراته العلمية والفكرية وفي تجاربه العملية يبقى دائماً يحتمل الخطأ في استنتاجاته ومواقفه، ليبقى الحراك وتبقى الفرصة لإعادة النظر وتجديد الخط.

وعلى ضوء ما تقدم نستخلص ما يلي:

أولاً: لا نقبل بالعصمة لغير المعصوم مهما كان، ولا نقبل بمقولة: لا تتكلم ولا تناقش ولا تراجع، كائناً من كان صاحب الكلام؛ لأن كلام غير المعصوم قابل للنقاش ويجوز فيه الخطأ.

ثانياً: إذا صدر الخطأ ممن يقل منه الخطأ لا نشير إليه ولا نلوح به.

ثالثاً: مهما كان الإنسان وضيعاً ولكن يجب أن أُبقي معه جسراً للتواصل، ولذا ينبغي ألاّ ندقق في أقواله وأفعاله؛ لأنه سفيه قد يجري الله سبحانه وتعالى على لسانه كلمة حق وحكمة، وقد يجد

توفيقاً في موقف مسدد وصحيح، وعلينا أخذ الموقف الصحيح من أي كان حتى لو كان سفيهاً؛ لأن صفات الشخص لا تمتد إلى الفكرة الصحيحة، وربما كان موقف السفيه هو الموقف الصحيح، فإن الحسن عقليّ والقبح عقليّ، ولهذا فإن الشيء الحسن يبقى حسناً حتى لو صدر من شخص سيئ.

وكم تحمل هذه الرؤية من أبعاد، فإن الإنسان يحتاج دائماً في تعامله مع الآخرين إلى القاعدة الذهبية في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[15]، وقد جسدتها المقولة المعروفة: «انظر إلى ما قيل، ولا تنظر إلى من قال». خذ الكلمة وانظر هل هي كلمة حق وحكمة أو لا؟ وإن كانت صادرة من أحكم الحكماء، لأن حكمة الرجل لا تمتد إلى كلماته إذا لم تتسم بهذه الحقائق. وهكذا إذا صدرت حكمة من سفيه فخذها ولا تتركها.

وهذا الأصل يجعل الإنسان مهما ارتفع لا يشعر بالغرور، ولا يشعر بالنرجسية، ولا يتكبر على الآخرين؛ لأنه يعلم أنه مهما عظم، يمكن أن تصدر منه هفوة مادام غير معصوم. ومن ناحية أُخرى تجعل الإنسان لا يستخف بالآخرين مهما كانوا في ظروف سيئة في سلوكهم وفي أقوالهم.

وهذه الحكمة عندما تأتي على لسان سفيه ففيها إشارة أيضاً إلى ربوبية الرب سبحانه وتعالى الذي بيده الأُمور ويقدّر كل شيء تقديراً دقيقاً بنحو لا تدركه عقول الحكماء في أحيان كثيرة. فقد تجري الحكمة على لسان هذا السفيه، ويكون له موقف مسدد لإنسان في لحظة حرجة تغير توازنات، وتغير مسارات.

وكم من إنسان كان ذا مواقف جيدة ولكن ساءت عاقبته وكان مصيره أسود، كالشمر بن ذي الجوشن الذي كان عالماً عابداً من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) وقاتل معه في صفين، وكان تأريخه

15. الزمر: 18.

ناصعاً وأبيض، ولكنه كبا في اللحظة الحرجة كبوة لا تغتفر، وانتهت خاتمته بسوء حتى أصبح ملعناً للتأريخ .

وكم من إنسان كان ذا مواقف سيئة ولكن حسنت عاقبته، كالحر بن يزيد الرياحي الذي كان تأريخه مليئا بالانتصار للظالم، وتربى في أكناف الظالمين، وتربى في مدرسة بني أُمية، وتسلق وصعد في سلسلة المراتب الوظيفية إلى أن أصبح جنرالاً وتسلم قيادة طلائع جيش الكوفة في معركته مع الإمام الحسين(عليه السلام)، ولكن في اللحظة الأخيرة شملته الرحمة الإلهية فكان الحر كما ولدته امه حراً، وانقلب مصيره وكانت عاقبته شهيداً مع الإمام الحسين(عليه السلام) .

فيا من له تأريخ وضاء منير ومليء بالحسنات والمواقف المشرفة، نسأل الله أن يجعلنا ممن يعتمد هذا المنهج في أفعاله وأقواله وسلوكه وتقييمه للآخرين وتقييمه لجماعته . والحمد لله رب العالمين .

(6)

علامات الأشقياء

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (أربع من علامات الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وشدة الحرص في طلب الدنيا ، والاصرار على الذنب)[16] .

ذكر رسول الله(صلى الله عليه وآله) أربع صفات وسمات للأشقياء، نستجير بالله ونعوذ به من أن نكون من الأشقياء، وهي كالتالي :

الأُولى : جمود العين، وهو كناية عن عدم البكاء في المواقف العاطفية التي تستدر الدموع . فالبعض لا يستطيع أن يبكي، لأن قلبه ليس فيه رقة، وعندما تذكر عنده المصائب لا يتفاعل ولا يتعاطف معها، وتكون دمعته عصية . وهو مؤشر غير صحي، إذ المؤمن إنسان قلبه نير بذكر الله سبحانه وتعالى وخاشع، وهذا الخشوع يملي عليه انكساراً في القلب ورقة تكون معها دمعته حاضرة في العين . ولذلك من لا يمتلك هذه الصفة يجب أن يراجع نفسه وينظر ما الأسباب التي تجعل العين جامدة، وتجعل القلب قاسياً . فهناك من يشاهد مظلوماً أو يشاهد تقريراً في التلفزيون يتحدث عن ظلامة لأُناس لا يعرفهم فيندفع بالبكاء، وعلى عكس ذلك هناك شخص لا يكترث من أكبر المصائب التي يراها، ولا يعنيه إلا أمر نفسه . وشتان بين هذا وذاك .

الثانية : قسوة القلب، وهي تنشأ من الغفلة عن ذكر الله تبارك وتعالى،

16. الكافي 2 : 29. ، ح 6.

كما أشارت إليه الآية المباركة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[17]، وتنشأ القسوة أيضاً من طول الأمل، كما ورد ذلك عنهم(عليهم السلام)، أنه في ما ناجى الله عز وجل به موسى(عليه السلام): «يا موسى لا تُطل في الدنيا أملك فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد»[18].

الثالثة: شدة الحرص في طلب الدنيا، فحينما يكون الإنسان حريصاً على الدنيا وله طموحات مادية كبيرة، يكون كل همه كيف يحقق هذه الطموحات، ولا يعرف أنه ليس له قدر أكثر مما يكون، وأنه مهما يبذل من جهد، ومهما يصرف من وقت، ومهما يرتكب من مخالفات، ومهما يوظف من مكائد، فإن هذا شيء مقدر له، ولن يتمكن من الحصول على أكثر من هذا، فهو يتحرك من فراغ، ويزيد الأزمات على نفسه بشدة حرصه. وشدة الحرص لا تقابلها حالة الكسل والخمول، بل يقابلها تحمل المسؤولية، والاهتمام بالأسباب الطبيعية ضمن سياقاتها ومساراتها، والقبول بالقدر الإلهي، سواء كانت هذه الأسباب منتجة أو قليلة الانتاج أو عديمة الانتاج، ويشعر أنه قام بدوره في حالة ما، ويرضى بما قدر الله سبحانه وتعالى له.

الرابعة: الإصرار على الذنب، وهو تكرار الذنب، وعدم الندم على ارتكابه، وعقد العزم على الإتيان به متى سنحت له الفرصة بذلك. وليس المقصود ما قد يصدر عن الإنسان من ذنب في لحظة ضعف؛ لأنه خال من الإصرار على تكراره. والذنوب الصغيرة بتكرارها تتحول إلى ذنوب كبيرة أيضاً؛ لأن الإصرار على الصغائر يعد من الكبائر.

إن هذا الإصرار يمثل حالة عناد وتمرد، وحالة مواجهة لله سبحانه وتعالى وتقديراته، وهذه قضية يجب أن يبتعد عنها الإنسان؛ لأنها توجب الشقاء. نسأل الله تبارك وتعالى أن يبعدنا عن الشقاء، وأن يجعلنا من الأتقياء، وأن

17. الزمر: 22.

18. الكافي 2: 329، ح 1.

يجعل قلوبنا نيرة، وأن يجعل وجودنا وتوجهنا نحوه سبحانه وتعالى، ولا سيما أمثالنا من المتصدين للعمل الاجتماعي والسياسي والمهني، فإن هموم الحياة وحالة التدافع مع الآخرين في خضم هذا المعترك الذي نعيشه تجعل الحفاظ على حالة النقاء والطهارة والرقة وسلامة النفس والتوجه نحو الله أمراً صعباً. فمرة يكون الإنسان إماماً لصلاة الجماعة في مسجد يلتقي فيه مع المؤمنين ويتواصل مع شريحة معينة، أو مؤلفاً جالساً في بيته يؤلف الكتب ويعيش مع الكتاب في عالمه الخاص، يكون أسهل عليه أن يوفر لنفسه هذه الحالة. ولكن الإنسان المتصدي في صلب المجتمع ويعيش المعاناة ويشاهد مكائد الآخرين وهم يتدافعون معه ويجب أن يتدافع معهم ليثبت وجوده، كيف يمكن أن يعيش حالة الرقة وحالة التقوى وحالة الورع؟! وهذه مسائل معقدة جداً، نسأل الله أن يعيننا عليها.

ولقد كان شهيد المحراب من هذا النوع، فهو في صلب الهموم والانشغال والانغماس في العمل، وكان دؤوباً في عمله، ولكن مع ذلك كانت هذه الرقة موجودة لديه، فكانت دمعته قريبة من عينه، وسرعان ما يتأثر ويتفاعل وتظهر عليه هذه الرقة، فكان يبكي في الصلاة، ويبكي في التعقيبات، ويبكي في الدعاء حينما يتفاعل معه، ويبكي حينما يتلو القرآن. وكان يحافظ على هذه الحالة من التفاعل بالرغم من جميع المشاكل والتحديات السياسية والاجتماعية.

وهذه تعطي للإنسان ثقة وقوة وتحقق لديه نوعا من التوازن في شخصيته، ويجب أن نكون حريصين في الحفاظ على هذه الحالة مهما انشغلنا في الشؤون الدنيوية.

(7)

مفازع الناس

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (إن لله عباداً يفزع إليهم الناس في حوائجهم ، أُولئك هم الآمنون من عذاب الله يوم القيامة ، أُولئك هم الآمنون من عقاب الله يوم القيامة)[19] .

تشير هذه الرواية المباركة إلى مجموعة من الحقائق يجب أن ينتبه لها العاملون في الحقل الاجتماعي ، فهي تتحدث عن وجود مجموعة من الناس في المجتمع هم عباد لله عز وجل ، وهؤلاء العباد يفزع إليهم الناس في حوائجهم ، وهؤلاء العباد هم الآمنون يوم القيامة .

يشهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) لهذا الصنف من الناس بأنهم عباد لله عز وجل ، أي يشهد لهم بالعبودية لله ، ومقام العبودية لا يصل إليه الإنسان إلا بعد أن يتمحض في العبودية لله عز وجل ، وتكون عبادته خالصة لوجهه الكريم ، لا يشوبها أي لون من ألوان الرياء والشرك الخفي . وهو مقام لا يصل إليه إلا الأوحدي من المخلصين الذين لم تخدعهم الدنيا وزخرفها ولا الشيطان ومكائده .

وتضمنت الفقرة الثانية من الرواية وصفاً آخر لهذه المجموعة وهي أنهم مفزع الناس في قضاء حوائجهم ، فيلجؤون إليهم عند اشتداد الأزمات وتعسر الحاجات ، ولم تصفهم الرواية بأنهم عباد يخدمون الناس ، بل يفزع الناس إليهم ، وفرق كبير بين التعبيرين . فهناك شخص يخدم الناس ، وهو

19. بحار الأنوار 74 : 157 ، ح 134 .

الـذي يبـادر ويذهـب لتفقـد أحوالهـم وقضـاء حوائجهـم ، وهنـاك شـخص يلجـأ النـاس إليـه لقضـاء حوائجهـم ، فهـم لا ينتظـرون حتـى يأتـي إليهـم مـن يتفقـد أحوالهـم ويطلـع علـى حاجاتهـم ، بـل يبـادرون إليـه عنـد تعرضهـم للأزمـات والشـدائد . والفـرق بينهمـا أن مـن يخـدم النـاس ليـس بالضـرورة هـو مـن يلجؤون إليـه عنـد تعسـر حاجاتهـم ، فـالأول هـو مـن يختـار النـاس الذيـن يتعامـل معهـم ، والثانـي هـم مـن يختارونـه ليتعاملـوا معـه .

كمـا أن التعبيـر بـ«يفـزع النـاس إليهـم» تعبيـر يوحـي بـأن هـذه المجموعـة مـن النـاس معروفـة لديهـم ، وهـي كهـف لهـم ، ويتوقعـون قضـاء حوائجهـم علـى أيديهـم . كمـا أن هـذا التعبيـر يسـتبطن وجـود اضطرابـات مشـاكل وقضايـا لا يرتجـى حلهـا عنـد عمـوم النـاس أو حتـى عنـد اؤلئـك الصنـف المهتـم بشـؤون النـاس وحـل مشـاكلهم ، وتـرى النـاس يقولـون إن هـذه قضايـا ليـس لهـا إلا فـلان . وهـذا الشـخص الفلانـي ليـس بالضـرورة ان يكـون وزيـراً أو مديـراً ، بـل هـو إنسـان لديـه همـة عاليـة وإصـرار وقـدرة أو وجاهـة عنـد الله عـز وجـل . وهـذا التعبيـر يمكـن أن يكـون لـه دخـل فـي القضايـا الحساسـة والخطيـرة ، التـي يمـر بهـا النـاس عنـد تعرضهـم للأزمـات العاتيـة فيهرولـون فزعيـن إلـى ملجـأ حصيـن وركـن ركيـن يـأوون إليـه . وحينمـا يكـون الإنسـان فـي مسـتوى أن عمـوم المؤمنيـن وعمـوم النـاس يفزعـون إليـه فـي الشـدائد ويدقـون بابـه ويـرون فيـه الطريـق لحـل مشـاكلهم وقضـاء حوائجهـم بصدقيتـه وبحرصـه واهتمامـه ، فهـو بـلا شـك يكـون ذا منزلـة ومقـام رفيـع عنـد الله تبـارك وتعالـى .

وفـي الفقـرة الأخيـرة مـن الروايـة لـم يقـل رسـول الله(صلى الله عليه وآله) أُولئـك مـن الآمنيـن ، بـل قـال «هـم الآمنـون مـن عـذاب الله يـوم القيامـة» ، انظـروا هـذا التعبيـر الـذي يحتـاج إلـى أن تسـتنفر جميـع أسـاليب ووسـائل وقواعـد اللغـة العربيـة لكـي تحيـط بأبعـاده ، إنـه تعبيـر يكـرس الاختصـاص والأهميـة ، لعنصـر الأمـان الـذي يتناغـم مـع تعبيـر الفـزع . فالنـاس يفزعـون إلـى هـؤلاء فـي الدنيـا فيقضـون لهـم حوائجهـم ، فيثيبهـم الله تبـارك وتعالـى بأعلـى درجـات الأمـان فـي يـوم القيامـة ، يـوم الفـزع الأكبـر .

وأما بالنسبة إلى قضاء حوائج الناس فهنالك الكثير من الآيات والروايات في هذا المجال. ولكن نود أن نشير هنا إلى أهمية قضاء حوائج الناس في ميزان أعمال الإنسان في يوم القيامة. يعتقد البعض بأن أقرب الطرق إلى الله تبارك وتعالى هي العبادة الشخصية في حين أن قضاء حوائج الناس يمكن أن تعوض آلاف الركعات من الصلوات المندوبة والمستحبة كما ورد في الروايات. فنظام الأولويات في الرؤية الإسلامية ومسار التكامل في الشخصية الإنسانية من وجهة نظر القرآن الكريم ومن وجهة نظر الإسلام، يضع موازين ومعايير تختلف تماماً عن المعايير التي نضعها نحن لأنفسنا أو نشاهدها، فقد يكون هناك شيء لا نراه مهماً، ولكن هو في الواقع له دور كبير في التكامل.

وهناك قصة معروفة عن عالمين كبيرين تعاهدا على أن يأتي المتوفى أولاً منهما إلى صاحبه في عالم الرؤيا ويخبره عما رأى في عالم البرزخ. فتوفي أحدهما والتزم بعهده وجاء إلى صاحبه في عالم الرؤيا وحدثه عما جرى له في ذلك العالم، وقال له: إني كنت واثقاً من النجاة، لما أملكه من أعمال كثيرة جمعتها خلال سبعين عاماً من العبادة والتهجد والدعاء والعلم والمؤلفات والعطاءات، ولكن عندما وقفت بين يدي منكر ونكير للحساب تبخرت أعمالي ولم أجد عملاً مقبولاً مسجلاً عندهم مهما ذكرت لهم من صالح أعمالي، وكانوا يردونها عليّ ويقولون إن نيتك فيها لم تكن خالصة لله تبارك وتعالى، حتى يئست من النجاة، ولكن الملائكة قالت لي إنه يوجد لديك عمل واحد مقبول لم تذكره، وهو أنك قد اشتريت مرة (كيلو) من التفاح وبينما أنت في الطريق شاهدت يتيماً يبكي ومسحت على رأسه وأخرجت تفاحة وأعطيته إياها فأدخلت السرور على قلبه، ولم يحظ هذا العمل بأهمية في نظرك لتصاب بالعجب فيه فيحبط فيه ثوابك ونسيته، ولم يكن أمراً مهماً في نظرك حتى تتكلم به للآخرين فتضيعه بالرياء، وبسبب هذا العمل كتب الله تعالى لي الجنة. ولم تنفعني مؤلفاتي ولا عبادتي ولا محاضراتي ولا دروسي ولا أعمالي سوى هذه التفاحة.

ونستفيد من هذه القصة، أن أشياء نجدها صغيرة، قد تكون مهمة جداً عند الله تعالى. وقد نرى أشياء مهمة جداً وهي لا تعادل عند الله جناح بعوضة. فمعايير الصلاح والكمال في المنظومة الإسلامية والرؤية الإسلامية قد تكون مختلفة شيئاً ما، عما نعتقد به وتسالمنا عليه. وهذا لا يعني التقليل من قيمة العبادات الشخصية من الدعاء والصلاة والتضرع إلى الله والعلم وأمثالها، فجميع هذه المسائل مهمة وأساسية ولها مكانتها الكبيرة، ولكن الأعمال ذات البعد الاجتماعي، كخدمة الناس والوقوف مع مظلوم لرفع مظلوميته وأمثال ذلك لها تأثير كبير جداً في موازين الله سبحانه وتعالى، كما قال جلّ من قائل: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[20].

ومن معطيات تعبير «اولئك هم الآمنون من عذاب الله يوم القيامة» هو أن هذه المجموعة تكون آمنة بمجرد أنها نوت أن تتحرك وتساعد في حل مشاكل الناس، فالانجاز بيد الله تبارك وتعالى، وهو الذي يجعل البركة ليس في الحل فقط، بل في حياتها وعائلتها وذريتها وصحتها ورزقها، فإن لجميع هذه الأشياء آثارا وضعية تترتب على هذه الروحية في الخدمة والانطلاق في حل مشاكل الناس.

20. النور: 15.

(8)

الإحسان والحب

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (إن الله جَبلَ قلوب عباده على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها)[21] .

تشيرهذه الرواية الشريفة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلى حالة إنسانية مهمة، وهي أن قلب الإنسان ومشاعره في طبيعتها تنفتح على من يحسن إليها وعلى من يتعامل معها بالمعروف، وتنقبض وتنكمش عمن يسيء إليها؛ لذلك فمسألة العلاقة الاجتماعية والتواصل مع الناس وكيفية التعامل مع الآخرين، وما الانطباع الذي نتركه في أي علاقة مع شخص يشاهدنا، مسألة تحظى بأهمية بالغة.

عندما يلتقي شخص بنا أو يتصل بنا، ما الانطباع الذي يتكون لديه عنا؟ وليس الكلام هنا عن مبدئية الشخص أو عن نيّاته، فهو صاحب مبدأ صحيح ونيات طيبة، ولكن ربما كنا حين اللقاء منزعجين، أو مشدودين، أو كان بالنا مشغولاً في قضية أُخرى، فلم نوله الاهتمام المطلوب، فينبغي الاعتذار إليه، وإلا تركت انطباعاً سيئاً قد يؤدي به إلى اتخاذ موقف .

ونحن على أرض الواقع نرى أن هناك بعض الناس نرتاح لهم، وآخرين لا نرتاح لهم، وهناك شخص ننفتح عليه، وآخر ننكمش منه. وربما لا نعرف الأسباب الكامنة وراء هذا الحب والبغض. وهذا الانفتاح أو الانكماش هو وليد الانطباع، ولكن ما سبب هذا الانطباع؟، ربما ننسى

21. بحار الأنوار 74 : 157 ، ح 137.

ما حدث بيننا وبينه ويبقى في بالنا فقط أن هذا الشخص لا نرتاح له، وأن لدينا موقفاً مسبقاً منه، وقد يكون السبب هو أن تعامله معنا في لحظة ما لم يكن تعاملاً طيباً، فترك انطباعاً سيئاً، وهذا الانطباع يبقى ونغفل عن مناشئه وننسى أحياناً. فلذلك كلما كان أساس التعامل والعلاقة مع الآخرين فيه محبة وشفقة وابتسامة وكلمات رقيقة ومشاعر طيبة، فإن الانطباع عن اللقاء معنا والتواصل معنا سيكون انطباعاً جيداً.

وهذا هو المنهج الذي يصححه ويؤكده رسول الله(ﷺ)، اضافة إلى النية الصالحة والدوافع النبيلة والمنظومة الأخلاقية والقيمية العامة. إن السلوك الصحيح والتعامل الصحيح، قضية أساسية ومطلوبة في التعامل مع الآخرين، فمظهر أو شكل العلاقة هو الذي يكشف عن المضمون، وهو الذي يصحح المضمون.

فحينما يظهر الإنسان أحياناً شيئاً معيناً ويركز عليه فإنه ينعكس عليه، كما لو ظهر بمظهر حسن والتزم بهندام جيد، فهو يساعد على تصحيح الخلل.

وكما لو تقيد في العبادات في قضايا دقيقة جداً، فكان يفحص هل أن القبلة تسعون درجة أو خمس وتسعون درجة؟. وربما يعترض البعض على هذه الدقة ويقول هذا وسواس، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[22]. وهذا كلام غير صحيح، فإن الإنسان إذا ابتعد خمس درجات عن القبلة، وهو يعلم أنها ليست مع القبله، ثم صلى خلاف القبلة بخمس درجات فهذه صلاة باطلة.

وهكذا مسألة النجاسة في الثوب الذي يصلي فيه الإنسان إذا زادت عن مقدار معين، وهو مقدار قليل جداً، فإن صلاته باطلة. فهنالك فرق بين حالة العلم بنجاسة الثوب عند الصلاة وبين العلم بها بعد الانتهاء من الصلاة، فيحكم الشارع بصحتها في الثانية دون الأُولى. وربما يتساءل

22. البقرة: 115.

البعض عن تاثير هذه النجاسة القليلة في الثوب في النيات والارتباط بالله تعالى، فنقول إن الظاهر معبر عن الباطن ومصحح له أحياناً، والباطن يجب أن يكشف عن نفسه بسلوك الإنسان ومظهره .

ويأتي نفس الكلام في قضية العلاقة ايضاً، فربما كان هناك إنسان رؤوف جداً ولكن وجهه عبوس، فتتجنب الناس الحديث معه، ولكنه إنسان لطيف في واقعه، وهذا الواقع الذي يخالف الظاهر لا يكتشفه إلا الراسخون في العلم، ولا يستطيع أن يكون عنصراً مؤثراً وفاعلاً في حياة الإنسان وفي تعاملاته مع الآخرين، لذلك يجب أن تبرز حالة الدين في سلوك الإنسان.

يقول الله تبارك وتعالى عن هذه المسألة: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[23]، أي يارسول الله أنت نبي وأفضل وأشرف الناس، إذا لم تلاحظ هذه القضية فإن الناس تتفرق من حولك، فيجب أن تكون بهذه الصفة.

لذلك فإن قضية مظهر الإنسان وسلوكه لها دور كبير في بناء العلاقة مع الآخرين .

23 . آل عمران : 159 .

(9)

حقيقة الإيمان

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (الإيمان عقد بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان)[24] .

تشير هذه الرواية الشريفة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلى مراتب ثلاث ، حينما تنسجم وتتواءم وتتفق بعضها مع البعض الآخر ، يكون الإنسان قد بلغ مرحلة الإيمان . ويشترك في مرتبة الإيمان القلب واللسان والسلوك ؛ إذ العمل يكون على ثلاثة مستويات : أحياناً يحمل الإنسان في نفسه مشاعر معينة سلبية تجاه الباطل وإيجابية تجاه الحق وأهله ، وأحياناً أُخرى يتجاوز الشعور القلبي الصحيح والتعاطف القلبي الصحيح ويتحول إلى نصرة الحق بلسانه ، فيتحدث بالحق ويصطف مع أهله بلسانه بالكلمة والتصريح ويتخذ موقفاً من الباطل على مستوى اللسان ، وأحياناً يتجاوز الجانب القلبي والجانب اللساني إلى السلوك ، فيصطف في موقفه اصطفافاً كاملاً مع الحق ويكون هو من أهل الحق ، وهناك فرق كبير بين من يساند أهل الحق وبين من يكون هو من أهل الحق .

وموقف الإنسان من الحق على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : الإنسان الذي يحمل مشاعر وعواطف اتجاه الحق ، ولكن قوله وفعله في اتجاه آخر ، فلا يعتبر من أهل الحق .

النوع الثاني : الإنسان الذي يحمل مشاعر الود ويناصر أهل الحق

24 . بحار الأنوار 66 : 65 ، ح 13 .

بالكلمة، ولكن موقفه مع أهل الباطل تحت يافطة واحدة بذريعة أنه مأمور والمأمور معذور، فيعتبر من أهل الباطل أيضاً.

النوع الثالث: الإنسان الذي يكون موقفه وسلوكه وأداؤه مع الحق، ولا يكون الإنسان من أهل الحق إلا بعد أن يحسم هذه المشكلة وهذه الجدلية مع نفسه، بحيث يكون ما في قلبه وما يجري على لسانه، وما يمارسه في سلوكه باتجاه واحد، ومثل هذا الإنسان يكون مرتاحاً وصادقاً مع نفسه ولا اثنينية عنده ولا يعيش حالة التناقض الداخلي ولا يعيش حالة الازدواجية في الموقف، فكلمته واحدة لا تتغير.

فالإنسان الصادق دائماً مستقر، بينما يعاني الإنسان الكاذب المخادع من قلق واضطراب نفسي، ولذلك ترون أن جهاز كشف الكذب هو ليس إلا ذبذبات معينة يضعونها على الإنسان ويسأل سؤالاً، فإن كان نبض القلب لم يختلف عندما يجيب، فهو دليل على أن ضغط الدم لم يصعد ولم ينزل وهذا معناه أنه صادق.

إذن، الكلام الصادق هو كلام يبعث على الاطمئنان والاستقرار، فيكون الإنسان الصادق هادئا ومسترخيا وغير متصنع، وحينما يتحدث عن قضية غير واقعية تبدأ عملية التناقض بين القلب واللسان والفعل والأداء، فتبدأ حالات التعرق، وتبدأ حالات التركيز؛ لأن هذا الكلام اصطناع لشيء غير واقعي.

وحينما يتناقض الإنسان في حقيقة إيمانه وفي نظرته تجاه الله سبحانه وتعالى وفي نظرته تجاه القيم وفي تعاطيه وتعامله مع الواقع الخارجي الذي يعيشه، تتولد حالة ازدواجية، وحالة اثنينية نعبر عنها إسلاميا بالنفاق، والنفاق هو أن يظهر الإنسان شيئاً أو يتحدث بشيء ولكن مشاعره القلبية في شيء آخر، فالنفاق هو أن يقول الإنسان شيئاً ويفعل شيئاً آخر.

وحالة الازدواجية هذه كانت شائعة جداً في العصر الذهبي، وكانت

البدايات دائماً بدايات ناجحة وموفقة، ويبقى الإنسان دائماً ينظر إلى المراحل الأُولى من تجاربه. وفي أي مجال وجدت صدقية أكثر كان هناك اندفاع أكثر وحماسة أكثر، وبعدها تدخل أشياء كثيرة على الخط. وفي البدء هناك دائماً انطباعات وشعور في تعاطي الإنسان مع هذه التجارب.

وعندما جاء رسول الله(ﷺ) ودخل الناس بالتدريج إلى الإسلام، وأخذت أعداد المؤمنين به تزداد يوماً بعد يوم، إلى أن هاجر رسول الله(ﷺ) إلى المدينة وأقام دولة وصار للإسلام نفوذ وهيبة، كثر المسلمون وتفاوتت الأهداف والغايات في اعتناق الدين الجديد، وظهرت طبقة من الناس أعلنت إسلامها وأخفت شركها وأخذت تتآمر على الإسلام في الخفاء وتتعاون مع المشركين واليهود سراً للقضاء على الإسلام. ووجدت ظاهرة النفاق في المجتمع الجديد في عصر رسول الله(ﷺ)، وهي ظاهرة خطيرة جداً، وكانت متفشية في المسلمين بنحو لافت للنظر، حتى أن القرآن كرس أكثر من ستمائة آية في دراسة ظاهرة النفاق وصفات المنافقين وسماتهم وأنماط النفاق وعلاجه، وهناك سورة كاملة في القرآن نزلت باسم المنافقين، وهي تكشف عن مدى تجذر هذه الظاهرة في المجتمع الجديد الذي كان يقوده رسول الله(ﷺ)، في حين ما زالت التجربة في بداياتها، ويفترض أن توجد فيه أرقى حالات التميز في التطبيق وفي الالتزام، وأن تكون التحديات قليلة، لاسيما أنهم في مناطق منقطعة ونائية، وكان هؤلاء الناس في جاهلية، وكانت حالتهم الثقافية معاكسة لمبادىء الدين الجديد، وكانوا يعانون صعوبة في تقبل المدرسة الجديدة والفكر الجديد. وكان هذا في تحليل شهيد المحراب أحد أسباب نزول الإسلام في الجزيرة العربية، فقد كان أهلها أُناسا متخلفين وجهلة.

وهنا سؤال يطرح نفسه على بساط البحث، وهو لماذا لم ينزل الإسلام على الأُمم التي كانت تعيش حالة حضارية أكثر تقدماً، وكانت شعوبها مشبعة حضارياً بما يجعلها أكثر تفهما للرسالة الجديدة.

ويجيب شهيد المحراب في تحليله قائلاً: إن السر هو أن الأُمة المشبعة

حضارياً لا تتقبل الرسالات الجديدة؛ لأن عندها قناعات كاملة أقامت على أساسها حضارتها وقننت على ضوئها حياتها. وحينئذ يكون من الصعب عليها تقويض بنائها الشامخ هذا وإعادة بنائه من جديد على أساس الفكر الجديد.

فالله سبحانه وتعالى أنزل الرسالة الخاتمة على أُمة ليس عندها خلفية حضارية معينة، حتى تتقبل، وتحسن التقبل، وتحسن تطبيق هذه الرسالة الجديدة، وتكون قدوة.

وإن أمة كهذه في أولى تجاربها في منطقة صغيرة، في المدينة المنورة، مثل قرية كبيرة من قرى زماننا، تضم عشرات الألوف من الناس، يحكمها رسول الله(صلى الله عليه وآله) خير البشر من الأولين والآخرين، وهم يلتفون حوله ويستمعون له، وكان متفرغاً لهم ليل نهار، يفترض أن تكون هذه التجربة تجربة راقية في ظروف كهذه، ولكن نلاحظ أن ثلث القرآن يتكلم عن ظاهرة النفاق.

فماذا سيحدث لو اتسعت التجارب وهزلت القيادات وعظمت التحديات؟، الله يعلم فقط ماذا ستكون النتيجة في مثل هذه التجربة. إن تكريس القرآن الكريم مئات الآيات لدراسة ظاهرة النفاق يعني أن عملية الانسجام بين القلب واللسان والسلوك تتركب باستقامة وتمشي باتجاه واحد.

إنها تجربة صعبة ومعقدة يجب ألاّ نزهد في دراستها، يقول تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[25]، فالإنسان لحظة نطقه بالشهادتين ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ـ يصير مسلماً، فيحقن دمه وعرضه وماله، وأما الإيمان فشيء آخر غير الإسلام، هو أمر يتعلق بالقلب، إنه التصديق بما أُنزل على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وهناك بون شاسع بين كلمات ينطق بها المرء بلسانه وبين ما يعتقده ضميره وتنطوي عليه جوانحه.

25. الحجرات: 14.

إن معنى أن يكون الإنسان مؤمناً هو أن يتصالح مع نفسه، وأن يعتقد قلبه بالمشروع، وأن تنسجم مشاعره وعواطفه مع المشروع ثم تصل هذه القناعة إلى مستوى أن يتبنى هذا المشروع على لسانه ويدافع عنه ويشرحه ويوضحه، ثم ينتقل من اللسان إلى الأداء الخارجي، وحينئذ يكون منسجماً مع هذا المنهج، أي ينصهر ويذوب فيه. وهذه هي سمات الإيمان بالله، وهذه هي سمات الإيمان بالمشروع الرسالي والإيمان بقيم ومبادئ أهل البيت (عليهم السلام)، وهذه هي سمات الإيمان بالمشروع السياسي، ولذلك فإن أهل الباطل ينجحون أحياناً في تحقيق مثل هذا الإيمان في مشروعهم الباطل لمصلحة معينة ينظر لها بطريقة يؤمن بها ويقولها ويفعلها.

وقد يخطئ الإنسان في تشخيص الحق، ويعتقد بأن الباطل هو الحق والحق هو الباطل، ويعتقد بأنه من أهل الإيمان وهو ليس كذلك، ولكنه في نفس الوقت لم يؤمن بالباطل لأنه باطل وكان يجهل بطلانه، ولو علم بذلك لم يؤمن به، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»[26]، فهؤلاء الخارجون عن طاعتي يقاتلونني ويتقربون إلى الله بدمي، ولكن يفعلون ذلك لأنهم فهموا الأُمور فهماً خاطئاً، فهم ليسوا كبني أُمية الذين عرفوا الحق فخالفوه، وعرفوا الباطل فاتبعوه لأن فيه مصالحهم.

وينبغي لمن يؤمن ألاّ يتنازل عن إيمانه أمام بريق المغريات فينهار صرح إيمانه الشامخ لدنيا زائلة، ولنا في رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قدوة حسنة، فقد عرض عليه المشركون الملك والمال والنساء ولكنه رفض رفضاً قاطعاً دنياهم الباطلة، وقال قولته المعروفة: «والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أُقتل دونه»[27]، وهو صادق في ما يقول، وهذه ذروة وقمة الإيمان.

---

26. نهج البلاغة 1 : 1.8، ح 61.

27. بحار الأنوار 9 : 143.

وقد يتعرض المؤمن إلى التنازل عن إيمانه أمام التهديد والوعيد بالقتل، وهنا يضع أهل البيت (عليهم السلام) منهاجاً في كيفية التعامل مع حالة كهذه، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) لشيعته المخلصين: «أما السب فسبوني، فانه لي زكاة ولكم نجاة. وأما البراءة فلا تتبرؤوا مني، فاني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة»[28]، إذا طلب منكم أن تسبوني فسبوني واحفظوا أرواحكم، ولكن إذا طلبوا البراءة فلا تتبرؤوا مني؛ لأن البراءة هي حالة انكسار المشروع الرسالي، وحياتك في هذا المشروع، وهو فلسفة وجودك، والبراءة تعني أنك إنسان أجوف فارغ، فما قيمة الحياة حينما يعيش الإنسان حالة الفراغ؟!.

فالإيمان هو المواءمة والانسجام بين القلب واللسان والفعل، ونحن إذا أردنا أن ننجح في مشروعنا في بناء دولة عصرية عادلة، وفي إشاعة الخير، وفي إشاعة التسامح بالرغم من التحديات التي تقف في وجوهنا، فالمدخل أن نبدأ من أنفسنا ونسألها؛ هل نحن مؤمنون بهذا المشروع؟ فإذا كنا مؤمنين فنحن قادرون على أن نمضي في هذا المشروع حتى نهايته، ونتغلب على جميع التحديات، وذلك بأن نتصالح مع أنفسنا ولا نشعر بضيق، فمن الممكن أن يوجد شخص في قصر من القصور ويحوطه الغلمان والخدم والحشم ومع ذلك فهو يعيش أعلى مراتب التعاسة والكآبة. وفي المقابل هناك

شخص في زنزانة انفرادية ومع ذلك فهو يعيش أعلى حالات الانشراح والارتياح؛ لأنه متصالح مع نفسه ويرى أن هذه الزنزانة الانفرادية تدخل في صلب التزامه القلبي وإيمانه بالمشروع الذي هو متمسك به، وهو مرتاح تحت السياط أو على المشانق ويعيش أعلى حالات الارتياح والبهجة ويرى نفسه مضحياً، لذلك هو سعيد.

وفي صحراء كربلاء يتمازج أصحاب الإمام الحسين(عليه السلام) في ليلة

28. نهج البلاغة 1 : 1. 6 ، ح57.

عاشوراء مع بعضهم، فيقول أحدهم: أهذا وقت مزاح؟ فيجيبه الآخر: إذن متى نتمازح، ونحن الآن نستعد للذهاب إلى الجنة؟!، فهذه لحظة الانشراح والفرح يتسابقون فيها إلى الموت؛ لأن عندهم إيمانا بالمشروع، ومعه يتحول العطش إلى عنصر مؤانسة، وهؤلاء السبعون ألفاً الواقفون أمامه لا يخيفونه ولا يرهبونه ولا يعنون له شيئا.

ومن الممكن أن يتصف كل واحد منا بصفات أصحاب الإمام الحسين(عليه السلام) إذا حققنا هذا الإيمان بالمشروع، وهذا مشروع متجدد، فكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، وكل زمان له رجال، وله اصطفافات، وله تجسيد معين، وله واقع يتجسد على الأرض.

نسأل الله أن يعيننا في أن نكون ممن يؤمن بهذا المشروع ويجسد هذا المشروع في وجوده. وإذا ما بدأنا من أنفسنا، وإذا أصبحنا مؤمنين بالمشروع فإن تيار الحكمة الوطني سينتصر في العراق وفقاً للسنن الإلهية التي لا تتبدل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[29] فهذه السنن الثابتة تبدأ منا.

نسأل الله أن نكون من المؤمنين بهذا المشروع حقاً، والحمد لله رب العالمين.

29. فاطر: 43.

(10)

تخشّع النفاق

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (إياكم وتخشع النفاق ، وهو أن يرى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع) [30] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى واحد من المبادئ المهمة في حركة الإنسان ، ولعل أمثالنا من المتدينين الذين يسيرون في خط التقوى والورع والالتزام معنيون بمثل هذا الخطاب أكثر من غيرنا ، وتوجد أوساط أقل التزاماً ، فليس الالتزام عندهم منقبة ، وقد يتبجح بعضهم مع البعض الآخر في مواقف معينة وإساءات وعلاقات مشبوهة إلى غير ذلك ، ولكن في الوسط الإيماني يصبح التدين والإيمان والورع والتقوى منقبة ومكرمة وقيمة أخلاقية واجتماعية أيضاً في أوساط المؤمنين ، فأكثر الناس تديناً والتزاماً أكثرهم مكانة واحتراماً وتقديراً ، وهذا ما قد يدفع بالإنسان إلى أن يتظاهر بشيء أو يكون دائم الذكر له ، ويحرص أن تكون العبرة ظاهرة عليه ، وأن تكون ملامح المؤمنين ظاهرة في مظهره وفي تعامله ، ويكثر من استعراض الآيات القرآنية في حديثه ، إلى آخر مؤشرات وظواهر التدين ، ولكن من الناحية الواقعية عندما يختلي مع نفسه ومع ربه لا يشعر أنه يمتلك هذا الخزين ، فيظهر تفاؤلاً كبيراً ، ويظهر أنه يستشكل ويتوقف ، ولكن عندما ترى معدنه لا تجد مثل هذه الاحتياطات ومثل هذا الخشوع القلبي بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وتتحول إلى عملية تظاهر ، والتظاهر في أمر الدين أخطر بكثير من التظاهر في السلوكيات والمواقف والمجالات والميادين الأُخرى ؛ لأن هذا مرتبط بالدين .

30 . بحار الأنوار 74 : 164 ، ح 188 .

والسؤال هو ما العلاج مادام هو في الواقع ليس خاشعاً؟ وكيف يوجد سمات الخشوع في قلبه؟ والخشوع منقبة وكرامة ومنزلة وقيمة. والعلاج أن يسعى إلى تغيير الباطن ليكون منسجماً مع الظاهر. وهنا أيضاً مطب من المطبات الشيطانية، فالشيطان يقول له إن عملية الانسجام بين الظاهر والباطن يمكن أن تتم أيضاً من خلال تغيير الظاهر، فمن يتجاهر بشرب الخمر مثلاً يكون صادقاً مع نفسه، أو لا يريد أن يضحك على الذقون، أو لا يريد أن يستغل الدين. ولكي لا يقع مثل هذا الإنسان في شراك الشيطان نسأله: هل ان شرب الخمر أمر حسن أو عدم الشرب؟ وهل أن تصلي أمر حسن أو ألاّ تصلي؟ وهل أن تلتزم بالدين أمر جيد أو ألاّ تلتزم؟ وهل أن تكون فيك صفات المؤمنين أمر جيد أو ألا تكون؟ وهل أن تكون خاشعاً أفضل أو ألا تكون كذلك؟ فإن أجبت بالإيجاب فحاول أن تجعل باطنك ينسجم مع ظاهرك، وذلك بأن تغيّر باطنك، وليس بأن تغيّر ظاهرك لكي ينسجم مع باطنك. وعليك أن تبذل جهدك في إصلاح نفسك وفي تكامل نفسك ومن ثم تكامل مجتمعك.

إذن علاج حالة عدم الانسجام بين ما نظهر وبين ما نبطن، بين جوهرنا وواقعنا، هو أن نبذل جهدنا لتغيير الجوهر، لنكون حقيقة خاشعين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ﴾[31].

ونرى في أدعية الإمام السجاد(عليه السلام) أنه يطلب دائماً أن يكون الإنسان أحسن مما يتصوره الآخرون، وهذا يحتاج إلى توسل إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى تضرع وطلب حقيقي من أعماق الوجود، يقول(عليه السلام): «إلهي لا ترفعني في الناس درجة إلا وضعتني عند نفسي مثلها»[32]، فكلما ارتفعت بين الناس درجة فأنزلني في داخلي درجة أيضاً لكي لا أُصاب بالغرور والنرجسية والاعتداد بالذات، وحينئذ أشعر بقيمتي الحقيقية، التي هي لاشيء بين يدي الله سبحانه وتعالى، حتى لا أغتر بزخارف الدنيا.

31. الحديد: 16.

32. الصحيفة السجادية: 1. دعاء مكارم الأخلاق.

فحينما تسلم علينا الناس وتحترمنا وتجلسنا في صدر المجلس لا ينبغي أن نصدق أننا فعلاً نستحق ذلك، ويجب أن نشعر في أعماقنا بالتواضع الحقيقي بين يدي الله سبحانه من غير تصنع. وهذا يحتاج إلى عمل حقيقي على النفس، وإذا كان الناس يظنون بنا خيراً، ويجدون فينا أننا أقرب إلى الله تعالى فيطلبون منا الدعاء، بينما نحن لا نرى ذلك في وجودنا، ولا نشعر بأنفسنا بأننا أقرب إلى الله تعالى من الآخرين، فهذا يدعونا إلى أن نغير في سلوكنا، وندعو الله تعالى ونقول: يا إلهنا مادام هؤلاء الناس ظنوا بنا خيراً، فببركة هؤلاء وآمالهم وتوقعاتهم اجعلنا أفضل مما يتوقعون. فنحول هذه التوقعات من الناس وهذه النظرة الايجابية إلى عنصر ضغط على أنفسنا في سبيل إصلاحها.

وعندما كان شهيد المحراب قدس سره يظهر للجمهور ويهتفون له كان يبكي في بعض الأحيان ولا يتمالك نفسه على المنصة، وكان يبكي امام الشاشة أيضاً. ولكن في بعض الأحيان كان يمسك أعصابه، وعندما يبتعد عن الناس ويذهب إلى البيت يجلس ويبكي بكاء شديداً، وقد شاهدته يفعل ذلك أكثر من مرة. ويفسر هذه القضية أن الناس يظنون بنا خيرا، فيهتفون ويصيحون، وليس في فكرهم ألاّ نكون كذلك. فيحول إقبال الناس ورغبتهم إلى عنصر ضغط إضافي في تربية نفسه وتزكيتها. أحبتي نحن اليوم بأمس الحاجة إلى هذا الدرس الكبير.

اذا شعرنا بفرح يجب أن نقلق على أنفسنا، وإذا شعرنا بفرح بهذه الثقة مشوب بالقلق، فعلينا أن نفي بالواجب، حينذاك يجب أن نشعر بالاعتزاز بهذه الخصوصية.

لذلك، هذه مفاهيم مهمة جدا تحتاج إلى أن نتخلق بها ونستعد للمرحلة القادمة.

(11)

خصال الإيمان

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (ثلاث من كنّ فيه استكمل خصال الإيمان : الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق ، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له)[33] .

يلاحظ في هذه الأُمور الثلاثة أنه ليس فيها عبادات ، بل هي مفاتيح لبناء الشخصية ، وكيف تبنى الشخصية في الرؤية الإسلامية ، ومن المهم جداً الالتفات إلى مثل هذه الروايات التي تتحدث عن هذا التوجه .

الأُولى : (الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل) ، أي عندما يكون في حالة الرضا لا يصاب بالغرور والنرجسية والاعتداد بالنفس ، فنرى أن غيرنا لا يستطيع أن يأتي بعملنا ، فنحن هكذا ، ونقول نحن ولكن غايتها أن الأنا الجماعية خطيرة أيضاً بقدر ما الأنا الشخصية خطيرة ، وهذه إحدى الهفوات التي نقع فيها ، فنقول نحن ونعني بها نحن فقط لا غيرنا . وينبغي ألا يدفع الشعور بالرضا الإنسان للذهاب نحو الباطل ، ولذلك نرى هذا الخط الصاعد يؤدي إلى تسافل وتراجع ، فالإنسان غالباً عندما ينجح يصاب بالغرور وبالارتخاء . ولذا علينا بعد أن نكمل العمل ونفرغ منه ونكتسب الجولة ، أن نستعد أكثر ؛ لأن وراءنا مرحلة أُخرى .

الثانية : (وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق) ، أي لا ينبغي أن يكون التعامل على أساس الانفعالات أو الارتجال أو الانانيات أو الانطباعات ،

33 . الكافي 2 : 239 ، ح 29 .

فالإنسان المؤمن متوازن في شخصيته، إنسان متوازن في ساعة الغضب، يحاول أن يصبر، ولنا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قدوة حسنة، ففي مواجهته لعمرو بن عبد ود شر الناس وأسوأ الناس في معركة الخندق، وقد جلس على صدره ليحتز رأسه، بصق اللعين في وجه مولانا أمير المؤمنين(عليه السلام)، فغضب وتحركت مشاعره، ولكنه لم ينزل حكم الله فيه وهو في حالة الغضب، فنهض من صدره وسار خطوات إلى أن هدأ روعه وسكن غضبه ثم رجع إليه واحتز رأسه، ليكون عمله خالصاً لله عز وجل. وهو بهذا أوضح موقفاً عبادياً لم يشأ أن يفعله في لحظة الغضب والانفعال لئلا يدخل في عمله الخالص لله تعالى شيء ولو بنسبة واحد في المائة. فما بالنا في لحظة الغضب نندفع مع انفعالاتنا ولا نسيطر على مشاعرنا؟! نحن بحاجة إلى أن نكظم غيظنا، ونصبر إلى أن يهدأ غضبنا، لكي نرى الموقف الصحيح والعمل المناسب. والإنسان الذي لا يحركه الغضب والانفعالات، بل يحركه العقل تكون خطواته استراتيجية لا تكتيكية، والغضب يرتبط دائماً بالتكتيك، بينما التريث والتأمل يرتبط بالاستراتيجية.

الثالثة: (وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له)، أي لا يستحوذ، ولا يحتكر، ويعفو عند المقدرة. انظروا إلى هذا المنهج، فعندما لا يلتزم الإنسان بحدود معينة عندما يمتلك القدرة ويتمادى في طغيانه، لا يحق له أن يقول أنا لا أظلم! من قال إنك لا تظلم؟ فمن المحتمل أن يكون كل واحد منا هو صدام، فهل صدام نازل من كوكب آخر؟ وما هو إلا وليد فرصة جاءت ووهبته القدرة على الآخرين، فخضعوا له، ورأى الناس قد خضعت له أكثر عندما قطع عشرة رؤوس، وهكذا صار صدام، فهو ليس حالة نادرة، بل هو ظاهرة، ومن المحتمل أن يكون كل منا صدام عند المقدرة! فلابد من أن يسيطر كل واحد منا على سلوكه، ويتعامل بانضباط واعتدال واتزان.

(12)

مبدأ الكتمان

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (استعينوا على أُموركم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود)[34] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى واحد من المبادئ المهمة في عملية التصدي، فحينما يتصدى الإنسان، وحينما يكون صاحب مشروع ذي خصوصيات معينة، وحينما يطّلع عليها الآخر، يمكن أن يستغل هذه المعلومة للضغط والاساءة لمصادرة الجهود واتخاذ اجراءات تحد وتمنع من نجاح المشروع وتألقه. لذلك حينما يمنح الإنسان نعمة التأثير والرؤية الصائبة والمبادرات والمشاريع يجب أن يحافظ على خصوصياتها، وهذه خطوة مهمة في منهج أهل البيت (عليهم السلام) ، لتصل إلى حد أن هناك نصوصا واضحة وصريحة وصحيحة السند تحمل على أساس التقية، بمعنى أن الإمام(عليه السلام) ، قد وجه له سؤال وكان ضمن الحاضرين شخص يخشى منه لسبب أو لآخر فلم يستطع أن يعطي الموقف الكامل وأعطى وجهة نظر معينة حفاظاً على الحضور ألا يُشخصوا. إذن مسألة التقية تصل إلى مستوى أن يبين الإنسان موقفاً يعبر عن جزء من الحقيقة وليس كامل الحقيقة مراعاة لمثل هذه الظروف.

وكان شهيد المحراب قد طرح مفهوماً جديداً للتقية، يقول: يفسر الفقهاء التقية على أنها لدفع الضرر في المال أو العرض أو النفس، ولكن التقية تكون أحياناً للمداراة، مع عدم وجود ضرر يترتب على المال أو

34. بحار الأنوار 74 : 151 ، ح 98.

النفس أو العرض، وإنما هي لتأليف القلوب لكي لا تنشق الساحة، ولكي لا ندخل في مشاكل عنصرية أو طائفية، ولذلك يقول الإنسان أحياناً جانباً من الحقيقة ويخفي الجانب الآخر لمداراة أحد الحاضرين. وهذا فهم متطور لمبدأ التقية.

(13)

الدنيا وسنّة الابتلاء

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (الدهر يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فبكليهما تُمتحَن) [35] .

تشير هذه العبارة اللطيفة والمؤثرة عن أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى واحد من أهم أسرار النجاح في حركة الإنسان وتصدياته الاجتماعية والسياسية ؛ فإنّ من أهم القواعد التي ينبغي الانطلاق منها لمعرفة الحياة هي التغيّر وعدم الثبات ، والزمن بالنسبة للإنسان يومان : يوم له ويوم عليه ، وليس هناك خط ثابت لأحد فيه ، بل هو في حالة تحوّل وتبدّل مستمر ، وهذه هي خصوصية الدهر وسنة الحياة ، فيوم يكون الإنسان فيه سعيداً ، ويوم آخر يكون فيه شقيّاً ، ويوم يكون فيه فقيراً ، ويوم آخر يكون فيه غنيّاً ، ويوم يكون فيه في الصدارة ، ويوم آخر يكون فيه تحت المطرقة ويتفاخر الناس بسبّه ولعنه .

إذن ، ليس هناك خط ثابت في حياة الإنسان الدنيوية ؛ لأنّ الدنيا دار امتحان وابتلاء ، كما أخبرنا بذلك الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم فقال : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[36] ، وإن كان من الممكن أن يكون الإنسان عند الله تبارك وتعالى في خط صاعد دائماً وفي مسار تكاملي مستمر في حالاته الروحية والمعنوية ، ولكن في الدنيا لا استثناء من هذه القاعدة ، ولابد من أن يتعرض الجميع للاختبار والابتلاء ،

35 . عيون الحكم والمواعظ : 21 .

36 . الأنبياء : 35 .

كما نطق بذلك القرآن الكريم في بيان علة الخلق: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[37]، وحتى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وهو خير البشر وسيّد الكائنات، لم يُستثن من هذه القاعدة، فلم تكن حياته كلها انتصارات، ولم يكسب جميع الجولات، بل كسب بعضها كما في بدر وخسر في أُخرى كما في أُحد وحنين، فقد انكسر جيش المسلمين وكان بقيادة رسول الله(صلى الله عليه وآله) يوم حنين كما حكى القرآن الكريم ذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[38].

لقد عاش النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله) وهو حبيب الله ومعه المسلمون فترات عصيبة من الانكسارات والضغوط والعزلة والحصار والفقر والفاقة، حتى وصل الحال إلى شدّ الحجر على البطون من شدّة الجوع في شعب أبي طالب(عليه السلام).

فقد قضى ثلاثة عشر عاماً من عمره الشريف ومن آمن معه في مكة المكرمة، في محن وآلام وفقر مدقع واستهزاء واستخفاف وملاحقة ومطاردة وتشريد وتعذيب حتى الموت، في مجتمع صغير مليء بالنشاط الاقتصادي والتجاري، ويتمتع بالأمن والاستقرار، كما وصفه بذلك الله تبارك وتعالى قائلاً: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[39]، مع كل ما كان يتمتع به رسول الله(صلى الله عليه وآله) من حكمة وعقل وعصمة وفهم وارتباط بالمدد الإلهي المباشر بواسطة الوحي الذي ينزل عليه ويتدخل في تفاصيل حياته، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[40]، فقد نزل الوحي لمعالجة حتى ظواهر من هذا النوع، وكذا في ما يتعلق بأزواج النبي(صلى الله عليه وآله)

37. الملك: 4.

38. التوبة: 25.

39. قريش: 1-4.

40. الحجرات: 2.

وأزواج المسلمين، إذ طلب منهم أن يتعاملوا معهن بالمنهج الذي قرره لهم.

وإذا لاحظنا القرآن الكريم من أوله إلى آخره، نجد الكثير من الآيات التي لها شأن نزول؛ أي نزلت في واقعة وقضية معينة لكي تعالجها، ولكن وضع في الوقت نفسه ضوابط وقواعد قابلة للاستفادة منها على طول الخط وفي مختلف الأمكنة والأزمنة، مع أنّها نزلت في قضايا محددة، وفي أحداث اجتماعية عاشها الناس في وقته.

لقد عاش رسول الله(صلى الله عليه وآله) تجربة مريرة وتعرض إلى ما تعرض له من محن وآلام ومشاكل في مجتمع قبلي صغير مليء بالفرص والثروات، مع ما يملكه من عقلية ومدد سماوي، ومعلوم كيف تعددت الانتكاسات، وكيف نضج المشروع حتى وصل إلى يوم الفتح: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، إذا جاءت هذه اللحظة ودخل الناس أفواجاً، وانتصر المشروع الإلهي، وانكسرت الحواجز، وانقلب الرأي العام لصالح الإسلام، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنّ الله تعالى هو الذي فعل ذلك ولم تفعله أنت مهما كانت قدراتك وإمكاناتك، فهذه ليست لك وإنّما هذه لله تعالى، وحينئذ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[41]، لئلا تصاب بالعجب ويأخذك الغرور وتتصور أنّك استطعت أن تكبر على الكون والحياة والسنن، بل التسديد الإلهي هو الذي حقق لك هذا الانتصار العظيم وهذا الانجاز الكبير.

ونحن لسنا استثناء من منظومة السنن الإلهية، بل نحن نقطة في هذا التأريخ الطويل، وقدراتنا وإمكاناتنا الفكرية والمادية والبشرية ليس لها قيمة أمام المشاريع الإصلاحية العملاقة للأنبياء والأوصياء والأئمة المعصومين، فهذا إمامنا الكاظم(عليه السلام) ـ ونحن نعيش في رحابه ـ قضى شطراً من عمره الشريف في السجون، فالمشروع الإلهي يحتاج الى كل هذه الأُمور.

في مساحة واسعة من مشاريع الإصلاح الإلهية، من أنبياء وأوصياء وأولياء، كانوا معزولين، وكان الرأي العام يصفق لاتجاهات أُخرى،

41. النصر: 1ـ3.

ويتكـوّن باتجاهـات أُخـرى، وكان النـاس يسـتهزئون بالأنبيـاء ويحقرونهـم، وهـذا شـيخ الأنبيـاء نـوح(عليه السلام) قـد قضـى ألفـاً إلا خمسـين عامـاً فـي دعـوة قومـه بشـكل مسـتمر، فقـال: ﴿قَـالَ رَبِّ إِنِّـي دَعَـوْتُ قَوْمِـي لَيْـلاً وَنَهَـاراً﴾، فلـم يعـش معهـم هـذا العمـر المديـد بـلا دعـوة، ولـم تكـن هنـاك إجـازات واسـتراحة، ولكـن النتيجـة كانـت مخيبـة للآمـال، ﴿فَلَـمْ يَزِدْهُـمْ دُعَائِـي إِلَّا فِـرَارًا﴾[42]، فهـؤلاء النـاس لا يؤثـر فيهـم الـكلام، بـل كانـوا يفـرون مـن سـماع الحـق، لقـد كان الـرأي العـام فـي مـكان آخـر، حتـى أمـره الله تعالـى بصناعـة السـفينة: ﴿وَاصْنَـعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَـا وَوَحْيِنَـا﴾[43]، وإذا اسـتهزأ بـك الناس فاعلـم أنّ الله معك، وسـيأتي يـوم يعضـون فيـه علـى أصابـع النـدامـة عندمـا تكـون أنـت وجماعتـك فـي السـفينة ويأخـذ السـيل الباقيـن، وحينهـا سـيندمون حيـث لا تنفـع النـدامـة.

ولـو أنّ كل النـاس تـرى حركـة التاريـخ، وتعـرف مقتضيـات المصالـح، وتعـرف اسـتحقاقات المراحـل، لـم تكـن الدنيـا لتصبـح دار ابتـلاء، ولـو أنّ كل الطـلاب يعرفـون كيـف يحلّـون جميـع الأسـئلة، لمـا كان هنـاك امتحـان آخـر السـنة، ولمـا كان هنـاك انتقـال مـن مرحلـة إلـى أُخـرى. ولكـن نـرى النـاس تصفـق للـذي ينجـح ويأخـذ الشـهادة، ولـو لـم يكـن الأمـر كذلـك لمـا تركـوا أعمالهـم ودخلـوا الجامعـات لينالـوا الشـهادات.

ولـو أنّ كل شـخص يعـرف الجـواب عـن الأسـئلة لمـا احتجنـا إلـى امتحـان، وإنّمـا سُـمي امتحانـا وابتـلاء لأنّ هنـاك أُناسـا تنجـح وأُناسـا تفشـل، بـل كثيـر مـن النـاس يفشـلون وقليـل منهـم ينجحـون فـي الاختبـار الإلهـي، كمـا قـال تبـارك وتعالـى: ﴿وَقَلِيـلٌ مِّـنْ عِبَـادِيَ الشَّـكُورُ﴾[44]، وقـال: ﴿وَأَكْثَرُهُـمْ لَا يَعْقِلُـونَ﴾[45]، وقـال: ﴿وَلَكِـنَّ أَكْثَرَكُـمْ لِلْحَـقِّ كَارِهُـونَ﴾[46]. وقـد ورد لفـظ ﴿

42. نوح: 5-6.

43. هود: 37.

44. سبأ: 13.

45. المائدة: 103.

46. الزخرف: 78.

أَكْثَرهـم﴾ فـي 60 آيـة فـي القـرآن الكريـم، فالأكثـر يفشـلون وقليـل مـن النـاس ينجحـون، ولـو كان جميـع النـاس يعرفـون ويفهمـون ويقـرؤون الأُمـور ويأخـذون المواقـف الصحيحـة لتغيّـرت فلسـفة الدنيـا ومـا كانـت دار امتحـان وابتـلاء.

«الدهـر يـوم لـك ويـوم عليـك، فـإذا كان لـك فـلا تبطر»، فـلا يأخـذك الغرور، ولا تصـب بالنرجسـية، ولا تعتقـد بـأنّ الدنيـا قـد أقبلـت عليـك وألقـت رحالهـا بيـن يديـك، ولا تظـن حيـن صفـق لـك أربعـة أشـخاص أو قالـوا لـك سـيّدي أو أصـدرت أربعـة أوامـر ونفـذت، أنّ الدنيـا قـد صفـت لـك مـن الأكـدار، وستسـتمر لـك كمـا تشـتهي، بـل هـي أكبـر مـن هـذه الأُمـور، فقـف وانتبـه وأعـد حسـاباتك.

وإن كان عليـك فاصبـر أيضـاً، فـإنّ الدنيـا لـو دامـت لغيـرك مـا وصلـت إليـك، فمـا دامـت قـد جـاءت إليـك فمعنـى ذلـك أنّهـا ذهبـت مـن يـد غيـرك، وأنّهـا سـتذهب مـن يـدك أيضـاً، ومقتضـى الحكمـة، ألا يأخـذك هـذا الصخـب بعيـداً. وإن أطلقـت مبـادرة مـا وصفـقّ لـك النـاس مـن مرتزقـة وأصحـاب مصالـح وذوي أجنـدة فاعلـم أنّ أكثـر النـاس لا يعرفـون مـا القصـة، وهـم مخلصـون وطيبـون، وهـم الضحيـة، وهـم لا يعرفـون أحيانـاً مـا الحـل ليتخلصـوا مـن هـذا الابتـلاء، ثـم تقـول: لنتراجـع ولنسـحب هـذه المبـادرة أو لنغيّرهـا. كلا، عليـك أن تنظـر أيـن المصلحـة؟ وأيـن هـو الموقـف الصحيـح؟.

وهنـا يجـدر بنـا أن نسـتذكر كلمـة شـهيد المحـراب التـي كان يرددهـا دائمـاً، يقـول: أولاً انظـروا إلـى القضيـة هـل هـي حـق، وثانيـاً أيمكـن الدفـاع عنهـا أم لا. فهنـا أمـران إذا تحقّقـا فعليـك أن تسـير فـي طريقـك ولا تلتفـت إلـى مـا يقـال. ومـا دام هنـاك منطـق قـوي فيجـب عليـك أن تتصـدى للدفـاع عـن قضيتـك، والمضـي بخطـوات ثابتـة رغـم الصعوبـات والعراقيـل، وإذا مـا فعلنـا ذلـك فحينئـذ نحظـى بالتأييـد الإلهـي، قـال تعالـى: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ قَالُـوا رَبُّنَـا اللَّهُ﴾ أي عرفـوا الحـق وصدعـوا بـه، ﴿ثُـمَّ اسْـتَقَامُوا﴾ أي بقـوا ثابتيـن فـي مواصلـة الطريـق، ﴿تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِـمُ الْمَلائِكَـةُ أَلا تَخَافُـوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّـةِ الَّتِـي كُنتُـمْ تُوعَـدُونَ﴾[47].

47. فصلت: 30.

وهكـذا يجـب أن نتجـرع مـرارة المعانـاة والألـم والجـراح لكـي نحقـق النجـاح. وإنّ التيـار الـذي يريـد أن يقـود، والنخبـة التـي تريـد أن تقـود ولا تتسـلط، يجـب أن تتمتـع بالرؤيـة الواضحـة والبصيـرة الثاقبـة والفهـم العميـق والإدراك للحـق وتقديـر المصالـح الصحيحـة، وأن تمتلـك قـوة المنطـق مـن أجـل الدفـاع عـن الحـق، وتحتـاج أيضـاً إلـى الثبـات والصبـر والوقـوف بوجـه العواصـف، وحينئـذ يمكـن أن يتحقـق النجـاح. وسـوف يأتـي النـاس عندمـا تنكشـف الأُمـور وتظهـر الحقائـق، فالتيـار الـذي يريـد أن يقـود يجـب أن يـرى الأشـياء قبـل أن يراهـا النـاس، وعندمـا يواجـه اعتراضـات ويواجـه مخاضـات، عليـه أن يـدرك أنّـه علـى الحـق، ويخطـط كيـف يمكـن الدفـاع عنـه، ويثبـت علـى المضـي فـي طريقـه بالرغـم مـن كل التحديـات، وهـذه قاعـدة عامـة يجـب العمـل بهـا.

واعلمـوا أنّ هنـاك ابتـلاء فـي كل المحطـات وفـي كل الظـروف دائمـاً، فـإنّ تقلـب الأحـوال مـن ضـرورات الحيـاة، ولا يمكـن أن تـدوم الأُمور باتجـاه واحد، وهـي فـي حالـة تغيّـر مسـتمر، فيجـب أن نكـون مـع الحـق ونتمسـك بـه دائمـاً، سـواء كنّـا فـي سـراء أو ضـراء، أو شـدة أو رخـاء، أو صعـود أو نـزول، فمـادام الحـق معنـا فـلا نبالـي أن يذهـب النـاس إلـى جهـة أُخـرى، لأنّهـم سـيعضون أصابـع النـدم عندمـا نواصـل طريقنـا ونصـل إلـى أهدافنـا، وسـيقولون؛ عجبـا!. كيـف خذلناهـم ولـم نعـرف قيمتهـم إلا الآن؟! ويبقـى الآخـر يشـوش الصـورة، ويبقـى السـباب والشـتيمة والاعتراضـات، ولكـن هـذه هـي سـنّة الحيـاة.

إنّ نجاحنـا ليـس بوهـج يأتـي فيخطـف الأبصـار ثـم يذهـب، بـل هـو يكمـن بالحـق الـذي نتمسـك بـه، كمـا قالهـا علـي الأكبـر(عليه السلام) لأبيـه الإمـام الحسـين(عليه السلام): «أولسـنا علـى الحـق؟ قـال: بلـى والله الـذي إليـه مرجـع العبـاد، فقـال: إذن لا نبالـي أوقعنـا علـى المـوت أم وقـع المـوت علينـا»[48]. انظـروا إلـى الخيارين اللذيـن طرحهمـا علـي الأكبـر(عليه السلام) فـي ثـورة عاشـوراء، فهـو لا يقـول: إذن لا نبالـي أوقعنـا علـى الحـق أم وقعنـا علـى الباطـل، ولـم

48. بحار الأنوار 44: 379.

يقل: أوقعنا على الموت أم وقعنا على الحياة، أو وقعنا على الموت أم وقعنا على السلطة، بل قال: «أوقعنا على الموت أم وقع الموت علينا»، فالاثنان موت.

والناس في كل الأحوال تعرف الحقيقة ولكنها تبحث عن مصالحها، وأنتم تريدون أن تسيروا على الحق، وهي تتصور أو يصوّر لها أنّكم ضد مصالحها فتسبكم وتشتمكم. وليس هناك من هو أكثر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) ممن تعرض لمثل ذلك. ولذا ينبغي علينا أن نعمل بشكل صحيح في جميع الأحوال. وهناك الكثير من الناس لا يروق لهم ذلك.

وقد أشار أمير المؤمنين(عليه السلام) في حكمته الذهبية إلى هذه الحقيقة: «الدهر يوم لك ويوم عليك، فإن كان لك فلا تبطر، وإن كان عليك فاصبر فبكليهما تمتحن»، ولذا يجب عليكم أن تقنعوا الناس بمشروعكم وتكسبوا الرأي العام إلى جانبكم، ويجب أن تخدموا الشعب ليكون مستفيداً من وجودكم، فعندما تخدمونه سيصطف معكم ويكون درعكم الحصينة أمام الآخرين الذين سيعملون على سحب الثقة منكم. انتبهوا للناس، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يحفظكم ويجعلهم يتمسكون بكم، وإياكم أن تتفاهموا مع الانتهازيين، لأنّهم لا يمكن أن يتفاهموا معكم إلا أن تعطوهم مصالحهم التي هي بغير وجه حق، وحين تعطونهم إياها سيصير حالكم كحال غيركم، في السرقة والنهب، وإن لم تعطوهم صاروا لكم أعداء، وحينها لن يكون الناس معكم، وهؤلاء الانتهازيون ضدكم، وستكونون في محنة وامتحان في كلا الحالتين.

فكم هي عميقة هذه الكلمة: «فاصبر فبكليهما تمتحن»، وامتحاننا ونحن خارج السلطة أسهل بكثير من امتحاننا ونحن داخل السلطة، لأنّ توقعات الناس منّا ستكون أقل وسيقبلون بنا، ولكن عندما نكون في السلطة سيأتينا شيء وتذهب منّا أشياء، ونصبح أمام تحديات جديدة، فلا يتصور أحد أنّنا سنرتاح، بل سنكون في محنة من نوع آخر، فاستعدوا للبلاء.

ولذلك نقول: إذا كانت نياتنا غير خالصة فإنّ عملنا ليس لله، وإذا لم نتمسك بالحق فنحن ضائعون على كل حال، وإذا جاءت لنا السلطة فستأكلنا وستضيعنا وستكون جسراً لنا الى النار، وأما إذا كانت نياتنا لله فكل أعمالنا ستكون ربحا لنا، لأنها معاناة في عين الله تعالى.

وأخيراً اوصي نفسي وأوصيكم أحبتي، بالإخلاص لله سبحانه وتعالى، والعمل من أجل الله والمصلحة العامة، والله سبحانه وتعالى هو الذي يقيّض الأُمور ويهيئ الأسباب ويوفر فرص الخدمة الصحيحة لهؤلاء الناس، والحمد لله رب العالمين.

(14)

عاقبة الظلم

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (ولا يكبُرَنَّ عليك ظلمُ من ظلمك ، فإنّه إنّما يسعى في مضرته ونفعك)[49] .

الظلم يقابل العدل ، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، أي أنّ كل من يظلم ويعتدي يخرج عن السياقات الصحيحة ، وكل من يظلم يعتقد بأنّه يحسّن من فرصه ومواقعه وإمكاناته وامتيازاته ، ويتصور أنّه بالاعتداء على الآخر وظلمه يكسب شيئاً ، ولكن سنن السماء تقول إنّ كل شيء يوضع في غير موضعه لا يجلب المنفعة للظالم ، وإنّما تعود مصلحته للمظلوم . ولذا ورد في الحديث أعلاه قوله(عليه السلام) : «ولا يكبرن عليك» ، أي لا تستكثر ولا تقلق ولا تخف من ظلم الآخرين لك ، لأنّ الظالم قد يكسب جولة ويخطو خطوة ويحصل على امتياز وقتي ، ولكن هذه الجولة تصب في نفعك وتصب في مضرته من حيث لا يشعر .

وهذا منهج مهم في الحياة ، وهو أن يكون عند الإنسان ثقة كاملة بأنّ ظلم الآخرين واعتداءهم لا يجر إلا المنفعة للمظلوم ، فتعطيه حالة من الثقة والاطمئنان .

ولكن هذا لا ينبغي أن يمنع من تحمل مسؤولياتنا في مقارعة الظلم ومواجهته والانتصار للمظلوم ، ويجب على المظلوم أيضاً ألا يقبل بالظلم وعليه أن ينتصر لنفسه . وهذه الخطوات كلها صحيحة ويجب أن يأتي بها

49 . نهج البلاغة 3 : 54 كتاب رقم 31 .

الإنسان ويحققها، ولكن ما هو الصحيح أيضاً أن يكون على ثقة عالية بأن هذا الظلم يرتد على الظالم، والاعتداء يرتد على المعتدي، وأنّ المستفيد من هذه العملية هو المظلوم والمعتدى عليه، على خلاف ما يتصوره الإنسان في الحسابات المادية، ، وهذا الاعتقاد يجعل الإنسان يبتعد عن الظلم ويحاول ألا يظلم الآخرين؛ لأنّه سيكبو، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[50]، وكما جاء عن أمير المؤمنين(عليه السلام) قوله: «من حفر بئراً لأخيه وقع فيها»[51]. فالإنسان هو الذي يضيّع الكثير حينما يسير في مثل هذه المسارات.

وهذه ثقافة مهمة للإنسان، إذ ينبغي له ألا يعتدي على الآخرين ولا يظلمهم ولا يتجاوز على حقوقهم؛ لأنّ هذه التجاوزات سترتد عليه وستكون لصالح المظلوم المعتدى عليه، هذا أولاً. وثانياً حينما يُعتدى عليه من الآخرين ينبغي ألا يشعر بقلق كبير، فإنّه إن كان قد خسر جولة فمن الممكن أن يكسب المعركة، فالدهر جولات مرة له ومرة عليه، لكن ليعلم بأنّه المنتصر مادام على الحق.

وهذه العقيدة تجعل الإنسان حقانياً في منهجه، وتجعله غير مكترث وغير قلق من المكائد والمؤامرات التي تحاك ضده، وإن كان ينبغي عليه أن يتنبه لها ويترصدها ويقف بوجهها، ولكن عليه في نفس الوقت ألا يشعر بالخشية والقلق من هذه المؤامرات، وعليه أن يشعر بالثقة والقوة، وهذا العنصر من أهم عناصر الانتصار في المعارك، وهو الجانب المعنوي الذي يتحقق حينما يشعر الإنسان بالثقة والقوة والعزة المستقاة من عزة الله سبحانه وتعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[52].

فالغلبة ليست بالعدد، وليست بالإمكانات المادية، وليست بالتفوق العسكري، وليست بأدوات الغلبة، سواء كانت سياسية أو إعلامية أو معرفية

50. فاطر: 43.

51. تحف العقول: 88.

52. البقرة: 249.

أو مادية أو عسكرية أو أي شيء آخر، فالغلبة هي الانتصار المعنوي والشعور بالقوة، فكم من فئة تمتلك الإمكانات الهائلة ولكنها كانت مهزوزة من الداخل فانهارت، وكم من فئة قليلة لم تمتلك سوى القوة والثقة والشعور بالثقة بالله وبالنفس استطاعت تحقيق الإنجازات العظيمة.

وهذه معادلة مهمة في الانتصار، وقد حققت حركة الرسل والأنبياء الإصلاحية انتصارات كبرى، مع أنّها كانت متواضعة في إمكاناتها المادية، وقد استطاع رسولنا الكريم(صلى الله عليه وآله) وهو المشرّد الغريب أن يتغلب على تلك القوى ذات الإمكانات الهائلة والعظيمة مادياً، وإن تحمل في سبيل ذلك الأذى الشديد حتى قال: «ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت»[53]، لأنّ المسارات كانت صحيحة ولصالح الرسالة الإلهية.

وهكذا كان أئمتنا الأطهار(عليهم السلام) ومراجعنا العظام وقياداتنا على مر التأريخ. وعندما نراجع تأريخنا المعاصر نرى كم تحمل قادتنا وزعماؤنا الذين عايشناهم وعاصرناهم من الأذى الكثير، ولكن كانت النتيجة لصالحهم، وهذا ما نتمنى أن نكون عليه الآن، فنشعر دائماً بالثقة بالله وبأنفسنا ونكون حقانيين.

واليوم هناك من يفهم السياسة بأنّها ألاعيب وكذب ومكر وخداع، في مقابل سياسة الصدق التي انتهجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ويرى أنّها قد فشلت لما انتهت به إلى حروب وعزلة وأن يقتل في محرابه ثم تنتهي القضية. ولكننا نقول لهم: إنّ سياسة الكذب والخداع قد انتهت بأصحابها أيضاً إلى الحروب والقتل، فلماذا لا تنظرون إلى ما آل إليه كل من المنهجين؟ فهل انتصر منهج الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، أو منهج معاوية بن أبي سفيان؟ صحيح أنّ علي بن أبي طالب(عليه السلام) قد تعب ولكنه استطاع أن يؤسس مساراً ما زال إلى اليوم يعتز شيعته بالانتماء إليه، ولكن أين من يعتز بالانتماء لمعاوية، وإن وجد من يعتز بالانتماء له فهم

53. بحار الأنوار 39: 56.

شرذمة من النواصب الحاقدين الظلاميين آكلي أعضاء البشر والمنبوذين من الخلائق جميعاً، في حين أنّ شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، يفتخر العالم بهم، وهم يزدادون كمّاً وكيفاً يوماً بعد يوم، ولذلك لا يمكن أن يقال إنّ الحق قد خسر معركته، وإن خسر في جولة ربما اكتنفتها الكثير من الملابسات، وكلما نضجت الأُمة وتفهمت أكثر أمكن أن تحقق السياسة الصادقة مكاسب أكبر.

(15)

الأهداف الإستراتيجية

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (ما شرّ بعده الجنة بشرّ ، ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية)[54] .

تعتبر هذه الحكمة الشريفة واحدا من المفاتيح التي تحدد الرؤية والمنهج في مسار الإنسان وحركته ، وهي وإن كانت ناظرة إلى الجانب المعنوي والحركة المعنوية للإنسان ، ولكن المعيار والضابطة والقاعدة تنطبق على المسارات المادية والدنيوية في حياة الإنسان أيضاً .

وهي تشير إلى أهمية الطموحات العالية ، والرؤية الاستراتيجية والهمم الكبيرة ، أي ينبغي أن تكون نظرة الإنسان إلى الأهداف البعيدة الأمد ، ويبني كل خطواته المرحلية على أساس ذلك . والهدف الاستراتيجي الذي تبيّنه هذه الحكمة هو الجنة ، حيث السعادة الأبدية أو النار حيث الشقاء الأبدي .

ونحن قد نغرق في تفاصيل الحياة فنفرح بانجازات وقتية لا توصلنا إلى الجنة ، وقد نأسف لعراقيل وإشكالات وكبوات، ولكنّها كبوات مرحلية تمنع من دخولنا إلى النار .

فهناك أشياء جيدة في النظرة التكتيكية المرحلية القصيرة يفرح بها الإنسان ؛ لأنّها مكتسبات وإنجازات مع أنّها قد لا تكون في مصلحته ، وقد تكون انتصارات وقتية تضيّع عليه انتصاراً أكبر ، وقد يأسف لأُمور ضيّعها

54 . تحف العقول : 88 .

وفوّتها وهي لا تستحق الأسف، بل قد تكون سبباً لتنبّهه وتيقظه وفتح عينيه وتشجيعه وتحفيزه على تصحيح مساراته الخاطئة، وتخليصه من الشقاء الأبدي، ومن الكبوة الكبرى التي لا يقوم لها قائم.

وتناولت الفقرة الأُولى من هذه الحكمة المباركة «ما شر بعده الجنة بشر» تحديد معنى الشرّ، فإنّ أي شر وأي تحدّ وأي مشكلة وأي محنة وأي عذاب في طريق الوصول إلى الجنة، وأي شوك في طريق الوصول إلى الوردة، ليس بشرّ، بل تمحيص وغربلة وتطوير لقدرات ومؤهلات الإنسان، وهو رفعة وسمو، وقد يسمّيه غيرنا شرا؛ لأنّ مظهره في النظرة القصيرة مظهر الشرّ، ولكنه في الحقيقة عقبة ومحنة وألم، ومادام يقع في طريق الوصول إلى الجنة فهو ليس شرا، بل مقدمات للخير الأبدي.

وتناولت الفقرة الثانية من الحكمة المباركة: «ولا خير بعده النار بخير» تحديد معنى الخير، فإنّ أي خير يقع في طريق النار ليس بخير، وإن جلب السعادة الوقتية لصاحبه، وربما كان من باب الإملاء كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً﴾[55]، فقد يصاب الإنسان أحياناً ببلاء الإملاء فيعطيه الله تعالى الجاه والسمعة ووهج الجمهور، فيخّدره ذلك ويعمي بصره عن النظر والاعتبار فيزداد كفراً، ويبقى في غيّه وضلاله وانحرافه، كما نشاهده في أحوال الطواغيت والظالمين، ثم يفتح عينه في لحظة ويرى الحقيقة، ولكن في وقت لا يوجد عنده مجال لتغيير المسار فيضيع.

وتناولت الفقرة الثالثة من الحكمة المباركة: «وكل نعيم دون الجنة محقور» تحديد معنى النعيم، فإنّ أي مكسب وقتي لا يوصلنا إلى الإنجاز الأساسي والغاية الكبرى ويقطع الطريق على ذلك فهو محقور ولا قيمة له، فالمكتسبات المرحلية التي تعيق الوصول إلى أهداف استراتيجية محقورة ولا

55. آل عمران: 178.

قيمة لها، ولا ينبغي أن نغرق فيها أو نفرح بها، وهناك شيء اسمه صحوة الموت، وهي تحسّن حال المريض في مرض الموت قبيل الانتكاسة الكبرى، وهذا التحسّن لا قيمة له، ويعرفه الطبيب عندما يراه ويقول هذه صفارة الإنذار للوصول إلى النهاية، وقد يفرح أهله، ولكنها فرحة سيليها حزن كبير.

وتناولت الفقرة الرابعة من الحكمة المباركة: «وكل بلاء دون النار عافية» تحديد معنى البلاء، فكل المنغصات المرحلية مادامت تحجز الطريق على الكبوة الكبرى فهي عافية وصحة ومؤشر جيد. إذن يجب أن تكون لدينا طموحات عالية في حياتنا المعنوية وسلوكنا المعنوي، ولا نقبل بأقل من الجنة، وأي شيء دون ذلك فهو محقور وغير مقبول، ولذا ينبغي أن ننظّم كل أُمورنا بالطريقة التي توصلنا إلى رضا الله سبحانه والجنة، وهي الغاية الأبدية والأساسية، وكما قال الإمام الحسين(عليه السلام): «القتل أولى من ركوب العار، والعار أولى من دخول النار»[56]، فإذا دار الأمر بين الذل والهوان والقتل فعلى الإنسان أن يقدم روحه ليبقى عزيزاً وكريماً، ولكن إذا دار الأمر بين العار الموصل إلى الجنة وبين العزة الدنيوية وعزة الجاهلية، الموصلة إلى النار، فالعار أولى من دخول النار، لأنّ كل بلاء دون النار هو في الحقيقة عافية.

إذن فالنجاحات المرحلية لا قيمة لها إذا لم تكن مقدمة للنجاح الأكبر، وانّ الرضا والسكون والطمأنينة للنجاحات الوقتية والشعور بالغرور لمكسب وقتي تضيّع علينا المكسب الأكبر، وهي لا قيمة لها في الشأن الأُخروي والمعنوي، ولا في الشأن المادي.

ومن هذه الابتلاءات التي نمر بها انهم يحاولون تشويه سمعتنا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فقد رأيت في (الفيس بوك) أشياء وضيعة تجاوزت حدود الأخلاق.

56. بحار الأنوار 44: 192، مثير الأحزان: 54.

ولنا أُسوة بأئمتنا ومراجعنا وعلمائنا في التعرض لمثل هذا النمط من التعامل، فمثلاً في سنة 1948ميلادي حدث اختلاف في رؤية الهلال، وقد ثبت عند المرجع الراحل المرحوم السيد محسن الحكيم رؤية هلال شوال يوم الجمعة مساء، بمعنى أنّ يوم السبت هو عيد الفطر المبارك، لكن عددا من المراجع المهمين الآخرين لم يثبت لديهم ذلك، فكان عليهم إكمال عدة أيام شهر رمضان، بمعنى أنّ العيد يكون عندهم يوم الأحد، فانطلق بعض المنافسين للسيد الحكيم يقولون إنّ الحكيم أراد أن ينتصر لليهود ويعيد عطلة يوم السبت؛ لأنّ اليهود عندهم يوم السبت عطلة، وقد استغلّوا حادثة تسفير الحكومة العراقية لليهود إلى اسرائيل في ذلك العام لتكون لإشاعتهم مصداقية ما في الرأي العام، ولكن بعد مرور السنين، أين هي الآن سمعة المرجع السيد محسن الحكيم وأين هم أولئك الذين تكلموا بذلك الكلام؟.

وكذلك على مستوى مرحلتنا الحاضرة تعرض شهيد المحراب إلى منشورات صفراء واتهامات رخيصة يعجب لها الإنسان، ففي أحد مخيمات اللاجئين العراقيين في ايران، قام شخص عندما كنت فيها في جولة تفقدية ـ وكنت حينها أُمثّل السيد شهيد المحراب ـ وقال: بلغنا أنّ في بيت السيد الحكيم زخرفة السقف وزخرفة السجادة واحدة، وهو معد ضمن التصاميم العالمية الفلانية. فقلت له: اتق الله، إنّ حائط غرف بيت السيد تقشرت من الرطوبة، وقد وضعوا (نايلون) لكي لا يؤثر في ملابس من يتكئ عليه.

وقال أيضاً: إنّ زخرفة الصحون وزخرفة سقف البيت والغرف وزخرفة الفراش والسجاد كلها زخرفة واحدة جاءت من سويسرا، في حين أنّ الواقع الذي كان يعيشه شهيد المحراب هو في تقشف مستمر، بالرغم من أنّه لم يكن فقيراً، فكان يدقق في أدق التفاصيل، فمثلاً كان يعترض اعتراضاً شديداً إذا كان مقدار الطبخ زائداً عن الحاجة، وكنّا نخشى أن يأتي زائر فلا يكفي الطعام، وكان يقول: أن نقوم جائعين أفضل من أن تطبخوا طعاماً زائداً، وكان لا يرضى أن يرموا العجين داخل الصمونة، فكان يحوله إلى قطع صغيرة ويرميها للعصافير، ولا يقبل أن ترمى في سلة المهملات، حتى أنّه

كان يكسّر قشر البيض ويرميه كطعام للدجاج، وكذا كان يرفع العظام من السفرة ويطحنها بنفسه ويحولها إلى مسحوق ويرميه إلى الدجاج ويرفض أن يرمى في سلة المهملات.

وهكذا لا يترك شيئاً من الطعام الزائد إلا ويستفيد منه. وهكذا ربى أبناءه، وتربينا نحن بهذه الطريقة، وكذلك عزيز العراق نمط آخر من التقشف والدقة في الإنفاق والصرف، مع أنّه كان كريماً مع الآخرين ولكنّه كان زاهداً جداً ومتقشفاً جدا في حياته الشخصية.

وعلى كل حال، يجب أن نحرص ألا نضيع في مكتسبات وقتية، وأنا اليوم أخاف على أوضاعنا أكثر من الأمس؛ إذ لم يكن بيدنا شيء نخاف عليه، وكنّا نكافح لكي نعود إلى الواجهة، وإرجاع دورنا في المعادلة السياسية، وعدم اكتراث الآخرين بنا بل وزهدهم فينا، فكانت الأخطاء أقل، ولكن الخطر الأكبر عندما نصبح في الواجهة، فلم نكن فيها واندفع غيرنا إليها وبقينا سنوات ننتقد ونتكلم، وقد ذهب بعيداً بعض إخواننا في الفيس بوك وكنّا نستوقفهم، وغداً كيف سنتعامل مع الآخرين إذا تقدمنا وصرنا في الواجهة؟ وهنا سؤال خطير وكبير: هل سنصبح مثل السابقين أو سنقدّم صورة مختلفة هي صورة التقشف وصورة الورع والحذر وصورة عدم الاندفاع وعدم الاحتكار؟ إذا كنّا نريد أن نستحوذ على الحكم، وأن يديره جماعتنا دون مشاركة غيرهم، ونقيّم كل النجاحات بقدر عدد كوادرنا الذين حصلوا على مناصب في السلطة، إذن فما فرقنا عن الآخرين؟.

إنّنا مشروع دولة، ونحن نتسع بسعة الشعب بكل أطيافه، وهذا ليس شعاراً وكلاماً فقط، بل علينا أن نتعامل بهذا المنطق في التطبيق أيضاً ونرفع من فرص نجاح مشروعنا، وسوف لن نعطي للاطراف السياسية لتنتفخ علينا، بل نعطي من حصصنا الفرصة لطاقات الأُمة من أصحاب العقول والكفاءات، لتحتل مكانها في بناء الدولة، ونشعر أنفسنا وضميرنا والآخرين بالرضا، وندخل التأريخ من أوسع أبوابه.

إنّنا لم نكن في يوم أُناسا انتهازيين واحتكاريين ولا نفكر إلا بأنفسنا أو

نتعامل بفئوية وحزبية مقيتة. استعدوا للبلاء والاستهداف وتحمل كل ألوان المعاناة، إنّنا لا نقلق ولا نخشى ولا نتردد؛ لأن قضيتنا حقة، ونحن اليوم الطرف الوحيد الذي دخل إلى المعركة الانتخابية بأعصاب باردة ونفس مستقرة، ولدينا ستة عشر مقعداً ولو حصلنا على ثلاثين مقعداً ستكون النتيجة مضاعفة مائة بالمائة، ووضعنا مريح أمام الناس ولا نملك شيئاً لكي نفقده، وأيادينا على ما يبدو بيضاء والحمد لله؛ لأنّ البعض ممن لا ذمة له ولا ضمير لو رأى ثغرة صغيرة لأقام الدنيا ولم يقعدها.

وعلى كل حال، اليوم لا نملك شيئاً نخسره، ولدينا منطق ورؤية ومشروع، فلنتوكل على الله تعالى ونعمل بجد، والله ناصرنا إن شاء الله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[57]. وعلينا ألا نصاب بالغرور إذا فكرنا بقدراتنا وإمكاناتنا، فالدنيا تُقبل وتُدبر، وعندما تُقبل تستعير حسنات الآخرين وتضعها لك، وعندما تُدبر تستعير سيئات الآخرين وتلصقها بك ولكن سيأتي يوم تُقبل فيه الدنيا علينا، وقد أقبلت، واليوم يرى البعض ملامح هذا الإقبال، وهنا يكمن الخطر عندما تُقبل الدنيا، وحينها سوف لا تُرى أخطاؤنا أو تُرى أصغر من حجمها، وستبرز حسناتنا وتُضخّم، وأخشى أن نصدّق كل شيء عندنا، والله سبحانه وتعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء. فإذا جاءتنا أشياء وحققنا إنتاجا يجب أن نرى أنّ هذا من الله سبحانه، وإذا كبونا وتعثرنا فيجب أن نراه من أنفسنا.

وإذا ما أقبلت علينا الدنيا فيجب ألا نصاب بالغرور، وإذا ما ذهبت لا نأسف عليها، وعلينا أن نقف وقفة رجال ونصحح أخطاءنا ونستعيد هيبتنا، وهذه سنّة الحياة.

وعلى كل حال لتكن أهدافنا كبيرة، ونياتنا صادقة، ولنكن أصحاب همم عالية في مسارنا وسلوكنا الأُخروي، فلا نقلق ولا نقبل بأقل من الجنة، ولا نقبل في سلوكنا الدنيوي بأقل من الرتبة الأُولى في التقدم، وعلينا أن نكون

57. محمد: 7.

متواضعين في داخل أنفسنا، كما ورد ذلك في دعاء الإمام السجاد(عليه السلام) في مكارم الأخلاق: «اللهم لا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي بقدرها»[58]. نسأل الله أن يعيننا على ذلك، والحمد لله رب العالمين .

58. الصحيفة السجادية: 110 دعاء مكارم الأخلاق.

(16)

الحاجة إلى النور الدائم والعطاء المستمر

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (ليس في البرق الخاطف مستمتع لمن يخوض في الظلم) [59] .

تشير هذه الحكمة الشريفة إلى إضاءة مهمة في بيان الحاجة إلى الرؤية الصائبة والوضوح المستمر، من بدء المسيرة حتى منتهاها، فالذي يسير في طريق مظلم لا يغنيه ضوء البرق الخاطف الذي يعطي الضوء لحظة وينتهي، وهو يحتاج إلى ضوء مستمر على طول الطريق، والبرق الخاطف ينير لحظة ويرينا جانبا من الحقيقة ثم يذهب فتعود الظلمة، في حين أنّ حاجتنا إلى النور مستمرة على طول الخط والطريق، ولمعان البرق فيه متعة وأمل ولكنّه خاطف وسريع لا يدوم، والإنسان الذي يسير يريد أن يتمتع دائماً بالنور على طول الخط؛ لكي يرى الطريق الذي يسير فيه، والومضات التي تلتمع لحظة وتنتهي تكون مملة ومزعجة، وغير قادرة على أن تحقق الهدف المنشود؛ فالصورة الخاطفة قد تعطي انطباعاً منقوصاً عن الحقيقة.

البعض منا تأتيه فورات واندفاعات في لحظة ما، فيقوم بخطوة ويترك بصمة ويحقق إنجازاً، ولكنه سرعان ما يخفت، وهناك من لديه إضاءات، ولكنه لا يمتلك الإبداع والإنجاز المستمر على طول الخط، وليست لديه حالة التراكم التي تمكنه من السير في خط بياني متصاعد، فيخطو خطوة ثم يبرد فترة من الزمن، ثم يخطو خطوة ثانية ثم يعود ويبرد، والبعض منا رجل أزمة؛ إذ يندفع في لحظة الأزمة، وما إن تنتهي حتى يضيع ويندثر،

59 . عيون الحكم والمواعظ : 524 .

ويترك الآخرين في حالة استغراب؛ فهذا الشخص تكون له صولة وتأثير، ثم في لحظةٍ ما يفقد كل هذا التأثير والبصمات واللمسات والتميز عند أدنى إحباط وتلكؤ وضغط يتعرض له، والبعض منا بريقه كومضة البرق؛ تضيء لحظة وتذهب، مع أنها ومضة مؤثرة، ولكنها لحظة وتنتهي، حتى يأتي ظرف مناخي آخر فتحدث ومضة أُخرى، والبعض منا كالقمر؛ إشعاعه وتميزه وتألقه وبريقه حالة مستمرة، وهذا هو المطلوب.

إنّ ما نحتاج إليه ونحن نحمل مشروعاً، ونتحرك في أُطر واسعه وبأهداف مهمة مرحلية واستراتيجية، هو نور مستمر وليس ومضة برق، ونحتاج إلى أُناس يكون التميّز والتألق والبريق سمة من سماتهم، والإنسان المتكامل الذي يسير في طريق الكمال الرسالي يجب أن يكون لديه عطاء مستمر، وهذه التقلبات؛ تقلب الأحوال، تقلب الحماسة والبرود، فيخطو خطوة إيجابية تعقبها خطوات من العمل العادي، لا توصل الإنسان إلى الهدف، لاسيما عندما يكون حاملاً لمشروع ورسالة، ويجب أن نتأكد هل بريقنا دائم، أو نحن رجال نخوة ومرحلة معينة نعطي شيئاً ثم نخفت؟ ومن يحمل المشاريع الرسالية الكبيرة عليه أن يكون دائم العطاء، ويجب علينا ـ كشخوص ومؤسسات وتيار ـ أن نكون دائمي العطاء، وخطنا البياني في تصاعد، وهذه القضية تُذكر في الهندسة؛ فعندما نريد أن نعرف اتجاه البوصلة نربط بين نقطتين وبين محطات، فإذا رأينا أن المحطات صاعدة ونازلة، فهذا يؤكد عدم وجود بوصلة.

إذن، نحتاج إلى النور الدائم، فالنقاط الوضاءة القصيرة الأمد، لا يمكن أن تمثل مخرجاً ونتيجة مقبولة ومهمة في إيصال الإنسان إلى أهدافه، وهذا يتطلب أن تكون لدينا رؤية استراتيجية تنبثق عنها سياسات واضحة، تتحدد على أساسها خطط رصينة، وتنبثق من هذه الخطط مشاريع دقيقة وواضحة ومدروسة، فمن يحمل مشروعاً يجب أن تكون جميع خطواته قابلة للتفسير في إطار واحد، والتنوع في التكتيك والسياسات وفي المواقف ضمن الاستراتيجية والهدف والبوصلة الواحدة، وينبغي أن نمتلك أدوات

نظيفة ومخلصة، لكي تستثمر هذه الرؤية والسياسات والخطط والبرامج والمشاريع بشكل صحيح، ونحتاج إلى جانب ذلك إلى الإرادة والحماسة والاندفاع والثبات، لتنتج لنا وضوحاً في المسار والمنهج، وتخرجنا من البرق الخاطف إلى الشمس التي تنير وتضيء بشكل مستمر، وترينا طريق الوصول إلى أهدافنا، وهذا يتطلب تراكما وتركيزا وتألقا مستمرا باتجاه الأهداف المحددة.

إنّ أنصاف الحلول يكون لها أحياناً مردود عكسي، وقد تضيّع كل الحل، كما أنّ أنصاف الحقوق قد تضيّع كل الحق، وهناك دائماً من يريد أن يكتفي من كل أمر بنصفه، كمن هو معنا بالنهار ومع عدونا بالليل، وما دام هو معنا بالنهار فهو شريك في العملية السياسية، وإذا جنّ عليه الليل فهو شريك الإرهاب، وهناك من يظهر أمامنا المحبة، ويطعننا من الخلف، وموقفنا منهم هو ألا نتماشى معهم؛ لأنّه يمكن أن نعطيهم الشرعية عندما نتماشى معهم.

إنّ أنصاف الحلول تعكس في الحقيقة حالة التذبذب والتردد، ولا تستطيع أن تشق طريقاً أو ترسي منهاجاً أو توضح مساراً لما نخطط له وصولاً إلى أهدافنا وغاياتنا السامية، فالمتذبذب والمتردد والسائر في اتجاهين ومن يقدم رجلاً ويؤخر أُخرى، لا يستطيع أن يحقق المنهج، ولا يستطيع أن يحقق أهدافه، ولا أن يصل إلى ما يريد، ولذلك فإنّ من أهم سمات أهل الحق أنّهم أهل البصائر؛ لأنّ صاحب البصيرة لديه رؤية، والذي يمتلك رؤية ستتكون لديه مسارات وسياسات تنبثق منها خطط وبرامج ومشاريع، والذي لديه الرؤية الواضحة يملك الإرادة الكافية لكي يخطو ويسير.

إنّ الأدوات الصحيحة والمخلصة هي أساسيات نجاح العمل في أي مشروع، سواء كان مشروعاً تجارياً أو صناعياً أو ثقافياً أو خدمياً أو سياسياً، فكيف بمن يريد أن يبني دولة عصرية عادلة، فكم هو بحاجة إلى مثل هذه الرؤية.

إنّ للتخبط والتردد مردودا عكسيا، فهو يشتت ويضيّع ويعطي رسائل

للمواطنين والمراقبين عن غموض ما يريده هؤلاء المترددون وعن ماهية مشروعهم.

وما دمنا ندخل عملية انتخابية وندّعي أنّنا قادرون على إدارة دولة ونطرح أنفسنا كبديل، فلا مجال إذن لأنصاف الحلول، ولا مجال للتردد، ويجب علينا أن نكون على مستوى المسؤولية.

هناك من يقول عنّا: إنّهم يتكلمون بشكل جيد، ولكن لا ندري ما هو عملهم، ولدينا ثقة بفلان، ولكن لا نعرف الآخرين كيف هم؟.

إنّ المشروع يتقوّم برجاله ورؤيته ومساراته، ويتقوّم بمشاريع وخطط وبرامج، ويتقوّم بأدواته النظيفة، ونحن بحاجة إلى جميع هذه الأمور، إن كنّا لهذا المشروع أهلا، ونحن له أهل بإذن الله تعالى، ويجب أن نبرهن على ذلك لأنفسنا حتى نبرئ ذممنا ونريح ضمائرنا، ثم نبرهن على ذلك أيضاً للعالم كله، فاعرفوا قيمتكم، واعلموا أنّ سبب قوّتكم، بعد الثقة بالله تعالى هو هذا المشروع، فلا تقبلوا لأنفسكم ولا لمن يدخل وينتمي إليكم وينتسب إلى مشروعكم أن يكون ومضة وبرقاً خاطفاً، ولا أن يكون متذبذباً ومتردداً، فإنّ التذبذب والتردد مساحة رمادية لا توصلنا إلى نتيجة.

(17)

الميزان الحقيقي للقوة والضعف

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (خف الضعيف إذا كان تحت راية الإنصاف ، أكثر من خوفك القوي تحت راية الجور ، فإنّ النصر يأتيه من حيث لا يشعر ، وجرحه لن يندمل) [60] .

تشير هذه الحكمة العلوية الشريفة إلى مفتاح آخر من مفاتيح التواصل وتقييم الأُمور وتوازنات القوى في الساحة الاجتماعية ، وأنّ الناس تنظر إلى القوى المادية ولا تنظر إلى قوة الذات ، فهي لا تنظر إلى قوة الجماعة وقوة العقيدة ، وقوة المشروع ، بل ، تنظر إلى الأدوات المادية السلطوية ، وتحدد القوي من الضعيف على أساس هذه الأدوات ، وتضعّف بعضاً وتقوّي آخرين .

ونلاحظ هذه الظاهرة في حركة الأنبياء والمصلحين وأهل البيت (عليهم السلام) ، فقد كان الخليفة العباسي هارون يصول ويجول في بغداد ، والناس تعتقد بأنّه القوي لأنّه يحكم أكبر دولة في العالم في حينها ، وكان يخاطب السحابة الحاملة للمطر وهو مستلق على قفاه : «اذهبي إلى حيث شئت فإن خراجك عائد إليّ»[61] ، وكان لديه الجيوش والقوة والإعلام والتأثير في الرأي العام ، والذهب والفضة ، في الوقت الذي كان فيه الإمام موسى الكاظم(عليه السلام) غريباً وحيداً سجيناً في زنزانة ببغداد ، ليس بيده من الأمر شيء ولا يملك شيئاً ، وكان منطق الناس عموماً أنّ الإمام موسى(عليه السلام)

60 . شرح نهج البلاغة 337 : 20 ح861 .

61 . سبل الهدى والرشاد 2 : 128 .

هـو الضعيـف وهـارون هـو القـوي، فهـي لا تـرى إلا القـوة الماديـة والضعـف المـادي، وهكـذا تفسـر الأُمـور.

ولكـن أميـر المؤمنيـن(عليه السلام) يطـرح فـي هـذه الحكمـة معيـاراً آخـر لتـوازن القـوى، فيبيّـن أنّ الميـزان الحقيقـي للقـوة والضعـف يـدور مـدار الإنصـاف والجـور، فمـن يتحـرك ضمـن إطـار الإنصـاف هـو القـوي لقـوة مشـروعه، وحقانيـة الرؤيـة والمسـار الـذي يمتلكـه، ومـن كان علـى باطـل فهـو الضعيـف مهمـا حـاول أن يصبغـه ويصلحـه بـأدوات سـلطوية ليعبـر عـن قوتـه السـلطوية. فالحـق والباطـل همـا معيـار تـوازن القـوى، فمـن كان مـع الحـق فهـو القـوي حتـى لـو لـم يمتلـك أدوات ماديـة فـي لحظـة مـا، ومـن كان علـى باطـل فهـو الضعيـف حتـى إذا كان يمتلـك كل الأدوات الماديـة فـي لحظـة مـا.

والأمـر الآخـر اللافـت للنظـر الـذي يشـير إليـه أميـر المؤمنيـن(عليه السلام)، هـو أن النتائـج تظهـر بأسـرع ممـا يتصـور القـوي والضعيـف، فالضعيـف اليائـس يأتيـه النصـر فجـأة وتتغيـر الأُمـور، وكأن توزيـع النتائـج فـي آخـر السـنة أصبـح بالعكـس، فـكان هـو الناجـح الأول، مـع أنّـه كان أمـراً مسـتبعداً مـن كل أحـد، وفجـأة صـار تحـت الأضـواء، ويأتيـه النصـر فجـأة مـن حيـث لا يشـعر، وجرحـه مـازال نازفـاً لـم يندمـل، وقبـل أن تنتهـي مظلوميتـه.

ونحـن اليـوم بأمـس الحاجـة إلـى اسـتحضار مثـل هـذه المفاهيـم فـي سـاحة لا تخضـع لأي معاييـر أخلاقيـة أو التزامـات واتفاقـات، فمـن أبسـط التزامـات المؤمـن تجـاه أخيـه المؤمـن هـو الالتـزام بالعهـود والمواثيـق واحتـرام الاتفاقات، وينبغـي للإنسـان ـ فضـلاً عـن كونـه مؤمنـاً ـ أن يكـون صاحـب كلمـة، وإذا قـال شـيئاً عمـل بـه، وإذا التـزم بشـيء وفـى بـه، بـل انّ الوفـاء والالتـزام مـن أبـرز سـمات المؤمنيـن، بينمـا نـرى اليـوم كل هـذه الأُمـور تضـرب عـرض الجـدار، ويبـدو أنّ كل مـن يجلـس علـى الكرسـي فـي بغـداد، يكـون منطقـه منطـق هـارون العباسـي حينمـا قـال لولـده المأمـون: «والله لـو نازعتنـي هـذا الأمـر لأخـذت الذي

فيه عيناك فإنّ الملك عقيم»[62] ، ويصاب بهذا الهوس من حيث يشعر أو لا يشعر، وهو ما يدعو إلى الأسف الشديد؛ لأنّنا في دائرة المؤمنين ونرى مثل هذا النقض للعهود والمواثيق، ولكنّنا مطمئنون وواثقون، بأنّ النصر قادم، بإذن الله تعالى، وستتحول كل هذه الضغوط لتكون وبالاً على من يمارسها؛ لأنّها قامت على أساس الظلم والجور، وليس على أساس العدل والإنصاف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

62. عيون أخبار الرضا 2: 86 ح11.

(18)

واقع الحياة الدنيا

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (ما أقرب الراحة من النصب ، وما أقرب البؤس من النعيم ، والسقم من الصحة ، فطوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه ، وحبه وبغضه ، وأخذه وتركه ، وكلامه وصمته ، وفعله وقوله)[63] .

تناولت الفقرة الأُولى من الرواية : «ما أقرب الراحة من النصب» بيان أن المسافة بين الراحة والتعب قريبة جداً ؛ فالإنسان المتعب المرهق عندما يضع رأسه على الوسادة وينام بضع ساعات ينهض وقد استجمع طاقته ، ويمكن أن يزول التعب حين يبذل الإنسان جهوداً مضنية وكبيرة فيحقق انتصاراً معيناً ، فيشعر بالراحة النفسية حينئذ وينسى التعب ، كمن يبقى مستيقظاً مع مريض يومين أو أكثر ، وبعد شفاء المريض ينسى التعب . والعكس صحيح أيضاً ؛ فربما يكون الإنسان في حالة من الراحة والدعة ، وتعرض له مشكله فينقلب حاله رأساً على عقب في دقائق ، فالمسافة قريبة جداً بين الراحة والنصب .

وأشارت الفقرة الثانية من الرواية الشريفة : «وما أقرب البؤس من النعيم» إلى بيان قرب المسافة بين الفقر والغنى ، فربما انقلبت حال الإنسان الفقير المدقع الذي لا يملك قوت يومه في لحظات ليصبح إنساناً ثرياً يملك أموالاً طائلة ، كمثل من يشتري ورقة يانصيب فيربح الجائزة ، وإذا به يصبح ملياردياً وإنساناً يملك إمكانيات هائلة . وربما كان العكس من ذلك ؛ إذ ربما يتحول الإنسان في لحظة من الثراء الفاحش إلى الفقر بنزول البورصة مثلاً ،

63 . تحف العقول : 91 .

أو الافلاس نتيجة أزمة عالمية. فالفارق بين البؤس والنعيم قريب جداً، فما أسرع أن يكون البائس في نعمة، وما أسرع أن يكون المتنعم في بؤس في طرفة عين، وقد رأيناها في حياتنا، وما أكثر الشواهد عليها.

وأشارت الفقرة الثالثة من الرواية الشريفة: «والموت من الحياة» إلى بيان قرب الموت من الحياة، كما لو جاءت سيارة مسرعة وصدمت رجلاً يمشي هادئاً مطمئناً، فتسبب إزهاق روحه في لحظة، أو كزلزال يأتي في غضون لحظات ودقائق معدودة فيقلب حضارات ومدنا بأكملها، ويزهق أرواح مئات الآلاف من الضحايا، أو كما حدث قبل فترة في الفلبين؛ عندما ضربها تسونامي وفي غضون دقائق كان مئات الآلاف من الناس بين قتيل وجريح، فالفاصل بين الموت والحياة سكتة دماغية أو نوبة قلبية في لحظة وينتهي كل شيء.

وأشارت الفقرة الرابعة من الرواية الشريفة: «والسقم من الصحة»، إلى بيان قرب المسافة بين السقم والصحة، فمن الممكن أن يصيب الإنسان فيروس لا يرى بالعين أو يصاب بالإنفلونزا أو بمرض خبيث ـ أجارنا الله وإيّاكم جميعاً ـ فينقلب حاله من الصحة إلى المرض خلال فترة قصيرة، وقد يستمر به المرض والعياذ بالله طيلة حياته، أو يؤدي به إلى الموت. فالفاصل بين الصحة والسقم هو فيروس، أو بيئة ملوثة وما إلى ذلك.

فإذا كان هذا شأن الحياة، وأنّ الفواصل تكون قريبة جداً بين الراحة والنصب، وبين البؤس والنعيم، وبين الموت والحياة، وبين السقم والصحة، فإنّ السعادة والغبطة في نظر أمير المؤمنين(عليه السلام) هي للإنسان الذي تتوافر فيه خمس صفات تكون لله تبارك وتعالى:

الأولى: الإخلاص في القول والعمل

وقد تمثلت هذه الصفة في قوله(عليه السلام): «فطوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه»، أي أن عمله وعلمه كليهما يجب أن يكونا خالصين لله تبارك وتعالى. ونلاحظ هنا أن أمير المؤمنين(عليه السلام) يقدّم الإخلاص في العمل على الإخلاص في العلم؛ لأنّ الدنيا لا تساوي أن يعمل لها الإنسان إذا

كانت المسافة بين القمة والقاع في كل شؤونها هي مجرد لحظات، وما قيمة الجهد الذي يبذله الإنسان في سبيلها خلال سنين طوال من عمره إذا كان يمكن أن يضيع في طرفة عين! أو أن تأتي الدنيا خاضعة لشخص آخر خلال لحظات ولم يبذل في سبيل الحصول عليها جهداً يذكر؟! ولذا يجب على الإنسان أن يخلص عمله قبل علمه لله تعالى وليس لنفسه.

الثانية: الحب والبغض.

ثم أشار أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى ضرورة أن يكون الحب والبغض لله تبارك وتعالى أيضاً، وليس انتصاراً للنفس، فمثلاً، كان يزيد بن معاوية يعتقد بأنّه انتصر على سيّد الشهداء الإمام الحسين(عليه السلام)، وبثّ وهمه في نفسه نوعا من النشوة والانتعاش، فجلس في ليلة الأول من صفر سنة إحدى وستين للهجرة كإمبراطور، وأدخلوا عليه سبايا آل محمد(صلى الله عليه وآله)، ولكن بخطاب واحد من الإمام علي بن الحسين(عليه السلام) انقلبت الموازين كلها. والحب والبغض لله سبحانه وتعالى، والانتصار لله، هو الذي استطاع أن يفعل هذا، وليس الانتصار للنفس.

الثالثة: الأخذ والترك.

ثم يتطرق أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى أنّ الأخذ والترك يجب أن يكونا لله عز وجل أيضاً، أي عندما يأخذ شيئاً ويصرّ على شيء فينبغي أن يكون الهدف لله تعالى، وعندما يترك ويتخلى عن شيء ينبغي أن يكون لله سبحانه وتعالى أيضاً.

الرابعة: الكلام والصمت.

ثم يشير أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى صفة أُخرى وهي وجوب أن يكون كلام الإنسان وصمته لله تعالى، فيشخص أنّ عليه في هذا الموقع وهذه القضية أن يصمت؛ لأنّ نطقه فيها ليس لله تعالى ولا فائدة ترتجى منه. ويشخص في موضع آخر أنّ عليه أن يتكلّم؛ لأنّ نطقه يكون لله تعالى فيه رضا، ككلمة حق عند سلطان جائر.

الخامسة: الفعل والقول.

ثم يبيّن أمير المؤمنين(عليه السلام) الصفة الأخيرة التي يغبط عليها الانسان الذي عرف الدنيا حق معرفتها، وهي أن تكون أفعاله وأقواله لله سبحانه وتعالى.

وعندما يكون الإنسان لله تعالى في هذه الميادين، في أفعاله الجوارحية، في كل حركة وسكون، وفي أحاسيسه الجوانحية، في كل مشاعره النفسية من حب أو بغض، يكون قد ضمن فوزه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولحسن الحظ فإنّ القضية التي ترتبط بالإخلاص لا تضيع على الإنسان وإن التبست الأُمور أحياناً ولا يعلم إن كانت لله أم لا، ويجد صعوبة في تشخيصها، ومثال ذلك، أنّ الإنسان عندما يرمي الحصاة في رمي الجمرات من بين آلاف الحصى لا يستطيع أن يجد الحصاة العائدة له، ولكنّها لا تضيع أبداً عند الله عز وجل، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فكذلك الإخلاص يستطيع أن يعرفه ويميزه ولو حاول تلبيس الأمر على نفسه، كما قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[64]، فالإنسان عندما يرجع إلى قرارة نفسه يعلم؛ هل الكلمة التي قالها هي لله تعالى أو لا.

فراجعوا أنفسكم لتعلموا إن كان كل عمل وخطوة وفكرة هي لله أم لا، ولا يمكن أن تضيع عليكم، فمن كان عمله لله فهنيئاً له، ومن لم يكن كذلك فقد ضاع عمله هباء منثورا.

إنّ الفاصلة بين القمة والقاع هي طرفة عين، فإن جاءت نتيجة العمل فأهلاً وسهلاً بها، وإن ذهبت فإنّ العمل كان لله تعالى ولا يضيع أجره وثوابه، وسيعوض الله تعالى الإنسان بشيء آخر، وحينئذ يصبح الإنسان في حالة من الاستقرار والسكينة والطمأنينة والراحة النفسية والشعور بالقوة

64. القيامة: 14 ـ 15.

والثقة، سواء حصلت النتيجة المرجوة أو لم تحصل، لأنّه يعلم أنّه لابد من وجود مصلحة في ذلك وإن خفيت عليه في حينها.

وأنا أذكر دائماً الكلمة التي كان يكثر منها (عزيز العراق) وهي: «اكو الله»، فقد كان يطرق في الشدائد والملمات ويسكت ويقلب الأُمور باطمئنان شديد ويقول: «اكو الله»، وكان عندما يقولها كأنّما يعطي شحنة كهربائية للمستمعين، وبالفعل كان «اكو الله» فلا تخافوا، وكان يقولها من أعماق وجوده وليس مجرد لقلقة لسان.

وهذه الكلمة تلخص هذه الرواية تماماً، ففي أي لحظة، ومهما كانت هذه اللحظة شديدة، يشعر الإنسان بعدها مباشرة بالراحة والاطمئنان.

ولذلك أحبتي، فإنّ الإخلاص مسألة مهمة جداً، فالإخلاص يعني النماء في عملنا، ويعني التأثير والبركة والانتشار، ويعني تحقيق الانجازات والانتصارات، وكما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[65]، فكل شيء بيد الله تعالى، والبقية كلها مجرد وسائل، فمن الممكن أن يكون الشارع خالياً في ساعة ما، فتطوي السيارة فيه مسافة عشرين كيلومترا بدقائق، ومن الممكن أن يكون مزدحماً أو مغلقاً في ساعة أُخرى، فلا تستطيع السيارة طي عشرين متراً في نصف ساعة، وهذه كلها وسائل لا نستطيع السير بدونها، فنحن نسير في الشارع، سواء كان خالياً أو مزدحماً بحسب الحالة، في نفس الشارع. والوسائل الطبيعية هي كهذا المثال تماماً، فتطرق وتجهد نفسك بالعمل في موضوع ما ثم تجد نفسك بعيدا عنه بُعد السماء عن الأرض.

فهناك موقف تتعب عليه وتركض وراءه ولكن بلا نتيجة كأنّك تحفر في الماء، وهناك عمل أو خطوة لم تتخذ حيزاً في تفكيرك تترك أثراً عميقاً وصدى واسعاً في الأُمة والناس. وهذه جميعها إشارات ورسائل

65. البقرة: 349.

يبيّنها الله سبحانه ليقول للناس انّ الأمر بيدي وأنا الذي جعلت الوسائل طبيعية ومع ذلك لا تكون الأسباب مؤثرة إلا بالركون إليّ.

وقد كانت أحوال شهيد المحراب (قدس سره)، تتغير في الأزمات دائماً، ويعلو صراخه وبكاؤه، وهذه كانت سمة شهيد المحراب، ففي الليلة التي توجد فيها أزمة يعلو بكاؤه حتى يسمعه من هو خارج غرفته؛ لأنّه كان يؤمن بأنّ القضية بيد الله تعالى. فالوسائل الطبيعية تسير ولكن يجب التوسل إلى الله تعالى واستحضار أنّ بيده مفاتيح الحل كلها.

ونحن بحاجة إلى هذه الجرعات لكي نراجع أنفسنا، ولاسيما في لحظات الإقبال على الله سبحانه، فمن السهل الحصول على حالة الإخلاص في حالة الإقبال.

وما شاء الله، تنظيمكم جيد، وخططكم جيدة، وكذا المبادرات والأفكار. ولكن الدنيا إذا أقبلت أعارتكم محاسن غيركم، وإذا أدبرت سلبتكم محاسن أنفسكم وأعطتها لغيركم واستعارت لكم مساوئ الآخرين. وعلى كل حال، علينا أن نقلق على أنفسنا في لحظات إقبال هذه الدنيا، وعلينا أن نفتح أعيننا ونتأكد من صحة مساراتنا.

(19)

القناعة في العمل السياسي

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (خرج العزّ والغنى يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرا)[66] .

تشير هذه الحكمة العلوية الشريفة إلى أنّ العزّ والغنى توأم القناعة ، فحيث وجدت القناعة وجد العزّ والغنى لدى الإنسان ، وأنه لا عزّ ولا غنى بلا قناعة .

والقناعة تعني التقدير الصحيح للموقف ، وتعني عدم المغالاة وعدم رفع الأسقف في التعاطي مع شؤون الحياة ، وتعني استثمار الفرص بشكل صحيح ، وتعني التعاطي مع واقعيات الحياة ، والنظر بواقعية للأُمور ، وتنظيم الإيقاعات على أساس هذه الواقعية ، والقناعة كنز لا ينفد ، ومن أراد العزّ فعليه أنّ يكون قنوعاً ، ومن أراد الغنى فعليه أنّ يكون قنوعاً أيضاً .

66 . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 : 300 ، ح428 .

(20)

علم جواهر الرجال

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال ، والأيام توضح لك السرائر الكامنة)[67] .

تشير هذه الحكمة العلوية الشريفة إلى واحدة من القواعد المهمة في تمحيص الرجال ، وفي التعرّف على المخلصين من غيرهم ، والتعرف على الأكثر أخلاصاً من غيره ضمن دائرة المخلصين .

فقد يتصنّع الإنسان لوهلة من الزمن وقد يكون مصابا بالجهل المركب ، فيعتقد بأنّه مؤمن بمشروع ما ، ولكن ما إن تأتي هزة أو تحصل كبوة أو هفوة أو هجمة أو تتغير مناخات أو أدوار ومواقع ، فيذهب من كان في الصدارة إلى الخلف ومن كان في الخلف إلى الصدارة ، حتى يتبيّن أنّه لم يكن مؤمناً بالمشروع ، وإنّما هو مؤمن بذاته ومصلحته الشخصية .

ومثل حركة الدنيا بحسب سنن الحياة وحركة الإنسان في هذه الدنيا ، كشريط تخطيط القلب ؛ فيه صعود ونزول ، وهذه قضية طبيعية لم يسلم منها أحد حتى رسول الله(صلى الله عليه وآله) في مساره المادي ، وليس المعنوي طبعاً ، فهناك انتصارات وهناك كبوات وهناك تقدم وتراجع ، ففي يوم تشدّ الأحجار على البطون ، وفي يوم يفتح مكة ويدخل الناس في دين الله أفواجاً . ولكن قد يكون الإنسان مصابا بجهل مركب ، فيتصور أنّه مؤمن بمشروع ما ومندفع لقضية ما ، ولكن في لحظة النزول والتراجع وفي لحظة الألم والصراخ ،

67 . الكافي 8 : 23 .

وعندما يتعرض المشروع إلى ضغط، يرى نفسه بعيداً عن هذا المشروع، فيطلب العافية ويرى نفسه غير مهيأ ليقف ويواجه أو غير مقتنع، أو مترددا في كل ما كان يعتقد بأنّها قناعة راسخة، ويجد نفسه متذبذباً ويعيش حالة من الضبابية بما كان يتوهم أنّه مؤمن ومعتقد به.

ففي الهزات العنيفة والظروف الصعبة والتحديات الخطيرة والمواجهات الشديدة يتبين الإنسان؛ كم هو قوي وفاعل، وكم هو مقتنع بالمشروع الذي كان يرى نفسه جزءا طبيعياً منه في ظروف الرخاء والصعود والدعة والوهج. فدائماً في تقلب الأحوال يتبيّن حال الرجال، ولكن، وكما ذكرت، يقع الإنسان نفسه أحياناً في جهل ويظن أنّه مؤمن ومقتنع ثم يتبيّن له أنه ليس كذلك، هذا في دائرة المخلصين.

وهناك الانتهازي الذي يراقب اتجاهات الأُمور ويحاول أن يركب الموجة ويسير مع كل خط صاعد، وعندما ينزل الخط، سرعان ما ينزل منه ويذهب نحو الخط الآخر الصاعد ويلتصق به.

فمعادن الرجال والنساء تتبيّن عند تقلب الأحوال وعند اختلاف الظروف، ولا أحد يستطيع أن يتصنع إلى أمد طويل، فحبل الكذب قصير، وحبل التضليل قصير، والتصنع له مدده الزمنية وظروفه الطبيعية، وبعدها لا يستطيع أن يواصل وتنكشف الأوراق وتتبيّن الأُمور والحقائق. والأيام توضّح لك السرائر الكامنة، فتعرف الصادق من الأقل صدقاً، ومن الانتهازي ومن الأكثر صدقاً والأكثر وفاءً والأكثر تمسكاً بالمشروع.

ولذلك نرى القرآن الكريم حينما يتحدث عن الثلّة المؤمنة يجعل من سماتها الصمود والثبات في ظروف التحدي، وأما الانتهازيون والأقل وفاء والأقل إخلاصاً والأقل وضوحاً فيبدؤون يبتعدون رويداً رويداً وينقلبون على أعقابهم في مثل تلك الظروف، على عكس المؤمنين الذين يزدادون رسوخاً في المشروع، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا

مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[68]، فعندما مرّت بهم ظروف صعبة لم تزدهم إلا إيماناً وتسليماً، أي الإيمان الشديد والتسليم الكامل، وهذا الأمر مهم جداً.

كما نزل في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[69]، فالإنسان المخلص كالمسمار؛ كلما طرقت عليه أكثر اشتدّ تمسكاً وتصلباً والتزاماً.

ولذلك تبيّن أنّ الخير كل الخير في تقلبات الأحوال والفتن والمحن؛ لأنّها تفرز وتغربل الرجال، فهي كالعواصف التي تعصف بالأشجار فتتساقط منها الأوراق الصفراء التي ليس لها ارتباط حقيقي وعضوي، وأما الأوراق الخضراء فتبقى متمسكة بالشجرة مهما كانت العواصف شديدة، وهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[70].

ولذلك يعتبر ظرف الشدائد والمحن أفضل ظرف وفرصة، نفتح فيه أعيننا ونقيّم أنفسنا ومن يحيط بنا ونقيّم الآخرين ونرى مدى تمسكهم بالمشروع وإصرارهم عليه. فاليوم مثلاً نرى الجميع يهتف: «تاج تاج على الرأس سيّد علي السيستاني»، فإذا خرج شخص وقال: نحن ندعم المرجعية، فهذا ليس فضلاً؛ لأنّه حتى الانتهازي يهتف ويرفع صورة السيّد، ولكن المحك في اليوم الذي تُعزل فيه المرجعية ويصبح الانتماء إليها ذا كلفة عالية، فحينئذ يتبيّن من يقف فعلاً مع المرجعية.

وهكذا نحن إن كنّا نرى في أنفسنا ـ ونحن نرى ذلك ـ أنّنا نحمل مشروعاً رسالياً حقيقياً في بناء الدولة ونحمل مشروعاً في بناء الإنسان

68. الأحزاب: 22.

69. آل عمران: 173.

70. الرعد: 17.

يتبيّن صدقنا من كذبنا في الشدائد والأزمات، ففي ظروف الوهج والخط الصاعد والإقبال والاحترام، ما أسهل أن يدّعي شخص أو يعتقد بأنّه ينتمي إلينا، ولكن في الظروف الصعبة يتبيّن من له انتماء حقيقي ومن له انتماء من نوع آخر.

نسأل الله أن يجيرنا من مثل هذه الحالات، وأن يثبتنا على القول الصادق والفعل الصالح، وأن يجعلنا من المتمسكين بهذا المشروع والمنهج الذي اعتمدناه والذي يستند إلى أبعاد شرعية وأبعاد رسالية، ويجعلنا في موقع نكون فيه على قدر المسؤولية، والحمد لله رب العالمين.

(21)

مبدأ الإتقان في العمل

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : (إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[71] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى ينظر إلى عمل الناس، ويحب أن تكون تلك الأعمال متقنة، أي يحب أن يأتي بها الإنسان على أحسن وجه، ولذا يجب أن يكون العمل الذي نقوم به متصفاً بالإتقان والدقة والجودة، وكأن هذا العمل هو لوحة فنية، فينبغي أن يبذل فيه غاية جهده ليكون كاملاً من جميع الجهات، إذ من الممكن أن نرى صورة لرسام فنتصورها متكاملة، ولكنها في الواقع تحتاج إلى الكثير من العمل، فهي بحاجة إلى إدخال لمسات عليها، وإضافة ألوان طبيعية معينة أو وهج اضافي، فنراها لأول وهلة جاهزة، ولكن نلاحظ أنّ الرسام يقضي أسبوعاً آخر من أجل إضافة لمسات فنية جديدة عليها، وكذلك كل عمل يأتي به الإنسان هو لوحة فنية، لا يكفي فيه أن ينجز العمل فقط ، بل ينبغي أن يأتي به على أعلى مستوى من الإتقان والدقة.

والسؤال: كيف يمكن إنجاز مثل هذا العمل؟ وما مستوى الدقة والجودة المطلوبة في نوعية العمل؟ والجواب يكمن في وجوب الإلمام بالتفاصيل الدقيقة المطلوبة في إنجاز العمل المطلوب، بحيث يتحول إلى همٍّ وعناء، مهما كان هذا العمل بسيطاً، والإنسان الذي يتعامل بهذه الطريقة سوف يستشعر دائماً قيمة العمل الذي يقوم به، ومثل هذا العمل سيتضح ويكون بيّناً.

---

71 . ميزان الحكمة 3 : 2131 .

(22)

استعراض سمات المؤمنين

من المسائل التي ركز عليها القرآن الكريم وروايات أهل البيت سلام الله عليهم، هو استعراض سمات المؤمنين، ومن خلال هذا الاستعراض يتبين أن الرؤية الإسلامية هي أن الشخصية الإيمانية شخصية متوازنة، جامعة للعديد من المواصفات والشروط، فالنظرة الإسلامية والقرآنية للمؤمن ليست نظرة أُحادية، فهي لا تنظر إلى جانب واحد من جوانب الشخصية، بل تنظر إليها برؤية متوازنة وإلى الشخصية الجامعة.

وإحدى هذه الروايات التي تشير إلى هذه الجامعية والشمول في الشخصية، ما ورد عن أبي عبد الله الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه في كتاب الكافي الشريف؛ إذ يقول عليه الصلاة والسلام: (ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزائز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة)[72].

يبيّن الإمام الصادق (عليه السلام) في هذه الرواية الشريفة الخصال الثمان التي ينبغي توفرها في المؤمن، وهي:

الخصلة الأُولى: (وقور عند الهزائز)، عندما تأتي الهزائز ـ جمع هزة وهي الشدائد في الملمات التي تعصف بالإنسان ـ يكون وقوراً، أي يحافظ على وقاره، ويحافظ على ثقله، ولا ينهار، ولا يشعر بحالة من العشوائية

72. الكافي 2: 230 ح2.

فـي حـالات مـن هـذا النـوع، فيتعامـل بهـدوء ووقـار مـع الهزائـز والشـدائد والملمـات، ولا يفقـد أعصابـه.

الخصلـة الثانيـة: (صبـور عنـد البـلاء)، دنيـا بـلا بـلاء أمـر غيـر متيسـر وغيـر ممكـن، فالفقيـر مبتلـى بفقـره، والغنـي مبتلـى بغنـاه، والجميـع مبتلـى، ولا معنـى للبحـث عـن الراحـة المطلقـة فـي دار الابتـلاء، والإنسـان فـي الدنيـا كطالـب جالـس فـي قاعـة الامتحـان يـرى نفسـه قلقـاً؛ لأنّ الامتحـان بطبيعتـه يثيـر القلـق، وكذلـك الدنيـا دار بـلاء وابتـلاء، والإنسـان المؤمـن يصبـر ويتحمـل ويسـيطر علـى مشـاعره ومخاوفـه ويضـع حـدوداً، ولذلـك يواجـه المشـاكل والتحديـات والابتـلاءات بضبـط النفـس ومسـك الأعصـاب، فيكـون قـادراً علـى إدارة الأزمـة بشـكل صحيـح، وأمـا الاسـتعجال ونفـاد الصبـر وردود الأفعـال الانفعاليـة والغضـب، فكلهـا أُمـور تفسـد علـى الإنسـان تقديـر الموقـف بالشـكل الصحيـح فـي ظـروف الشـدة والابتـلاءات.

الخصلـة الثالثـة: (شـكورٌ عنـد الرخـاء)، الدنيـا تقبـل وتدبـر، فـإذا أدبـرت كان المؤمـن فيهـا صبـوراً، وإذا أقبلـت كان شـكوراً، وأمـا حالـة النرجسـية والاعتـزاز بالـذات ونشـوة الانتصـار ـ التـي يسـميها البعـض سـكر الانتصـار ـ فهـي تفقـد الإنسـان توازنـه وتدخلـه فـي أشـد حـالات الأنانيـة، ولـذا لابـد مـن أن يكـون الإنسـان شـكوراً؛ لأنّ النصـر مـن الله تبـارك وتعالـى، وعلـى الإنسـان أن يكـون متواضعـاً، مؤمنـاً بـأن النصـر مـن عنـد الله تعالـى، وبـأن النصـر إذا مـا حبـس فذلـك لمصلحـة يعلمهـا الله، فيصبـر عنـد الابتـلاء، ويشـكر عنـد الرخـاء والانفـراج.

الخصلـة الرابعـة: (قانـع بمـا رزقـه الله)، القناعـة لا تتقاطـع مـع الطمـوح المشـروع، بـل يجـب أن تكـون لـدى الإنسـان طموحـات عاليـة، وأن يسـعى لتحقيـق مـا يطمـح إليـه، ولكنـه يكـون قنوعـاً بمـا قـدر الله سـبحانه وتعالـى لـه إذا لـم تتحقـق تلـك الطموحـات، وحالـة القناعـة هـي الرضـا بقضـاء الله وقـدره.

الخصلـة الخامسـة: (لا يظلـم الأعـداء)، المؤمـن لا يظلـم الأعـداء فضـلاً عـن الأصدقـاء، وليـس لديـه شـماتة ولا ثـأر شـخصي، وليـس لديـه شـيء اسـمه

أحقاد، لأنّ الإنسان المؤمن ليس حقوداً حتى تجاه أعدائه، بل يدافع عن نفسه ومشروعه، وليس في قاموسه حتى في الحرب، الاجهاز على عدوه الجريح، ويرى أن فعل ذلك ليس من المروءة في شيء، بل ليس من الرجولة، ولذا يجب دائماً مراعاة ردود الأفعال، فالعدو في حالة الضعف لا قيمة للانتقام منه، ولا يجب أن نفعل ذلك، وهي تُعدّ حالة شخصية أكثر مما هي انتصار للمشروع، ولا شخصنة ولا أنانيات خاصة وثارات شخصية في تعاملنا مع بعضنا بحسب القيم الإنسانية.

الخصلة السادسة: (ولا يتحامل للأصدقاء)، المؤمن لا يتحامل من أجل الصداقة، ولا يتحمل وزر الأصدقاء، لأنّه لا طاعة لمخلوق في سخط الخالق، ولا يمكن أن يرضي الأصدقاء في شيء غير صحيح وغير ملائم.

الخصلة السابعة: (بدنه منه في تعب)، الإنسان المؤمن مكافح ومجاهد ومعطاء، والعطاء متعب، فحينما يعطي الإنسان من نفسه ويقدم الغالي والنفيس من أجل المشروع القيم فهو في تعب، وإذا كنا بالفعل مؤمنين ـ والإيمان يعني التمسك بالمشروع الرسالي ـ فهذا يتطلب تعباً وعطاء.

الخصلة الثامنة: (الناس منه في راحة)، المؤمن يتعب نفسه ليحقق راحة الآخرين؛ من خلال الاستقامة والثبات والأُطر الصحيحة في التعامل مع الآخرين، وهو متواضع مع الآخر، ولكنه يجهد نفسه ويتعبها لضمان راحة الآخرين وسلامتهم.

وهذه السمات الثمان تعبر عن الصورة التي يرسمها الإمام الصادق (عليه السلام) للشخصية الإيمانية، وهي تتضمن التوازن في جميع الجوانب والأبعاد.

(23)

التوأمة بين العقل والقلب

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[73] .

نفهم من هذه الآية الشريفة أن الرؤية الإسلامية تنص على التوأمة بين العقل والقلب ؛ فلا يكفي أن ينظر الإنسان بعقله إلى حقانية قضية محددة ، ولا يكفي أن يفلسف ويبرهن صحة مشروع معين ، حتى لو كان مشروع السماء ، بل يجب أن يمتزج بالقلب والمشاعر والمحبة ؛ إذ القناعة تولد أساساً إنشداداً عاطفياً ، فحينما يقتنع الإنسان بفكرة يحب هذه الفكرة ، وهذا الحب والمشاعر تولد دفعاً للمزيد من التميز في تنفيذ هذه الفكرة ، بدءاً من العلاقة بالله سبحانه وتعالى ، وهذه العلاقة مبنية على أساس الحب والارتباط بالله سبحانه وتعالى ، وهذا الارتباط ينتج قناعة ، وهذه القناعة توجد حباً ، وكلما كان الإيمان أشد ، تحركت المحبة والمشاعر والوجدان والضمير بشكل أعمق تجاه الله سبحانه وتعالى ، كما نصت عليه الآية الشريفة : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ، وكلما كان الإيمان أعظم ، كانت المحبة أشد وأوثق .

إذن من الصعب التعلق بمشروع من دون أن تتحول هذه القناعة إلى محبة ومشاعر ، والمشاعر مفتاح في مستوى تبني كلٍّ منا لما يعتقد به من قيم ومبادئ سماوية ، ومن مشروع يتحرك على الأرض ، وهذه حالة إنسانية ، فهناك من لديه رغبة أو هواية كحب جمع الطوابع ، فنجد لديه مجموعة من

73 . البقرة : 165 .

الطوابع لا نجدها عند دول، وآخر لديه هواية في مجال آخر، وهذه الهواية توجد حالة من الانشداد المشاعري، فيبدأ يتفنن بها ويعطيها من وقته وطاقته ويبدع وينجز، ونرى أحياناً في وسائل الإعلام أشخاصاً يقومون بتحويل القمامة إلى أشياء مفيدة.

فالحب والمشاعر يجب أن تتوج أي قناعة بأي مشروع نتعاطاه بالعقل ونفلسفه؛ فمن دون مشاعر وانجذاب لذلك المشروع يبقى معطلاً، وأي مشروع نستطيع تحويله من قناعة وفكر ونظرية ورؤية إلى مشاعر وعواطف، فإنه سوف يصبح همنا، وسوف نحب هذا العمل وهذا المشروع والمكان الذي هو فيه، وعندها يحصل الإبداع فيه، وإذا لم يوجد الانجذاب العاطفي، فسيكون العمل مجرد إسقاط واجب، وسيرتبط نجاحنا دائماً في إيجاد هذه الكيمياء التي هي المشاعر والمحبة تجاه العمل والمشروع، بل نجد في القرآن الكريم تحديداً لمعيار الصدقية، فكل يدّعي الانجذاب إلى المشروع الذي يؤمن به، ولكن ما هو معيار الصدقية؟.

لاحظوا هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[74]، والفاء هنا فاء التفريع، والآية الكريمة تقرر ترتّب الطاعة على الحب، فلا يمكن أن تحب الله سبحانه وتعالى من دون إطاعة رسوله، وأما ادعاء حب الله سبحانه وتعالى ونحن نعصي رسوله ونخالفه فهو استخفاف وكذب، ولا يمكن أن يجتمع الحب مع التمرد والعصيان، فما دمتم تحبون الله فاتبعوا رسوله يحببكم الله، لتصبح الحالة متبادلة بينك وبين مشروعك؛ فعندما تحبه تلتزم به، فيعطيك المشروع بعد أن كنت على مقاساته وملتزما به.

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي أن المشروع الرسالي هو طاعة الحجة الشرعية، الذي هو النبي(صلى الله عليه وآله)، والإمام(عليه السلام) من بعده، والمرجع الفقيه في عصر الغيبة، وطاعة الحجة الشرعية تعبير

74. آل عمران: 31.

وتجسيد لمصداقية الحب الذي ندعيه تجاه الله تبارك وتعالى، وتجاه المشروع الرسالي في مشروعنا السياسي، وهذه الطاعة والالتزام نتاج طبيعي لصدقية الانجذاب إلى المشروع والقناعة به والمحبة له.

ويبيّن القرآن الكريم أيضاً معيار انتخاب الفريق في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، فيركز أولاً على أن المعيار في اختيار هذا الفريق هو المحبة والمشاعر الناتجة عن قناعة؛ لأنها هي التي تولد الانجذاب الحقيقي والالتزام الكامل بالمشروع، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[75]، وجميع هذه سمات مهمة لاحقة، ولكن السمة الأهم هي التي ذكرت في صدر الآية: (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)، وقضية الحب والتعلق بالمشروع ضمان حقيقي لنجاح المشروع، والولاء للمشروع الرسالي هو ولاء لمشروعنا السياسي الذي يتحرك ضمن القيم والمبادئ، ولذلك نتحدث عن ولاء ووفاء وصدق في التمسك بالمشروع، وتجنب الانتهازيين، والبحث عن الناس المؤمنين والمحبين للمشروع، والموالين له والملتزمين به والمطيعين له.

إذن لهذه المفاهيم جميعاً جذور قرآنية وفهم قرآني عميق، بل في بعض الروايات: (وهل الدين إلاّ الحب)[76]، بل إن فلسفة الدين هي المحبة، وهي القلب الذي ينبض بحب الله وذكره، هذا هو جوهر فلسفة الدين، والمعيار في تحديد موقعك في المشروع هو أين انت؟ وكيف أنت؟ وأين يجب أن تكون؟ وقد ورد في جامع الأخبار عن الإمام علي (عليه السلام) ما يؤكد هذا المعنى؛ إذ يقول: (من أحبَّ أن يعلم كيف منزلته عند الله)، أقريب هو أم بعيد؟ وأين هو في هذا المشروع الرسالي؟ يحدد الإمام (عليه السلام) الجواب بقوله: (فلينظر كيف منزلة الله عنده)[77]، أي إذا كانت القيم الأخلاقية والحلال والحرام والالتزام بالمبادىء لها مكانة أساسية عند الإنسان،

75. المائدة: 54.

76. بحار الأنوار 27: 95 ح58.

77. بحار الأنوار 67: 18 ح11.

فليعلم أن له مكانة عند الله عز وجل، وأما إذا كانت المصلحة عنده أولاً، ويطلب الراحة ويتبع الهوى، فمعنى ذلك أنه لا توجد لديه قيم ولا مبادئ ولا ثوابت، وهي أُمور ثانوية في حياته، فليعلم هذا الإنسان أنّ موقعه ثانوي عند الله سبحانه وتعالى أيضاً.

إذن كلما كانت القيم والمبادئ مهمة عند الإنسان، فمعنى ذلك أنه مهم لدى الله ورسوله وأوصيائه من بعده.

البعض يدافع عن الإسلام ما دام هو حجة الإسلام فيه، ويركض خلف عنوان حجة الإسلام، وهذا لا ينفع، والبعض يدافع عن الإسلام سواء كان هو حجة الإسلام أو غيره، ومعنى ذلك أن الإسلام يهمه، ويدرك دور المشروع وماذا يمثل في الحياة.

(فإن كل من خير له أمران؛ أمر الدنيا وأمر الآخرة، فاختار أمر الآخرة على الدنيا، فذلك الذي يحب الله)، هناك من يستمر على التدين إذا كانت أُموره متيسرة، فإن عرض له أمران؛ أحدهما متعلق بالدنيا، والآخر متعلق بالآخرة، بنحو لا يستطيع التوفيق بينهما، سارع إلى الأمر الدنيوي وترك الأمر الأُخروي، فليعلم مثل هذا الإنسان أنه ليس ممن يقع في دائرة محبة الله جل جلاله؛ لأنه فضّل الدنيا على الآخرة عند التقاطع بينهما، وهنا يتبين الموقف الحقيقي لمثل هذا الإنسان، وأنه لا منزلة له عند الله عز وجل.

وهناك إنسان يستمر على التدين سواء كانت أُموره متيسرة أو لم تكن، وعندما يتعرض للاختبار الإلهي ويعرض له أمران؛ أحدهما متعلق بالدنيا والآخر متعلق بالآخرة، فإنه يفضّل الآخرة على الدنيا عند التقاطع، ويختار ما يرضي الله سبحانه وتعالى، فذلك الذي يحب الله تبارك وتعالى وتظهر عليه آثار الانتصار للمشروع الإلهي.

وقد ورد عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله تعالى (وهذا حديث قدسي): ما تقرب إليّ عبد بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه)، بامتثال الواجبات وترك المحرمات،

وهـذا أفضـل شـيء يتقـرب بـه الإنسـان إلـى الله تبـارك وتعالـى، (وإنـه يتقـرب إلـيّ بالنافلـة)، فالبعـض لا يكتفـي بفعـل الواجـب وتـرك الحـرام، بـل يأتـي بالمستحب، وهـو مـا لـم يلزمـه الله بـه ولا يعاقبـه عليـه إن تركـه، كصـلاة النافلـة والدعـاء والتوسـل، أو مطلـق ذكـر الله عـز وجـل، كمـا لـو كان عندنـا التـزام فـي حياتنـا اليوميـة بقـراءة صفحـة مـن القـرآن الكريـم فـي كل يـوم، أو نصلـي علـى محمـد وآل محمـد مائـة مـرة عندمـا نذهـب إلـى العمـل ونهديهـا إلـى صاحـب العصـر والزمـان عجـل الله فرجـه الشـريف.

(وإنـه ليتقـرب إلـيّ بالنافلـة ـ أي بالمستحبات ـ حتـى أحبـه، فـإذا أحببتـه كنـت سـمعه الـذي يسـمع بـه، وبصـره الـذي يبصـر بـه، ولسـانه الـذي ينطـق بـه، ويـده التـي يبطـش بهـا)[78]، إنّ الإنسـان عندمـا يحـب شـخصاً يعطيـه كل مـا يملـك وهـو سـعيد بهـذا العطـاء، وكذلـك الله تبـارك وتعالـى؛ عندمـا يحـب شـخصاً يعطيـه مـا لا يعطـي الآخريـن مـن قـوى وقـدرات وإمكانيـات، بـل يعطيـه كل مـا يريـد ويطلـب، بـل ويعطيـه فـوق ذلـك؛ بـأن يكـون منطقـه منطـق الله سـبحانه وتعالـى فـي البيـان والحكمـة، ويكـون مجـال سـمعه سـمع الله سبحانه وتعالـى؛ فـلا تحجـزه الجـدران وبعـد المسـافات عـن سـماع مـا يريـد سـماعه، ويكـون مـدى بصـره وقوتـه وثاقبيتـه مـدى بصـر الله تبـارك وتعالـى وقوتـه وثاقبيتـه التـي لا منتهـى لهـا، وتكـون يـده فـي البطـش والفتـك كيـد الله تبـارك وتعالـى فـي البطـش والفتـك الشـديد الـذي لا يقـف أمامـه شـيء، فتنسـحق أمـام إرادتـه كل قـوى الجبابـرة والطغـاة مهمـا بلغـت قـوة جيوشـهم وعظمـة سـلطانهم.

78. الكافي 2: 352ح7.

(24)

التقارن بين الحكمة والشجاعة

الانطباع السائد لدى البعض حينما نقول: إن تعامل الإنسان مع الآخرين يجب أن يكون بالحكمة، أنّ هذا يعني التردد، والوقوف على التل دائماً، ويعني عدم اتخاذ القرار، والحل لهذا الفهم الخاطئ هو تحديد معنى الحكمة، وأنها تعني الدراسة المستوفية للأُمور قبل اتخاذ القرار، وحينما يتعاطى الإنسان مع أي ظاهرة من الظواهر ويدرسها بحكمة ويستوضح جميع جوانبها، فإن ذلك يعطيه شجاعة في اتخاذ القرار المناسب؛ لأنّه يعرف أنه ليس متهوراً وليس منفعلاً في قراره، بل جاء هذا القرار والانطباع بعد دراسة مستفيضة ونظرة حكيمة.

إذن ما دامت الحكمة هي التي أوصلته إلى موقف ما، فإنّ هذا سيعطيه مزيداً من العزم والإقدام والشجاعة في اتخاذ القرار، فإنه حينما ينظر إلى الأُمور ويدقق في المسائل ويحسب لها حسابها، ويدرسها دراسة عميقة، فسوف يتكون لديه الرأي الذي يستوضح فيه المسألة بجميع حيثياتها وجوانبها، فيتخذ القرار المناسب، ويمنحه ذلك حالة العزيمة والإقدام، فالتريث والتبصر والتعمق والحكمة والعقلنة في النظر إلى الأُمور، ليست حاجزاً عن اتخاذ القرار، وليست حالة من التخاذل والتردد، بل هي مقدمة ضرورية لموقف شجاع، وإقدام وعزيمة بأعلى المستويات، هذا ما يجب علينا أن نميزه.

وهناك من يتمترس خلف شعارات الحكمة والدراسة، وهو في الحقيقة لا يريد أن يتخذ موقفاً، ولا يريد أن يحسم قضية، والواقع هو أنه لا يملك ما

يضيفه، ودراسته للموضوع من الجوانب كافة لا تمنحه الجرأة على اتخاذ القرار، فيتخندق خلف الدراسة والمراجعة والتدقيق والحكمة، في حين أن هذه المفاهيم تدعونا إلى الشجاعة والإقدام واتخاذ القرار.

وهذا المفهوم هو مصداق لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: (اعقلها وتوكل)[79]، فإن قوله: (اعقلها) يمثل مرحلة الدراسة والرؤية الحكيمة، وقوله: (وتوكل)، يمثل مرحلة اتخاذ القرار، وحينذاك عليك أن تمضي، وكما جاء في الرواية: (إذا هبتَ أمراً فقع فيه، فإنّ شدة توقيه أشدُّ من الوقوع فيه)[80]، أي أنّ ما تقع فيه من الضرر المترتب على حالة التردد واللاقرار والوقوف على التل، أكبر بكثير من نتائج الإقدام والشجاعة والمضي بعد دراسة الأُمور بشكل صحيح.

وتيار الحكمة هو تيار الاعتدال والوسطية والنظر إلى الأُمور بحكمة وواقعية ومراجعة، ولكن عليه أن يكون شجاعاً ومقداماً، وعليه أن يتسم بالعزيمة والإقدام، ليحقق الغرض المنشود، ويلبي طموحات الشعب الذي فتح عيونه على تيار الحكمة منذ اسابيع.

79. مشكاة الأنوار: 551.

80. عيون الحكم والمواعظ: 132.

(25)

المعايير الصحيحة في تقييم الناس

عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان حدثاً)[81].

تبيّن هذه الرواية مبدأ إسلامياً مهماً؛ وهو وضع المعايير الصحيحة في تقييم الناس، والتمييز بين البشر والمفاضلة بينهم.

يمثل العلم، والكفاءة، والمعرفة، معياراً أساسياً من معايير التفاضل، وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد هذا المعيار في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[82].

وكذلك يعتبر الإيمان معياراً من معايير التفاضل، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[83].

ويمثل الجهاد والتصدي وتحمّل المسؤولية تجاه الأُمة معياراً أساسياً أيضاً في التفاضل بين أبناء الأُمة، كما ورد التصريح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[84].

وتحتل التقوى موقعاً متميزاً أيضاً بين المعايير الأساسية للتفاضل بين

81. بحار الأنوار 1: 183 ح85.

82. الزمر: 9.

83. التوبة: 124.

84. النساء: 95.

النـاس، وقـد ورد التصريـح بذلـك فـي قولـه تعالـى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِنـدَ اللَّهِ أَتْقَاكُـمْ﴾[85].

وأمـا العمـر فـلا يعتبـر حـداً فاصـلاً وأساسـاً للتفاضـل بيـن النـاس، ولكـن العمـر يوجـد حالـة تراكميـة وفرصـة للاسـتزادة العلميـة، فعندمـا يتقـدم الإنسـان بالعمـر يكـون أكثـر معرفـة وعلمـاً، وهـذه ميـزة، ولكـن العمـر ليـس معيـاراً؛ لأنّـه ليـس مـلاكاً حقيقيـاً فـي التفاضـل، فـرب شـيخ فيـه جميـع هـذه الاعتبـارات والمعاييـر المذكـورة آنفـاً، مـع الخبـرة المتراكمـة، ورب حـدث وشـاب يمتلـك هـذه المعاييـر نتيجـة القـدرات والتصـدي ودوره فـي بنـاء هـذا المشـروع.

ولـذا علينـا دائمـاً اتخـاذ هـذه المعاييـر الواقعيـة الصحيحـة بوصلـة فـي تقييـم النـاس، فيكـون مـن يمتلـك هـذه المعاييـر كبيـراً، وكلمـا كانـت هـذه المعاييـر أعمـق فـي شـخصيته كان أكبـر، إذن علينـا أن نضـع هـذه المعادلـة، ونضـع اعتبـارات صحيحـة فـي اقتناصهـا والتعويـل عليهـا، وحينئـذ سـنخلق حافـزاً داخليـاً لنتنافـس علـى مرتبـة الأفضـل، وقـد حـث القـرآن الكريـم علـى مثـل هـذا التنافـس فـي قولـه تعالـى: ﴿فَاسْـتَبِقُواْ الْخَيْـرَاتِ﴾[86]، وقولـه تعالـى: ﴿وَفِـي ذَلِـكَ فَلْيَتَنَافَـسِ الْمُتَنَافِسُـونَ﴾[87].

علينـا أن نكـون الأتقـى والأكثـر إيمانـاً، والأكثـر جهـاداً وتصديـاً وشـعوراً بالمسـؤولية، وعندهـا يمكـن أن نزيـل الشـعور بالغبـن والتمييـز بيـن هـذا وذاك.

85. الحجرات: 13.

86. البقرة: 148.

87. المطففين: 26.

(26)

التوازن بين التوقعات والأداء

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : (عجبت لمن يرجو فضل مَنْ فوقه ، كيف لا يرحم مَنْ دونه)[88] .

تشير هذه الرواية الشريفة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى واحدة من القواعد المهمة في تنظيم السلوك الإنساني ، وهي أنّ ما تريده من الآخرين وما تتوقعه منهم ، من احترام وتقدير ووقفة في الشدائد ودعم وإسناد ورعاية ، يتوقف على ما تعمله تجاه الآخرين ومن أنت مسؤول عنهم ، لكي تتوقع ذلك من المسؤولين عنك ، وهذه حالة التراتبية .

غالباً ما يتوقع الإنسان الكثير من الآخرين ، ولكن السؤال الذي ينبغي أن نطرحه على أنفسنا : ماذا قدمنا للآخرين؟ فمثلاً إذا كنت تريد أن يساعدك أحدهم في تسديد دين معين ، فالسؤال هو : هل أسهمت في تسديد دين أحد؟ أو إذا كنت ترغب أن يعودك أحد في مرضك ، فهل عدت أحداً في مرضه؟ .

يكفي أن يضع الإنسان نفسه في موضع الآخر وهو يمارس هذه الأدوار ويقوم بهذه الأُمور تجاهه ، ثم ليتوقعها من الآخر ؛ لأنّه لا ينبغي أن أتوقع من الآخرين الاحترام وأنا لا أحترم ، ولا ينبغي أن أتوقع من الآخرين الشفقة والرحمة وأنا لا أشفق ولا أرحم ، ولا ينبغي أن أتوقع الدعم والاسناد وأنا لا أدعم ولا أسند أحداً .

88 . عيون الحكم والمواعظ : 330 .

وقد جاء في الروايات الشريفة ما يؤكد هذا المعنى، كقوله (عليه السلام): (ارحم تُرحم)[89]، وقوله (عليه السلام): (كما تدين تُدان)[90]، وهذه الروايات الشريفة كلها تشير إلى معنى التوازن بين التوقعات وأداء الإنسان وسلوكه، وعليه فإن ما نتوقعه من الآخر، علينا أن نبادر به تجاه الآخرين.

وورد في رواية أُخرى عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (ارحم مَنْ دونك يرحمْكَ مَنْ فوقك)[91]، أي كيفما تتعامل مع مَنْ دونك يتعامل الآخر معك، وكيف تتعامل مع والديك سيتعامل أولادك معك بالمثل، فإن كنت متواصلاً مع والديك وباراً بهما، فإنّ أولادك سيتواصلون معك ويبرونك عندما تضعف، وما تزرعه تحصده، إن خيراً فخير وأن شراً فشر، وهذه قاعدة عادلة وسنّة ثابتة جعلها الله تعالى في تنظيم سلوك البشر، وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يتعامل بالعدل مع مخلوقاته، بل يتعامل معهم بالإحسان، وقد ورد في القرآن الكريم تأكيدٌ لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[92]، فالحسنة والخير يُضاعفان عشرة أضعاف، والسيئة والشر تحصدهما بنفس مقدارهما، وهذا ميزان الله تبارك وتعالى في حسابه للبشر القائم على أساس الإحسان، وهو غير ميزان البشر في تعاملهم مع بعضهم، فكل شيء لنا أن نتوقعه من الآخرين إذا كنا قد أتينا بمثله معهم، وعلى هذا فكثير من قصور الآخرين تجاهنا هو في الحقيقة تقصير تجاههم، فعليك أن تكون فاعلاً مبادراً، وسترى كيف يرد الآخرون إليك الإحسان، وهذا درس مهم في حياتنا وسلوكنا، نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى أن نتعامل مع الآخرين بما نتوقعه منهم، وأن يتعاملوا به معنا.

89. بحار الأنوار 71: 100 ح48.

90. عيون الحكم والمواعظ: 396.

91. عيون الحكم والمواعظ: 77.

92. الأنعام: 161.

ورد في الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرئيل (عليه السلام) عن الله عز وجل في كلام له مع داود عليه وعلى نبينا وآله السلام: (يا داود، أبلغ أهل أرضي أني حبيب مَنْ أحبني، وجليس مَنْ جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني ـ أي أُجيب دعوته ـ ما أحبني أحد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلاّ قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي. من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني).

ومعنى أن نطلب الله سبحانه تعالى أي نطلب من الله، وذلك بأن نؤمن بأنه سبحانه وتعالى بيده كل شيء، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[93].

(فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها)، زينتها وشهواتها والطموحات غير المشروعة، (وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ومؤانستي)، إنّ الحاضر والمستقبل والطموح عند الله تبارك وتعالى، (وآنسوني اؤنسكم)، اللهم أذقني حلاوة عبادتك، هل نشعر بالأُنس في صلاتنا وعلاقتنا مع ربنا؟ (وأُسارع إلى محبتكم)[94]، وقد ذكرنا قوله تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، أي تعال وأقبل إليّ خطوة وسارع، أُقبل باتجاهك عشر خطوات.

تشير هذه الرواية الشريفة إلى قاعدة مهمة تتحكم بمجرى الحياة والتاريخ وحركة الإنسان، هي أنك سوف تلقى من الآخرين نفس المعاملة التي تتعامل بها معهم، ولا تتوقع أن يتعاملوا معك كما ترغب إن لم تكن إيجابياً معهم، وكذلك بالنسبة إلى المشروع الذي تتبناه؛ فإنّ ما تقدمه

93. الأنعام: 59.

94. بحار الأنوار 67: 26 ح28.

تجده وما تزرعه تحصده، وتلك سنّة الله سبحانه وتعالى في خلقه؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[95].

لا تندب حظك ولا تسئ للآخرين، وراجع نفسك وانظر كيف تعاملت معهم، والذي لا يقضي حوائج الآخرين لا يقضون حوائجه، ومن لا ينطق بالكلمة الطيبة كيف يتوقع أن يسمع منهم الكلمة الطيبة؟ فكيفما تتعامل مع الناس، فإنهم سيتعاملون معك بنفس الطريقة.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: (البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت، كما تدين تُدان)[96].

ومما ورد في القرآن الكريم في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[97]، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[98]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[99]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[100].

إذن يجب علينا أن نعفو ونصفح عن الآخرين ليعفوا ويصفحوا عنا، ونتسامح معهم ليتسامحوا معنا، ويجب أن لا نقف عند الخطأ العابر والكلمة العابرة، أما أن نتشدد مع الآخرين ونريد حقوقنا كاملة، ثم نريد أن يغفر الله لنا فهذا أمر لا يكون.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: (الرّاحمون يرحمهم الرحمن يوم

95. الزلزلة: 7ـ8.
96. المصنف: عبد الرزاق الصنعاني 11: 179.
97. البقرة: 40.
98. البقرة: 152.
99. محمد: 7.
100. النور: 22.

القيامة، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السّماء)[101]، إن كنت تريد الرحمة من السماء فأعطها لمن في الأرض، أما أن نأخذ ولا نعطي فهذا أمر غير ممكن.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[102]، فعليك أن تعمل بهذه القاعدة؛ وهي أن تتعاطى مع الآخر بنفس الطريقة التي تريد أن يعاملك بها.

101. بحار الأنوار 74: 167 ح4.

102. صحيح ابن حبان 2: 291 ح532.

(27)

أهمية المشورة

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: (مَنْ لَزِمَ الْمُشَاوَرَةَ لَمْ يَعْدِمْ عِنْدَ الصَّوَابِ مَادِحاً وَعِنْدَ الْخَطَأِ عَاذِراً)[103].

تشير هذه الرواية المباركة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى مفتاح آخر من مفاتيح التواصل؛ إذ تركز على أهمية المشورة بين الناس، فالإنسان عندما يستشير في كل الأحوال، فهذه الاستشارة ستكون لصالحه؛ فإن استشار ومن ثم اتخذ القرار على ضوء الاستشارة ومضى وحقق نجاحات مهمة، فسوف لا يرى الآخرون أنه انفرد في تحقيق هذا الانجاز، بل تحقق بفعل المشورة، وعندها سيمدحونه، فبعض الناس يضيق صدره بالإنجازات التي يحققها الآخرون؛ لأنهم يرون أن صاحب الإنجاز يحتكر الإنجاز والانتصار، ويريد أن يأخذ الوهج بمفرده ولا يشرك به إخوانه، فتبدأ حالة النقمة عليه، ولكن لو أن صاحب القرار شاور الآخرين، ثم حقق إنجازاً على ضوء تلك المشورة، فإنه سيجد المدح والثناء من الآخرين بدلاً من النقد والنقمة، وهكذا سيلقى المسؤول المدح والاطراء والتقدير عندما تنتج خطواته نتاجاً صحيحاً وتحقق إنجازاً معيناً، وسيجد عند الخطأ والاخفاق عذراً ممن استشاره، لأنّه استفرغ وسعه في طلب المشورة والنصيحة.

وقد ورد في القرآن الكريم الحث على المشورة في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[104]، ويقول المفسرون: إنّ هذه الآية الكريمة نزلت

103. عيون الحكم والمواعظ: 433.

104. آل عمران: 159.

في غزوة أُحد، فعندما استشار رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين في المسجد في كيفية مواجهة المشركين، كان هناك رأيان: رأي يقول: نتحصن في داخل المدينة ونواجه جيش المشركين، ولعل رسول الله صلى الله عليه وآله كان يميل إلى هذا الرأي، لمعرفة المسلمين بأزقة المدينة ومداخلها ومخارجها، ومن الممكن أن يكونوا الأقدر على استهدافهم والانقضاض عليهم وضربهم، ورأي آخر لأغلب المسلمين يقول: إنّ في المدينة نساءنا وأطفالنا، ولا نريد أن يتعرضوا للخطر، والرأي أن نهجم على العدو عند جبل أُحد، ووجد رسول الله صلى الله عليه وآله أن هذا رأي مساحة واسعة من المسلمين، فتخلى عن رأيه ومشى مع المسلمين في رأيهم، وخرجوا إلى أُحد وحدث الانكسار، فتولّد انطباع بأنه من المفترض أخذ رأي رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان من الممكن أن يكون الوضع مختلفاً، ولعله سيغلق باب المشورة بعد هذه المشورة غير الموفقة التي قدمها أغلب المسلمين.

في هذه الأجواء نزلت هذه الآية: (وشاورهم في الأمر)، وهذا يدل على أهمية المشاورة حتى لو أنتجت نتائج خاطئة في أمر ما؛ لأنّ المشاورة يشترك فيها الجميع ويمضون في الأُمور بعد بلورة الموقف عن طريق المشورة، وكيفية الاستشارة هي أن يأخذ مسؤول الفريق المشورة من فريقة، وبعد أن يأخذ الآراء يرجح كفة رأي منها، لأنّه غالباً لا يجتمع الناس على رأي واحد، وهنا يأتي الحسم بأخذ الرأي الأصلح والأرجح، وبعدها تأتي مرحلة الحزم.

إذن، فالمطلوب هو مرونة في لحظة الاستشارة، ثم حزم وحسم وقرار، ثم المضي بلا تردد في التنفيذ، لأنّ التنفيذ لا يتحمل تعدد الآراء والاجتهادات، بل يتطلب وحدة في الموقف، فعندما نختار الطريق نترك الأمر لمن يقود، من دون التدخل في ما سينفذه، ويجب إعطاء الفرصة لمن يقود بأن ينفذ بحزم وحسم ووضوح، فالأمر لا يتحمل مواقف متعددة، وصحيح أنّ الرأي كان جمعياً في تشخيص الموقف، ولكن تنفيذ الرأي بحاجة إلى إرادة واحدة وقرار واحد.

لاحظوا أهمية المشورة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[105]، ومنها يتضح أنّ موقع الاستشارة في الفهم القرآني يضاهي الإيمان والصلاة والإنفاق؛ إذ أتت المشورة هنا في سياق هذه المفردات التشريعية المهمة.

وكذلك رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في أهمية المشورة، أنه قال: (ما شقي عبد قط بمشورة، ولا سعد باستغناء رأي)[106].

ينبغي أولاً الالتفات إلى أنّ الاستشارة يجب أن تطلب من أهلها، وأن يستشار من هو أهل للاستشارة، ولا يمكن لأحد أن يسعد بالاعتماد على رأيه والتركيز على قناعاته الشخصية وتجاهل آراء الآخرين، فالإنسان وحده يمكن أن يحسن الموقف في مرتين أو ثلاث، ولكنه بطبيعة الحال لا يكون ملماً بجميع الحيثيات، ومن كانت لديه رجاحة عقل ويتخذ قرارات صحيحة، وتصبح لديه قناعة بنفسه وتسيطر عليه حال النرجسية، فهذه الحالة سوف تجعله لا يرى الاشكاليات والتفاصيل.

وجاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في خطورة ترك الاستشارة قوله: (من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركهم في عقولهم)[107]، فحالة الاستبداد بالرأي وترك مشاورة الآخرين هلاك، فكل إنسان لديه عقل وتجارب، وتتفاوت عقول الناس بحسب سعة عقولهم واختلاف تجاربهم، فنحن هنا مثلاً مئة شخص، ولدينا مئة عقل، وعندما نجمع الآراء والمقترحات فسوف تنضج المواقف بشكل كبير جداً.

وفي الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الحياة الكريمة تكمن في الشورى: (إذا كان أُمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاكم، وأمركم شورى بينكم؛ فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أُمراؤكم شراركم،

105. الشورى: 38.

106. نهج السعادة 7: 274.

107. نهج البلاغة 4: 41 الحكمة 161.

وأغنياؤكم بخلاءكم، ولم يكن أمركم شورى بينكم؛ فبطن الأرض خير لكم من ظهرها)[108]، يستعرض هذا الحديث الشريف أركان الحياة الكريمة لأي أُمة من الأُمم، وهي المسؤول الكفوء والعطاء المالي والتضامن الاجتماعي، فإذا حصل ذلك فظهر الأرض خير لهم من بطنها، وإن كان العكس فالموت خير لهم من الحياة.

ورُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) كلامٌ في بيان خصال من يستشار، قال: (ولا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ويَعِدُكَ الْفَقْرَ، ولا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، ولا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ؛ فَإِنَّ الْبُخْلَ والْجُبْنَ والْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ)[109]، يذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الرواية الشريفة ثلاث خصال ينبغي أن يتنزه عنها المستشار وهي: البخل والجبن والحرص، فالبخيل يمنعك من إعطاء الزيادة والإحسان إلى من هو محتاج إلى الإحسان بأكثر مما يستحق، ويعدك بأن الفقر هو مصيرك لو تماديت بفعل الخيرات، فلا يدعك تعمل أو تتحرك أو تنفق في أي مشروع خيري، لأنّ حسابات البخيل دنيوية بحتة ولا يؤمن بما وعد الله تبارك وتعالى بالزيادة لمن أنفق من ماله في سبيل الله، والبخيل يستجيب للشيطان الذي يحذر أولياءه من النقص والإفلاس لو أنفقوا من أموالهم من غير مقابل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[110].

وينهى أمير المؤمنين (عليه السلام) أيضاً عن استشارة الجبان؛ لأنّه يثبطك ويخوفك ولا يجعلك تتحرك؛ لأنّ الإقدام على إنجاز كل عمل يحتاج إلى قدر ما من الشجاعة، وكلُّ عمل بحسبه، والجبان بطبيعته يخشى من الانتقادات التي ستواجه العمل، ولذا ينصح من يستشيره بعدم الإقدام على

108. بحار الأنوار 74: 139 ح14.

109. نهج البلاغة 3: 87 كتاب 53.

110. البقرة: 268.

كل ما يمكن أن يسبب أي خطر محتمل، ولو كان على مستوى الإثارات الإعلامية التي يتصيدها الأعداء ليثيروا زوبعة من الانتقادات، مع أنّ الشجرة المثمرة هي التي ترمى بالحجارة، ولا أحد يلتفت الى الشجرة غير المثمرة، وكل من يقوم بخطوة صحيحة، فمن المؤكد أنه سيواجه معارضة وأُناساً تشتم وتحاول إثارة الضبابية حول تلك الخطوة الإصلاحية لتحجيمها وإفشالها، والجبان بطبيعته يبعد نفسه ومن يستنصحه عن الخطوات الصحيحة التي تستلزم بعض الشجاعة والإقدام.

وينهى أمير المؤمنين (عليه السلام) أيضاً عن استشارة الحريص؛ لأنّه يوقعك في المطبات، ويدفعك إلى الواجهة ويورطك، لكي يحصل على شيء بهذا الرهان والمجازفة والإقدام، فهناك من يريد موقفاً، وهناك من يدفع الى تصعيد المواقف من أجل أن يحصل على موقع، فيزج الجماعة في الواجهة والمطبات والمهالك حرصاً على الحصول على الموقع والمكان والامتيازات، والحريص من أصحاب الطموحات غير المشروعة وأصحاب الغايات غير النبيلة والنزعات الشخصية، وأُناس كهذا لا يعطون المشورة الصحيحة.

وقد ورد عن مهمة المستشار ومسؤولية المستشير والمستشار حديث عن الإمام السجاد صلوات الله وسلامه عليه يقول فيه: (وحق المستشير إن علمت له رأيا أشرت عليه، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم، وحق المشير عليك أن لا تتهمه في ما لا يوافقك من رأيه)[111].

يبيّن الإمام السجاد (عليه السلام) في رسالة الحقوق مجموعة من الحقوق الاجتماعية المتبادلة بين أفراد المجتمع، ومنها حق من يستشيرك، وهو أن تعطيه الرأي الحقيقي والنصيحة الواقعية التي تؤمن بصحتها، وتلتزم بها لو كان الأمر متعلقاً بك، بعيداً عن المجاملة، ومن غير أن تحسب حساباً لعدم تقبله أو إثارة انزعاجه، وبينك وبين ربك تعطيه رأيك في القضية المعروضة

111. بحار الأنوار71: 8 ح1.

عليك، ويجب عليك أن تكون ناصحاً بحيث تقول رأيك حتى إذا كنت تعلم أنه لا يقبله، وتتكلم بما تعتقد بصحته.

ويبيّن الإمام (عليه السلام) حق المستشار أيضاً، وهو أن لا تتهمه عندما يقدم مشورته لك على خلاف اطلاعاتك وتقديراتك، ولا تشكك به لأنّ ذلك سيجعل المشير يخاف من تقديم المشورة خوفاً من اتهامه بالخيانة فيلزم الصمت، وحذارِ أن توجد بيننا أجواء تجعل من يُستشار يحجم عن تقديم المشورة، ومن له وجهة نظر ـ إذا كانت خلاف رأي الجميع ـ لا يجرؤ على طرحها حذراً من أن يُتهم، فحق المستشار على المستشير أن لا يتهمه، وأن لا يسلب منه حرية التعبير، وإلاّ لماذا تستشيره؟ هل تفعل ذلك ليقال إنّ فلاناً لا يستبد برأيه؟ فإن كنت تريد أن تستمع الى رأي من تستشيره، فلماذا تقمع رأيه وتخوّنه؟ فهذه ليست استشارة، بل هي ضحك على الذقون ولعب بالمشاعر.

هذه هي الملامح العامة للمشورة في التراث القرآني، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يستشير ويأخذ بالرأي الراجح من أهله ويعمل به.

(28)

صيانة الإيمان من الشك

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : (صُنْ إيمانك من الشك ، فإنّ الشك يفسد الإيمان كما يفسد الملح العسل)[112] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى واحد من مفاتيح النجاح ، وهو أنّ حالة الإيمان واليقين والوضوح والبصيرة تساعد الإنسان على تشخيص الموقف الصحيح ، وإذا كان الإنسان متشرعاً فحالة الإيمان تساعده على تشخيص الموقف الشرعي الصحيح ، وإذا كان الإنسان صاحب مبادئ وطنية فالوضوح في قضية ما يدفعه في طريق ذلك المبدأ ، وللوضوح دوماً دور أساس يدعم الإنسان ويساعده على الإقدام والثبات والإصرار في تحقيق الأهداف المنشودة .

وفي أوضاعنا ـ ونحن في وسط متدين ـ يحتم علينا الموقف الشرعي أن نقدم كل ما لدينا من الغالي والنفيس من أجل تحقيق الأهداف الشرعية ، ويمنح الإيمان والوضوح وحالة الانكشاف الكامل للحقيقة والتعرف على الحق والبصيرة ـ التي تعطي الإنسان الوضوح الكامل لما عليه أن يقوم به ـ الثبات والإصرار والإقدام في مسيرته ، وحينئذ لا يمكن حتى للجبال أن تقف أمامه ، والموقف الشرعي يتطلب من الإنسان أن يقوم بهذا الفعل أو يتجنب فعلا آخر ، ويلتزم بهذا الموقف ويبتعد عن ذلك الموقف .

وفي قبال ذلك حالة الشك والغموض التي تنتاب الإنسان أحياناً ، وذلك

112. عيون الحكم والمواعظ : 301 .

حينما تلتبس الحقيقة عليه وتضيع البوصلة فيخطئ الاتجاه، وهذه أخطر حالة يواجهها الإنسان، وعندها لا يعرف ماذا يفعل، وخصوصية الفتنة هي حصول حالة من الالتباس، فيختلط الحق بالباطل ويصعب عليه التمييز بينهما، وإذا ظهرت الفتن فعلى العالم أن يظهر علمه؛ ففي الفتنة تسود حالة من الشك والريبة ويضيع الموقف الصحيح وتلتبس الحقيقة، وهذه الحالة تمنع الإنسان من الإقدام عندما لا يعرف ما هو الصحيح وما هو الموقف المطلوب، ولذلك فالرؤية التي تساعد على تحقيق الوضوح تجعل الإنسان مؤمناً بقضية، والإيمان يجعل الإنسان ثابتاً على القضية، مصرّاً على تحقيق الغايات، وهذه هي التراتبية.

مهما امتلك للإنسان من قدرة على العمل الميداني، ولكنه إذا لم يمتلك الرؤية فسوف ترتبك البوصلة ولا يعرف ماذا يفعل، ويستمع الى أقوال مختلفة ولا يعرف أين الحق وما هو الموقف المطلوب، لذلك فإنّ الإيمان هو البعد الحقيقي والوضوح الكامل في الارتباط بالله تبارك وتعالى والتمسك به، وهو حصانة كبيرة للإنسان من الوقوع في الزلات والاستدراج إلى الهوى والميول والشهوات، وكذلك في الأبعاد الاجتماعية والسياسية، يعتبر الإيمان مشروعاً أيضاً، إذن فوجود الرؤية لدى الإنسان يساعده على وضع خطة عمل وسياسات واضحة من أجل تنفيذها، ومن الممكن أن يجد فريقاً يساعده على تحقيق الهدف، ولذلك فالوصول إلى الرؤية الواضحة يمثل بوصلة يرجع لها الإنسان لتشخيص الاتجاهات المطلوبة، ويقي من الفتن والالتباسات، ففي الفتن كلٌ يدعي الحق والتزامه به والانتصار له، وكلٌ يفسر الحق بطريقته الخاصة، وهو أمرٌ يفضي إلى حالة من الغموض والالتباس.

(29)

الخطوة الصحيحة في الأجواء المضادة

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : (تعلموا العلم وإن لم تنالوا به حظاً ، فإن يذم الزمان لكم أحسن من أن يذم بكم)[113] .

تشير هذه الرواية الشريفة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ، إلى مفتاح آخر من مفاتيح التأثير والتألق والتكامل في حركة الإنسان ، وهي أنّ على الإنسان أن يبحث عن الكمال وما يحقق له العلو والتكامل لنفسه ، وأن يختار المعايير الصحيحة والأُطر المشروعة الصحيحة ويمضي في مشروعه ، وأما ما هو تأثيره ، ومن يسمع له والناس في عالم آخر ، والجو العام في اتجاه مختلف ، فهذا يجب أن لا يمنع الإنسان من السير بالاتجاه الصحيح ، والعلم في بعض الأماكن يعطى مكانته واحترامه ، فيُحترم العالم ويُعطى التقدير المطلوب ، وفي مكان آخر لا يحترم العلم ، بل يحترم المال والوجاهات والمناصب والمواقع ، فإذا كان العالم لا يُحترم والعلم لا يُقدر في مكانٍ ما ، لأنّه لا يأتي بحظوة وامتيازات ووجاهات ، فإنّ هذا لا ينقص من قيمة العلم شيئاً ؛ لأنّ عدم معرفة قيمة الماس والذهب لا يخرجهما عن قيمتهما الحقيقية ، وكذلك فإنّ للعلم منقبة ومنزلة عند الله سبحانه وتعالى حتى لو لم يقدره البعض .

علينا المضي في المشروع الصحيح وإن جهله الآخرون أو أنكروا منزلته ، لأنّ عدم معرفة الآخرين لقيمته لا يجعله خطأ ، فالصحيح صحيح وإن لم يعرفه الآخرون ، والحق حق حتى لو لم يتفاعل معه الآخرون ، وهذه قيمة

113. عيون الحكم والمواعظ : 213 .

معنوية واقعية يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار، ولو ذم زمان لا يقدر فيه العالم والصالح والمشاريع البناءة، فهو ذم لصالح العلماء والصالحين وأصحاب المشاريع البناءة، وهذا هو معنى قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (أن يُذم الزمان لكم أفضل من أن يُذم بكم)، أي أُفٍّ لزمان لا يُقدَّم فيه الصالحون والنزهاء والشرفاء ولا يُهتَم بهم، وينبغي أن لا يثني هذا الإهمال العلماء والصالحين عن المضي قدماً في الاتجاه الصحيح، ولهذا يجب علينا أن نخطو الخطوة الصحيحة ونبدأ بإصلاح أنفسنا وجماعتنا، بالرغم من أننا لا نستطيع إصلاح كل شيء، وعلينا تقديم المصداقية في العمل والرؤية والفهم الصحيح إن قدّر وإن لم يُقدّر، فإن مَنْ لم يُقدرنا اليوم سيعرف قيمتنا في ما بعد، وسيأتي الوقت الذي يتبين فيه الحق، فالمهم أنّ ما نقوم به هو الصحيح، والخطوة الصحيحة لا يندم عليها الإنسان، وهي مؤثرة، وإذا اتفق الجميع على أنّ عملنا لا يؤثر، فمن الذي سيبدأ بالإصلاح؟!.

إذن، ينبغي العمل على الإصلاح في المساحات الممكنة، واتخاذ الخطوات الصحيحة وإن لم تُفهم في وقتها، فسيأتي يوم تتكشف فيه الحقائق، فيُلام الزمان لكم ولا يلام بكم.

(30)

رؤية الإسلام في الوجاهة الاجتماعية

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : (السيد من تحمل أثقال إخوانه ، وأحسن مجاورة جيرانه)[114] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى معايير التفاضل في الرؤية الإسلامية ، فالتفاضل في الرؤية المادية يقوم على أساس المال والاستعلاء لمن يمتلك المال والجاه والإمكانات المادية ومواقع السلطة والنفوذ ، فهذا من أصحاب الفخامة والسيادة والسعادة ، وراتبه أكبر وموقعه الإداري أرفع ، وأما معيار التفاضل في المنطق الإسلامي فهو يستند الى حمل ثقل الإخوان ، فالسيد هو الذي يتحمل أثقال إخوانه في الخدمة والتواضع وخفض الجناح لهم ، فحينما يكون الإنسان خدوماً يكون سيداً لقومه ، وكلما كان أكثر تواضعاً كان أعلى شأناً ، كما ورد ذلك في دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) : (اللهم لا ترفعني في الناس درجة إلاّ حططتني عند نفسي بقدرها)[115] ، وهذه هي المعادلة بين التواضع وارتفاع القدر ؛ فكلما كان الإنسان أعلى اجتماعياً ، فيجب أن يكون أكثر خفضاً للجناح ، وحينئذ يستطيع أن يحمل أثقال إخوانه .

وقد بحثنا موضوع التعامل والسلوك في محضراتنا الرمضانية في السنة الماضية ، واستعرضنا مجموعة من النصوص المتعلقة بالموضوع ، ونلاحظ أنه عندما انطلقت الرسالة الإسلامية كان الناس يسألون رسول الله(صلى الله عليه وآله) : ما هو الإسلام؟ وما هي الرسالة التي أتيت بها؟ وكانت الأجوبة التي

114. عيون الحكم والمواعظ : 60 .

115. الصحيفة السجادية : 110 دعاء مكارم الأخلاق .

قدمها رسول الله(صلى الله عليه وآله) في تفسير وتوضيح الإسلام لا تتطرق كثيراً إلى الأبعاد العقائدية والفكرية؛ إلاّ في قضية التوحيد، إذ كان يقول لهم: (قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا)، وإن الإسلام هو القبول بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وأما ما سوى ذلك، فكانت دعوته المباركة تركز على التكامل الأخلاقي للإنسان، كصدق الحديث وأداء الأمانة وقضاء حوائج الناس، وكلها ذات بُعد سلوكي واجتماعي، وهذا هو جوهر الإسلام، كما ورد صريحاً في قول رسول الله(صلى الله عليه وآله): (إنما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق)[116]، فجوهر الإسلام هو التواصل مع الآخرين والثقة بهم والتواضع وخفض الجناح لهم وخدمة الناس.

وفي هذه الرواية تأكيد على هذا المبدأ الإسلامي الأصيل؛ فأكبرنا شأناً هو أكثرنا خدمة وتحملاً للهموم والمسؤوليات، وأكثرنا شأناً أفضلنا في التواصل مع الآخرين ومع الجيران، سواء جيران البيت أو جيران العمل، أو جيران المشروع، أي القرب ممن هو قريب منا في مؤسسة أو في تيار أو في مبدأ وعقيدة أو في واقع جغرافي معيّن، فالقريب هو الذي يحتك بك ويرى منك حسن التعامل وحسن الأداء والانضباط والالتزام.

وكما ورد في الرواية الشريفة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) في وصيته لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (المؤمن كثير المعونة قليل المؤونة)[117]، لا يثقل على أحد، ويقدم للآخرين الكثير، وهذا التوازن والمنطق في غاية الأهمية، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا كذلك.

ونحن نتكلم عن دولة عصرية عادلة، نسأل أنفسنا: هل لدينا تيار مؤسسي يسير بعدالة وعلاقات متوازنة؟ وهل لدينا مؤسسات متطورة وعصرية تعمل على أساس العدل والإنصاف والمعايير الصحيحة؟ وعندما نتكلم عن إدارة البلد بفريق منسجم ورؤية واضحة، هل لدينا أدوات لإدارة تيارنا بفريق منسجم ورؤية واضحة؟ وهل لدينا إدارة لمؤسساتنا بفريق

116. بحار الأنوار 68: 282.

117. بحار الأنوار 64: 311 ح45.

منسجم ورؤية واضحة؟ وهل نقدر على أن نعمل بروح الفريق ونحقق الانسجام مع الآخرين؟.

هذه هي التحديات الحقيقية التي تقف أمامنا، وإذا أردنا أن نتجاوزها ونعطي صورة مثالية لإدارة البلد، فينبغي أن نطبق هذه المفاهيم في تجربتنا وساحتنا المحدودة، فإن لم نستطع فعل ذلك، فسنكون أُناسا نطرح أحاديث ونظريات بعيدة عن الواقع وغير قابلة للتطبيق، ولذلك علينا أن نكون أول من يطبق هذه الأفكار في مساحاتنا وفي المجاميع التي نتحمل مسؤولية إدارتها مهما كانت سعتها، فهناك فريق يتألف من خمسة أو عشرة أو خمسين، فهل نستطيع أن نجعل منهم فريقاً منسجماً؟ فإذا فعلنا ذلك فسوف نستطيع عندها أن ننقل هذا النجاح إلى مساحة أوسع.

(31)

مقومات التوازن في الشخصية الإنسانية

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال : (لا شيء أحسن من عقل مع علم ، وعلم مع حلم ، وحلم مع قدرة)[118] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى مفتاح آخر من مفاتيح التواصل والتصدي للشؤون السياسية والاجتماعية ، بل لتحقيق حالة التكامل الإنساني ، عنوانها التوازن في الشخصية الإنسانية ، فالإنسان يجب أن يحصل على حالة التوازن لكي يستطيع أن يؤدي مهامه بشكل صحيح .

إن العقل والقدرة على التحليل والاستنتاج الصحيح ، هما الركيزة الأساسية في الشخصية المتوازنة ، والتحليل يُبنى دائماً على العلم والمعطيات ، فالعقل بلا علم ولا معطيات صحيحة قد يوصل إلى استنتاجات خاطئة ، فلا يكفي بُعد النظر والقدرة التحليلية ، بل نحتاج إلى العلم والمعرفة والمعطيات والمعلومات ، فالمعلومة الصحيحة والقدرة التحليلية تمكنان الإنسان من أن يحدد البوصلة .

العلم هو السعة والوضوح وتسليط الضوء على التناقضات والصراعات والأخطاء والطموحات غير المشروعة والسلوك غير المستقيم ، فإذا حصل الإنسان على العلم ، فلابد من أن يكون حليماً ولديه سعة صدر ليستوعب هذه التناقضات ، ولا ينفعل ولا تكون لديه ردود أفعال غير منضبطة تجاه التفاعلات .

---

118 . غرر الحكم : 6869 ، 3205 . 8601 ، 10919 .

فالعلم بلا حلم قد يدفع بالإنسان إلى الهاوية، والعلم بلا قدرة على ضبط السلوك يؤدي بالإنسان إلى منزلقات خطيرة، ولذا يجب أن تجتمع القدرة مع الحلم وسعة الصدر والانضباط، فقيمة الحلم إنما تكون مع القدرة، أي عندما يكون قادراً على الايذاء والمشاغبة والنيل من الآخر والانتقام والتشفي، ولكنه يحلم ويستوعب ويتعامل بحلم مع الظواهر والأخطاء والإساءات التي تحصل من الآخرين.

إن هذه الرواية تشير إلى هذه الحالة من التكامل والتوازن في الشخصية الإنسانية، وهي العقل مع العلم، والعلم مع الحلم، والحلم مع القدرة، فتتكامل هذه الحلقات مع بعضها لتجعل من الإنسان إنساناً متكاملاً قادراً على الفعل، يمتلك الأدوات، ويمتلك الرؤية والتحليل الصحيح، ويشخص المسارات، ويضبط السلوك، ويتعاطى بانضباط في قراراته ومساراته العامة، بالرغم من علمه بالكثير من التفاصيل والخروقات والإشكاليات التي تحصل لدى الآخرين، ومع قدرته على الرد، ولكنه حليم يتعامل بحلم ويتجاوز، ويوظف جميع الإمكانات في خدمة الهدف في هذه الحياة.

ومتى ما حصلنا على العقل، فعلينا أن نبحث عن العلم، وعندما نجد العلم فلابد من تنمية الحلم، والحلم مع القدرة على الفعل يمثلان المنقبة لدى الإنسان، والعنصر الكبير في توازن شخصيته.

الفصل الثاني

دروس رسالية

الدرس الأول

الكريم والمسؤولية

قال أمير المؤمنين(عليه السلام): (الكريم يرى مكارم أفعاله ديناً عليه يقضيه)[119].

تشير هذه الرواية الشريفة إلى طبيعة المسؤولية التي يتحملها الإنسان عندما يتصف بالكرامة ولا يفرط بأي فرصة أو مجال للخدمة، وإذا ما ضاعت الفرصة لسبب أو لآخر يعتبرها دينا واجب التعويض، ولا يبحث عنها لنفسه، ويستثمر كل فرصة ويبذل المزيد من الطاقات في تحقيق ما ضاع عليه من فرص في زمن ما، فكل مرحلة يتعلم فيها الإنسان شيئا جديدا، فالإنسان الكريم لا يفتح صفحة جديدة ويتناسى الماضي، بل يعمل بأثر رجعي، وتأريخه سيّال أمامه، ويستطيع اقتناص الفكرة الجديدة من الماضي.

ونحن كتجمع فيه الكثير من الآفاق والفرص والطاقات، ولكنه انفتاحي في مسيرته، وكلما زاد انسجامنا أزحنا وقللنا من ثغرات العمل، ودائماً يجب أن ننظر إلى ما قطعنا من أشواط في مسيرتنا السابقة لنعيد تقييم ما مضى.

ويجب أن يكون الحافز لأعمالنا هو ما تقتضيه صفة الكريم من اعتبار ما يأتي به من أعمال صالحة للآخرين، قضاء لما في ذمته من دين للمجتمع

119. عيون الحكم والمواعظ: 20.

ازاء ما قدمه له من خدمات لا حصر لها ، وإن توفرنا على مثل هذا الشعور فانه يسد الطريق أمام أي شعور بالمنة والتفضل والتكرم التي تنطوي عليها نفس اللئيم عندما يقوم بتأدية خدمة للآخرين تقتضيها مصالحه الآنية ، وهنالك بون شاسع بين أفعال الكريم التي تنطلق من منطلق الوفاء بالدين ، وأفعال اللئيم التي يعتبرها ديناً في ذمة الآخرين يجب عليهم الوفاء بها .

الدرس الثاني

الجد والمثابرة

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (لن يقام الدين وتصلح الدنيا إلا بالجد)[120] .

تشير الرواية الشريفة إلى حقيقة مهمة ، تُعدّ أحد مفاتيح نجاح العمل ، وهي الجد والمثابرة والإصرار والمتابعة ، التي بها يحصل الإنسان على غاياته ، سواء كانت دنيوية أو أُخروية ؛ فمن أراد الدنيا فعليه أن يبذل جهداً من أجلها ، ومن أراد الآخرة فعليه بناء الدنيا للآخرة ، ولا استثناء من هذه القاعدة الكلية ، ولا يمكن أن يحصل الإنسان على شيء من أمر الدنيا أو الآخرة بالنيات الطيبة وكونه على حق ، فهذا كله لا يكفي ، بل لابد من الجد والمثابرة ، وحينئذ يأتي التوفيق الإلهي والعناية الإلهية والعطف الإلهي ، ويجب أن نكون جادين ، ونستنفر جميع الإمكانات والطاقات ، ولا تصبح جهودنا جهوداً موسمية ، بل ينبغي دائماً أن نعمل بجدية تامة .

وما أوصل الكسل في يوم من الأيام أحداً إلى خير في أمر دينه أو دنياه ، وهو يمنع الإنسان ما قسمه الله تعالى له من نصيب في الدنيا والآخرة على حد سواء ، فإن من يريد الدنيا لا يحصل عليها إلا بالمثابرة والجد ، وكذلك الآخرة . فقد ورد عن الإمام الكاظم(عليه السلام) قوله لبعض ولده : (إياك والكسل والضجر ، فإنهما يمنعانك حظك في الدنيا والآخرة)[121] .

وكما أن الجد والمثابرة مفتاح الصلاح في أمر الدين والإصلاح في أمر

120. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي 20 : 265 .

121. الكافي 5 : 85 ، ح 2 .

الدنيا، فكذلك الكسل والضجر هما مفتاح الفساد في أمر الدين والإفساد في أمر الدنيا، وقد ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) قوله: (إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل سوء، إنه من كسل لم يؤد حقاً، ومن ضجر لم يصبر على حق)[122].

ولهذا تكرر الخطاب الإلهي للإنسان بالدعوة للعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[123].

لذلك نوصي أنفسنا والاخوة في تجمع الأمل بألاّ تكون هناك حالة برود أو ركود، وأن أي نجاح ينبغي أن يكون حافزاً لتحقيق نجاح أكبر منه، لذلك علينا أن نسعى لتحقيق انجازات أكبر.

إن من الأهداف الأساسية لحركة الإسلام هو إقامة الدين وإصلاح الدنيا، وهما لا يتحققان إلاّ بالاجتهاد والجد المتواصل من جماعة المؤمنين المخلصين؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[124].

فليكن شعارنا أيها الإخوة والأخوات هو العمل المخلص الدؤوب لإقامة الدين من خلال تطبيق أحكام الإسلام، واصلاح بلدنا العزيز وإنقاذه من التخلف والفوضى والفساد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

122. وسائل الشيعة 17 : 58 ، باب 19 من كتاب التجارة ، ح 3.

123. النحل : 97.

124. الحج : 41.

الدرس الثالث

حدود المخالطة

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) :(خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ .)[125] .

من دلالات هذا الحديث الشريف أنه يدعو الإنسان ألا يكون فظاً غليظاً ، سواء مع عائلته أو مع زملائه في العمل ، وخصوصاً إذا كلف بمسؤولية خاصة ، فإن الناس تنظر للمدير أو القائد كقدوة وتسجل نقاط قوته وضعفه .

ومن مدلولاته أيضاً الدعوة إلى ترك الأنا والتعامل بتواضع ومصداقية ، وهنا نشير إلى قول السيد مهدي الحكيم (قدس سره) : نحن ترابيون كعلي(عليه السلام) ، ولكن في نفس الوقت نحن ملوك كعلي(عليه السلام) . إذن كلما كان الإنسان متواضعاً بدرجة كبيرة يكون ملكاً .

ويدل أيضاً على مراجعة النفس ، حيث إن مراجعة النفس ضرورة ، ومنها أخطاؤنا اليومية ، وهنا تكون العلاقة من القلب إلى القلب . وإذا فعلنا هذا بيننا نحن أعضاء هيئة القيادة المركزية ، وتعاملنا بنفس الطريقة مع امتداداتنا وموظفينا فإن الناس سيأتون إلينا طواعية .

وقد ورد عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أيضاً قوله : (إنما البصير من سمع ففكر ، وبصّر فأبصر ، وانتفع بالعبر)[126] .

تشير هذه الحكمة المروية عن أمير المؤمنين(عليه السلام) ، إلى واحدة من

125. نهج البلاغة 4 : 4 ، ح 10 .

126. عيون الحكم والمواعظ : 171 .

الحكم المهمة في كيفية التعاطي مع واقع الحياة، وهي ألا يكون الإنسان سطحياً، وألا يقف على الشكليات، ويجب أن يقف على الأُمور بواقعية، وأن يتريث، وأن يدقق ويحلل الظواهر ليكتشف عمقها ويقرأ خلفيتها ودوافعها، أي يجب أن يقرأ ما بين السطور ليقف على حقيقة الموضوع بهذه الأُمور.

ويمكن أن نحدد الفرق بين البصر والبصيرة، حيث إن الصورة الفوتوغرافية تعبر عن جزء من الحقيقة وهو الشكل الظاهر، وهي لا تصلح لتشخيص الداء، ولتشخيص الداء يجب أن تكون هناك أشعة، وأحياناً لا تكفي هذه الأشعة. وحتى مسألة الاستفادة من العبر، فالقصص دائماً كما هي، ولكن الأسماء تتغير والجوهر باق دائماً، الذي هو الحق والباطل، نوازع الخير ونوازع الشر، ولكن المهم أن نعرف قواعد اللعبة لكي نستطيع الفوز ونعرف كيف نشخص الأُمور بصورة صحيحة.

الدرس الرابع

اكتساب الاخوان

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم)[127] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى أن الفاعلية في الشخصية الإنسانية تكمن في الانفتاح على الآخر ، والقدرة على كسب الآخرين ، وكيفية إقناع الآخر بفكرته وضمه إلى جانبه ، وأن من لم يستطع ذلك فهو عاجز ، واعجز منه من يضيع من جذبه وكان مؤمناً بفكرته .

إننا أمام أمرين مهمين للعمل الجماهيري ، الأول : زيادة أعداد الاصدقاء واتخاذ أصدقاء جدد بشكل مستمر وعدم الاقتصار على الأصدقاء القدامى ، والأمر الآخر هو المحافظة على من نحصل عليه من الأصدقاء ، وهو أسهل من الأمر الأول ، فإن من عجز عن المحافظة على أصدقائه فهو أعجز عن كسب الأصدقاء .

والمحافظة على الأصدقاء يتم من خلال التزاور والتفقد والاحترام ، والسعي في حوائجهم ، وحسن الخلق معهم ، وحسن البشر في وجوههم ، والعفو عن أخطائهم ، وكظم الغيظ عن سوء تصرفاتهم ، والحلم عند جهلهم ، والتواضع لهم ، ومداراتهم ، والرفق بهم .

وأما كسب الأصدقاء فيتم من خلال اللقاء المتكرر معهم في أماكن العمل أو الدراسة أو المجالس أو المنتديات وأمثالها ، أو التعرف على أصدقاء

127 . نهج البلاغة 4 : 4 ، ح 12 .

جدد بواسطة صديق قديم، ثم التواصل معهم باستمرار إلى أن تتوثق العلاقة مع مرور الزمن، أو الاستفادة من الوسائل الجديدة في التعارف من خلال المجلات والفيس بوك وغيرها.

والرسالي الهادف هو من يستطيع استثمار هذه العلاقات لهداية الناس وإصلاح المجتمع، ويتجنب استغلال الصديق لمنافع شخصية، وإن كانت الصداقة بنفسها لا تخلو من فوائد دنيوية.

ويجب مراعاة الموازنة الدقيقة بين توسيع دائرة الاصدقاء والاستغناء عنهم، فقد جاء عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: «كان أمير المؤمنين(عليه السلام) يقول: ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك»[128]. ويتم ذلك بأن تتعامل معهم ظاهراً معاملة من يفتقر إليهم في لين الكلام وحسن البشر، وأن تعاملهم من جهة أُخرى معاملة من يستغني عنهم بأن تنزه سمعتك من سؤال ما في أيديهم وتبقي عزك بعدم الطمع بما في أيديهم.

128. الكافي 2 : 149 ، ح 7.

الدرس الخامس

استيعاب الناس

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء)[129] .

يشير أمير المؤمنين(عليه السلام) هنا إلى أن العمل مع التجمع وبناء العلاقة مع الآخرين على أساس المال والعلاقة النفعية الخاصة لا يستمر. وهو أساس خاطئ ، وإن كان الاهتمام بالمال ضروريا لخدمة الناس ، ولكن العلاقة النفعية يجب ألا تكون متجذرة في المجتمع . ولا يجوز الاستهانة بالآخرين ، فإن الإمام(عليه السلام) يشير إلى أن العلاقة مع الآخرين ينبغي أن تبنى على أساس المودة وطلاقة الوجه وحسن اللقاء ، فلابد من حسن التعامل مع الآخرين .

والمراد بطلاقة الوجه هو الوجه البشوش في مقابل الوجه العبوس ، والمراد بحسن اللقاء هو لقاء الناس بالابتسامة والكلام الطيب . وطلاقة الوجه وحسن اللقاء هما المرشدان للأعمال الحسنة ، وهما اللذان يجتذبان القلوب ويغرسان فيها المحبة والمودة . وأما عبوس الوجه وخشونة الكلام فينفران الناس ويحولان دون سماع نداء الحق . وقد روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) قوله : (صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار)[130] .

129. بحار الأنوار 68 : 384 ، ح 22.

130. الكافي 2 : 103 ، ح 5.

ومن آثار حسن البشر، نزع الحقد والضغينة من القلوب، وزرع الصفاء والمحبة فيها، فقد روى الإمام الكاظم(عليه السلام) عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قوله: (حسن البشر يذهب بالسخيمة)[131]، والسخيمة هي الحقد.

131. الكافي 2 : 104 ، ح 6.

الدرس السادس

استثمار الوقت

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (الأيام صحائف آجالكم ، فخلدوها أحسن أعمالكم)[132] .

تشير هذه الحكمة العلوية إلى أهمية الوقت في حياة الإنسان. وهو تشبيه جميل حيث يعتبر الأيام بمثابة صحيفة لأعمال الإنسان، والأيام هي أجله وعمره، وشبه أعماله فيها بالكتابة عليها، ولكن ميزة هذه الصحيفة أن ما يكتب فيها لا يمحى، بل يخلد كالنقش على الحجر، ومادام يخلد فلنخلده بأحسن أعمالنا. وستبقى في علم الله تبارك وتعالى إلى أبد الآبدين، وستعرض هذه الصفحة على الإنسان في يوم الحساب، وسيجد ما عمل حاضراً أمامه.

وعندما يمسك الإنسان أحياناً بورقة لا يهتم بما يكتبه عليها، ولكن عند حصوله على دفتر يحاول أن يكون خطه حسنا ومضمونه راقيا، وإذا عرفنا أن هذه الآجال هي صفحات سيقرأها الآخرون فما نتركه وما نخلده لهم يجب أن تكون أحسن الأعمال. وإنه لدرس عظيم أن ننتقي ما يجب أن نقدمه للآخرين، وأن نضع سلم أولويات، ولا نكتفي بالحسن بل نبحث عن الأحسن، وهذا هو فقه الأولويات وربط العمل بالهدف والاستراتيجية .

نسأل الله أن يجعلنا ممن يكتب أعماله بالشكل الصحيح، ويخلدها في عمره ولا سيما في هذه الأوقات الصعبة، حيث نحتاج إلى توظيف صحيح للجهود، لنكون رقماً في مسار الحياة، فقد استهدف أتباع أهل البيت (عليهم السلام) وتقطعت أشلاؤهم، وكان الخصم هو من يحدد أوقات المعركة.

---

132. عيون الحكم والمواعظ : 62.

الدرس السابع

مرونة المؤمن

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (المؤمن إذا وُعِظ ازدجر ، وإذا حُذّر حذر ، وإذا عُبر اعتبر ، وإذا ذكّر ذكر ، وإذا ظُلم غفر)[133] .

هناك مؤشرات لحياة الإنسان كموجود وكائن حي مثل نبض القلب والكثير من العلامات الأُخرى ، إذا فقدها يكون في عداد الأموات ، وإذا تواجدت فيه فهو حي ، وإذا تواجد نصفها فهو في حالة موت سريري ، هذه حياة البدن . وتقابلها حياة الروح ولها مؤشرات ومقاييس كما في حياة البدن ، وأهم هذه المؤشرات أن الإنسان المؤمن يتفاعل ويتعاطى ، وليس له استنتاجات مسبقة ، وليس هو جامدا على شيء ، بل يتعامل مع الحقائق بموضوعية ، فإذا أخطأ ونُبّه صحح مساراته ، وإذا قُدّمت له الموعظة اتعظ ، ويستفيد دائماً من دروس الحياة ، وإذا أُعتدي عليه لا يتحول هذا الاعتداء إلى عقدة تحول بينه وبين الحياة ، ولذلك أينما حل يملأ المكان ويزيل العراقيل ويحقق إنجازاً ، وهذه صفات الإنسان المؤمن .

وتشير هذه الحكمة العلوية إلى الصفات المهمة في شخصية المؤمن الذي يتفاعل مع الحياة ، ويتحرك أينما يرى الحق . وهذه الصفات هي :

الأُولى : يتعظ حينما يوعظ ، وينتهي عن الخطأ عندما ينبه إليه ، ولا يصر مستكبرا .

الثانية : عندما يُحذّر يحَذر ، ويحترز من الأخطار التي يحذره منها الآخرون .

133. عيون الحكم والمواعظ : 62 .

الثالثة : يستفيد من العبر والتجارب التي تمر عليه .

الرابعة : عندما يُذكّر يلتفت ، ولا يتجه نحو الخطأ .

الخامسة : حينما يتعرض للظلم ويطلب منه من ظلمه العفو والصفح يغفر له ويعفو عنه .

والإنسان الذي يعيش روح التعاون والاستفادة من جميع هذه السمات هو الإنسان المؤمن حقاً .

الدرس الثامن

منهج التعامل مع الناس

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (ابذل لأخيك دمك ومالك، ولعدوك عدلك وانصافك، وللعامة بشرك وإحسانك)[134] .

في هذه الرواية يطرح أمير المؤمنين(عليه السلام) نهج التعامل مع الناس، ويقسم الناس إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : الاخوة الذين ينتمون إلى أُسرة واحدة وبيت واحد، وهؤلاء ابذل لهم دمك ومالك. وأهم ما يمتاز به الإنسان هو عندما يضحي بأسمى شيء وهو الدم والمال وعندما توجد لديه حالة النصرة لأخيه في ظلامة يتعرض لها.

الصنف الثاني : هم الخصوم والأعداء، فمن حق العدو عليك أن تكون عادلاً معه، وكي نفهم أن الخصومات والعداوات لا تعني أننا على حق مئة بالمئة، فلسنا نحن الحق المطلق، وليس الآخر الشر المطلق، فالاختلاف له حدود وله ضوابط، ومن حق الخصم علينا الإنصاف والعدل.

الصنف الثالث : هم عامة الناس، ومن حقهم أن تبذل لهم ابتسامتك وطلاقة وجهك وإشعارهم بالاحترام والاهتمام. وأن تبذل لهم إحسانك من الخدمة والتواصل وحل المشاكل وأن تكون قريباً منهم.

وهذا المنهج يجعل الإنسان قريباً من المجتمع، وعندما يرى فيك

134. بحار الأنوار 75 : 50، ح 76.

هـذه الصفـات، يصبـح الانتمـاء هويـة ويسـتحق أن يقـدم لـه كل شـيء، والمحايـد سـوف ينحـاز ويقـف معـك، والعـدو سـوف يتحـدد ويقلـل مـن اعتدائـه وشراسـته عليـك.

الدرس التاسع

الكتمان والبشاشة والاحتمال

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : (صدر العاقل صندوق سره ، والبشاشة حبالة المودة ، والاحتمال قبر العيوب)[135] .

تتحدث هذه الحكمة العلوية عن أُمور ثلاثة ذات أهمية خاصة للعاملين :

الأُولى : حفظ السر ، فالعاقل قليل الحديث عن سره وخططه ، وكذلك يجب أن نجعل هالة من الكتمان والسرية والغموض تحيط بأعمالنا ، ونحفظ في صدورنا ما نخطط وما ننوي ، ونحرص على عدم اطلاع الخصوم على ذلك ، فإن أخطر شيء هو أن يتعرف العدو على خططنا وبرامجنا .

الثانية : البشاشة ، فهي مصيدة كسب مودة الناس ، وهي الشبكة التي من خلالها نستقطب الناس ونحولهم إلى التنظيم .

الثالثة : الاحتمال ، فالإنسان يحتاج إلى الصبر والتحمل وليس الرضوخ للأمر الواقع ، والتغلب على الأمر الواقع من خلال تحمل الإخوة .

135 . نهج البلاغة 4 : 4 ، ح6 .

الدرس العاشر

مفاتيح التواصل

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (يا كميل ، أحسن حلية المؤمن التواضع ، وجماله التعفف ، وشرفه التفقه ، وعزه ترك القال والقيل)[136] .

تشير هذه الوصية العلوية إلى العديد من المفاتيح المهمة لنجاح التواصل الاجتماعي في بناء الذات الاجتماعي .

الأول : التواضع ، فإن أهم جلباب يلبسه المؤمن في بهائه وجماله واحترام الناس له هو التواضع ، ومن يظن أن الوصول إلى موقع من المسؤولية يعني الاستعلاء على الناس فهو مخطئ . فإن أكثر الناس موقعاً ومكانة هو المتواضع . ولذا ينبغي أن تكون سياستنا هي ، سياسة الباب المفتوح والتواضع للناس وخدمتهم .

الثاني : التعفف ، وقوله(عليه السلام) «وجماله التعفف» لها معان واسعة ، منها : عفة العين ، وعفة اللسان ، وعفة الاذن ، وعفة اليد ، وعفة الفكر ، أي بماذا نفكر ، وماذا نخطط ، هل نكيد بالآخر ، هل نبرز نقاط ضعف الآخر ، وما العلاقة في ما بيننا ، وما علاقة الجنسين في عملنا ؟ .

الثالث : التفقه ، وقوله(عليه السلام) «وشرفه التفقه» ، الشرف : لعلو ، السمو ، الرفعة . أي أن نعتمد المنهجية ونعتمد العلم ، والتفقه في التنظيم والتفقه في عملنا والتفقه في مهامنا جميعها أياً كانت .

الرابع : العزة ، وقوله(عليه السلام) «وعزه ترك القال والقيل» : عز الإنسان أي

136. بحار الأنوار 74 : 413 ، ح 38 .

أن شخصيته تكون استراتيجية أفضل مما تكون انفعالية، مزاجية، فلا يشتغل بالتفاصيل الصغيرة، وليست تكتيكية، والإسلام يقطع جميع الخيوط التي تؤدي إلى القال والقيل، كحرمة التنصت وحرمة ملاحقة الناس وما يتكلمون به خلف الأبواب المغلقة. فكلما كان الإنسان استراتيجياً ذاب كل شيء أمامه وفتحت له الأبواب.

ويجب على المستوى الفردي تجنب القيل والقال وعدم الانسياق وراء الصراعات الجانبية والنقد غير البنّاء، وعلينا بالتواضع والعفة والتفقه وترك القيل والقال.

الدرس الحادي عشر

الإنسان بين التوفيق والإخلاص

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (أجلّ ما ينزل من السماء التوفيق ، وأجلّ ما يصعد من الأرض الإخلاص)[137] .

يتعرض أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لكميل بن زياد وهو أحد حواريه إلى بيان مجموعة من الأُمور هي :

1 ــ إن أهم ما يقوم به الإنسان من عمل مفيد ومؤثر هو الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، الذي يعتبر الإطار الذي يفسر عمله وما يفكر به مما يعطيه قيمة .

2 ــ النية التي ليست لله تعالى ، وكانت من أجل الحصول على شهرة ووجاهة ومال ومكانة ليشبع الأنا ، فالعمل القائم على أساس هذه النية ليس له قيمة ، والله لا يضيع عملا ، ولكن لا يعطيه شيئا في الآخرة ، والدنيا زائلة .

3 ــ وفي مقابل ذلك ، هناك عمل مساحته وحجمه أقل ، ولكن فيه نية خالصة لله ، وعينه على الله ، وفيه مرضاة لله ، وهذا العمل وإن كان قليلاً ، إلا أن هناك مصالح واعتبارات إلهية وأهدافا وغايات مباشرة ومعلنة تتحقق تباعاً ، أي عندما يكون العمل خالصاً لله حتى لو لم يحقق كامل الأهداف .

4 ــ وأجلّ ما ينزل من السماء هو التوفيق ، وهذه سنن الله سبحانه وتعالى

137 . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي 20 : 291 ، ح 332 .

ومسبباته ، والله سبحانه وتعالى يجعل الأسباب منتجة وبعضها أقل إنتاجاً وبعضها عقيما .

5 ــ التوفيق والإخلاص متلازمان . نسأل الله أن يجعل أعمالنا خالصة لله ، ونحن كقوى إسلامية متدينة يجب أن تكون أعمالنا خالصة لله تعالى .

6 ــ أوصي نفسي وإخواني وأخواتي دائماً بأن نراجع أنفسنا وأعمالنا بلا مكابرة بيننا وبين أنفسنا . وأن نحرص على وجود حالة المراقبة للنفس والمراقبة للفكر وإلى آخر شيء ، وما هو وراءه ، هل وراءه خدمة عامة؟ هل وراءه نصرة الدين؟ هل وراءه دفع لخدمة الناس ، أو وراءه وجاهات وأنانيات وفرص أكثر؟ ، فإذا كان الأول فهنيئاً له . ونسأل الله أن يجعلنا كذلك وأن نعزز الإخلاص .

7 ــ في هذه الحكمة إشارة إلى موازنة دقيقة وعلاقة طردية بين المزيد من الإخلاص ، يقابله المزيد من التوفيق .

الدرس الثاني عشر

خطورة التلون

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (اعلموا أن الله عز وجل يبغض من عباده التلون)[138] .

تشير هذه الحكمة العلوية إلى أحد أسرار ومفاتيح النجاح الاجتماعي، فإن أحد المخاطر التي تواجه المتصدي في حياته الاجتماعية، وفي الحالات التي يقع فيها الكثير من المصالح والتقاطعات، أنه يبدأ بالتدريج ومن حيث يشعر أو لا يشعر ونتيجة المماحكات والمماشاة، يتحدث بغير ما يبطن، ويشعر بالتدريج أن هذه الخصلة صارت جزءا من واقعه وشخصيته، وهي تتفاوت شدة وضعفاً بحسب اللقاءات والحديث والزمان والمكان. وحالة التلون هذه يمكن أن تجلب للإنسان فوائد آنيه، فيشاهد الإنسان أن لديه المحبة والولاءات، ولكن حينما تنكشف الحقيقة يفقد المتصدي المصداقية، ويفقد أهم عنصر من عناصر التواصل. وتتحول حالة التلون عنده إلى نفاق، ويحاول المتصدي أن يبرر لنفسه هذا السلوك الخاطئ. وظاهرة التبرير هي خطوة غير صحيحة أيضاً، وهي مجرد محاولة فاشلة لتكون إطاراً وغطاء لهذه السلوكيات المنحرفة. ونحن المجلس الأعلى بحمد الله، يقال إن لديه رؤية واضحة وموقفاً واضحاً، ولديه الثبات على المواقف، كما أن لديه كياناً محترماً بين الكيانات، ولكن يؤخذ عليه

138. تحف العقول : 115.

هـذا الأمـر ، إذ يلاحـظ بيـن أوسـاطنا وجـود هـذه الظاهـرة ، وعندمـا توجـد مثـل هـذه الظاهـرة علـى الآخريـن توضيـح ذلـك ، وتؤخـذ نصيحتهـم . وهـذه الظاهـرة توجـد حالـة مـن الإربـاك فـي صفـوف التشـكيلات الداخليـة ، وتعيـق المسـارات الداخليـة لعملنـا . ولـذا ينبغـي طـرح هـذا الموضـوع بلطـف ومحبـة ، إذ يمكـن أن نطـرح بعـض الملاحظـات مـن خـلال حركـة وابتسـامة بسـيطة .

الدرس الثالث عشر

أخلاقية العمل الاجتماعي

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) : (من أُعجب برأيه ضلّ ، ومن استغنى بعقله زلّ ، ومن تكبر على الناس ذلّ ، ومن سفه على الناس شُتم ، ومن خالط العلماء وُقّر ، ومن خالط الأنذال حُقّر ، ومن حمل ما لا يطيق عجز)[139] .

تشير هذه الحكم العلوية إلى مبادئ مهمة في العمل الاجتماعي والتصدي لواقع الحياة لابدّ من الالتفات إليها .

تلفت الفقرة الأُولى : «من أعجب برأيه ضلّ» إلى أن العمل بعقلية الفريق الواحد في العمل الجماعي هو الهدى والصواب في قبال الإعجاب بالرأي وتغليب الرأي الخاص على آراء الجمع ، فإنّ الإنسان مهما كان مقتدراً فاهماً كفوءاً عارفاً بالأُمور، ولكن العقل الواحد والرأي الواحد لا يستطيع أن يلمّ بكل التفاصيل والحيثيات ، وبالتالي فإنّ حالة الإعجاب بالرأي تأخذ الإنسان إلى النرجسية والاعتداد برأيه على حساب رأي الجماعة والفريق والمجموع ، وهذا ما يؤدي إلى الضلال والشذوذ عن الطريق والخروج عن الصراط المستقيم والمسار القويم .

وتناولت الفقرة الثانية : «ومن استغنى بعقله زلّ» خطر شعور الإنسان بالاستغناء بعقله ، فالإنسان الذي يشعر أنّه قادر على التفكير في كل

139 . الكافي 8 : 19 ح4 .

الظواهـر والأُمـور ولا يحتـاج إلـى مشـورة الآخريـن ويكتفـي بعقلـه يعـرض نفسـه للانحـراف عـن الطريـق الصحيـح.

وتناولـت الفقـرة الثالثـة: «ومـن تكبّـر علـى النـاس ذلّ» بيـان أن العائـق أمـام العمـل الجماعـي هـو الاعتـداد بالـذات والاعتـداد بالفكـر والرؤيـة التـي تـؤدي إلـى الضـلال، وبيـان صعوبـة أن يتواضـع الإنسـان أمـام الآخريـن، فيشـعر أنّـه أفضـل منهـم فيتكبّـر عليهـم، وهـذا التكبّـر يـؤدي إلـى إذلال الإنسـان نفسـه، وهـي مفارقـة غريبـة، فـإنّ الشـخص الـذي يتكبـر يريـد أن يعلـو علـى الآخريـن وأن يجـد نفسـه أرفـع منهـم، ويظـن أنّـه كلمـا رفـع نفسـه أكثـر كان أفضـل مـن الآخريـن، ولكـن الحقيقـة أنّـه سـيؤدي بنفـس المقـدار إلـى انحطـاط شـخصيته الاجتماعيـة وإذلالهـا؛ لأنّ الشـخصية الاجتماعيـة ليسـت بيـد الإنسـان، إذ ليـس بمقـدوره أن يحـدد للمجتمـع الزاويـة التـي ينظـر إليـه منهـا، ومهمـا أراد الإنسـان أن يفـرض نفسـه علـى الآخريـن ويعلـو عليهـم فإنّـه فـي الحقيقـة يتصاغـر وتهتـز صورتـه الاجتماعيـة، وكلمـا تواضـع للآخريـن فإنّـه يسـمو فـي هـذه الصـورة وتتحسـن انطباعـات النـاس العامـة عنـه.

فالأمـر ليـس كمـا يشـتهيه الإنسـان ويقـدّره، بـل الأمـر علـى العكـس مـن ذلـك، فهـو عندمـا يـرى نفسـه أفضـل مـن الآخريـن ويتكبّـر عليهـم فـإنّ النـاس لـن تحترمـه، وسـيذل نفسـه ويفقـد قيمتـه ومكانتـه ورونقـه ووهجـه.

ولـذا نـرى علاجـاً لهـذه الظاهـرة فـي قـول الإمـام زيـن العابديـن(عليه السلام) فـي دعـاء مـكارم الأخـلاق: «اللهـم لا ترفعنـي فـي النـاس درجـة إلا حططتنـي عنـد نفسـي مثلهـا، ولا تحـدث لـي عـزاً ظاهـراً إلا أحدثـت لـي ذلـة باطنـة عنـد نفسـي بقدرهـا»[140]؛ فـإنّ حالـة الخضـوع والتواضـع الداخلـي وحالـة الرفعـة الخارجيـة همـا فـي تكامـل مسـتمر، ومـن يرفـع نفسـه خارجيـاً ويفـرض نفسـه علـى الآخريـن سـيصاب بالذلـة والهـوان واهتـزاز الصـورة الاجتماعيـة، ومـن تواضـع إلـى النـاس رفعتـه علـى أكفّهـا.

140. الصحيفة السجادية: 110.

وتناولت الفقرة الرابعة: «ومن سفه على الناس شُتم» من الخطأ الاستهانة بالآخرين، فلا ينبغي للإنسان أن يسفه الكلام الآخر ويقول مثلاً: إنّ كلام هؤلاء لا قيمة له لأنّهم أُناس لا يفهمون، أو لا يعرفون. فمن قال إنّ هؤلاء لا يفهمون؟ هل لأنّهم لم يدرسوا ولم يملكوا شهادة، أو لأنّهم لا يحظون بالموقع الاجتماعي المناسب؟ فإنّ من لا يملك ذلك ليس بالضرورة أنّ يكون إنسانا لا يفهم.

يقول أحد الزملاء: دخلت في معهد لتعلّم الخطابة فقال الأستاذ: لكي لا يصاب من يريد مخاطبة الجمهور بالرهبة عليه أن يتصور أنّ الجالسين قطيع من الأغنام وليتكلم بما يريد، لأنّهم أُناس لا يفهمون شيئاً. الله أكبر، ما هذه الثقافة؟! فهل يمكن لخطيب يريد أن يعظ الناس أن ينطلق من مبدأ أنّ الناس لا يفهمون شيئاً؟! وحينئذ كيف يستطيع أن يتعامل معهم ويطوّرهم ويرتقي بهم؟! والله سبحانه وتعالى يلقي الحكمة على لسان الطفل والعجوز الأُمية وعلى لسان أي إنسان، فعلى الإنسان أن يشعر عندما يستمع إلى الآخرين بأنّ هناك حكمة في كلامهم وان كانت تبدو بسيطة ولكنّها ذات فكرة عميقة ومغزى كبير.

ولذا يجب على الإنسان أن يحاول احترام الآخرين والاستفادة من كلامهم ويمنحهم تركيزه وتوجهه، ولا يتظاهر بأنّه يستمع إليهم وهو لا يفعل ذلك؛ لأنّه قد يجد في طيّات كلامهم درّة وحكمة وإشارة إلى فكرة مهمة جداً، فإنّ الإنسان البسيط يتكلم بالحكمة بطريقته الخاصة، وعليك صياغتها بشكل فلسفي، فأصل الفكرة يمكن أن يكون على لسان أي إنسان.

ونتيجة من يستهين بالناس ولا يكترث لكلامهم وأفكارهم ورؤيتهم وما يدور في خلجاتهم هو الشتم والسب، فقد يظن البعض أنّ الناس لا تعرف ولا تفهم، وقد يقع السياسي أحياناً في مثل هذه المطبات ويتعامل مع الشعب وكأنّه لا يفهم، ويطلق أشياء قد ترتد عليه، وفي الواقع أنّ الشعب يفهمه جيداً ويعرف أن هذه الكلمة ناتجة من استخفاف به وقلّة اهتمام وعدم اكتراث، فيتحول إلى رد فعل عنيف جداً وقاس ومؤلم.

ولذا ينبغي الاهتمام بما يقوله الآخرون مهما كان الرأي الآخر بسيطاً، سواء من جهة قائله أو في طرحه ومفرداته، إذ يمكن أن نجد في طيات هذه الكلمات رؤية سديدة يمكن أن نستفيد منها. فعلينا إذن أن نمتلك شعور التعلّم من الآخرين، وهو شعور مهم جداً في العمل الاجتماعي.

وتناولت الفقرتان الخامسة والسادسة: «ومن خالط العلماء وقّر، ومن خالط الأنذال حُقّر» أهمية اختيار الجليس الصالح الذي ينتفع منه، فإنّ الإنسان بجليسه وبمن يخالط وبمن يحتك به، والأثر الوضعي يترتب على ذلك، ومن يجالس العلماء يسمع علما ومعرفة وورعا وتقوى، وتترتب آثار وضعية على مجالسة العلماء، كالنظر إلى وجه العالم عبادة، والاستماع إلى الموعظة عبادة، فكلّه فائدة في مقابل من يجالس الأنذال ومن لا ذمة له ولا ضمير ولا يفهم إلا مصالحه الخاصة، فإنّ الجلوس إلى هؤلاء فيه تحقير لمن يجالسهم مهما كان التبرير؛ اتقوا مواضع التهم.

وليس من المفروض على الإنسان أن يجالس من يحتاج الى أن يبرر مجالسته، فيقال؛ عجباً! هذا يجلس مع فلان، وذهب إلى المكان الفلاني الذي يجلب له التهمة ويحتاج إلى أدلة ليدافع عن حضوره في ذلك المكان، فلا ينبغي أن تذهب إليه إلا عند الضرورة، والشخص الذي تحرج أمام الرأي العام بالتقاط صورة معه لا تصافحه ولا تذهب إليه إلا عند الضرورة، والضرورات تُقدّر بقدرها، ولا تبرر أنّك تريد هدايتهم لأنّك ستتلوث، فإنّ هداية الضالين والمنحرفين والمنحطين عملية معقدة تحتاج إلى توفر أدوات ومقومات كافية، وأغلب من يمارسون هذا الدور هم غير مهيئين لأن يؤثروا، بل هم من يتأثر من حيث لا يشعرون، وإذا كنت في موقع التأثر والانفعال وليس التأثير والفعل فمن الأفضل أن تتجنب مجالسة مثل هؤلاء والاجتماع معهم. وهذا أيضاً جانب مهم في معرفة من هو الجليس، ومن نجالس، ومع من نجتمع ونلتقي. ويجب على الإنسان أن يكون حريصاً، ليس على نفسه فقط، وإنّما على منظومة العلاقات التي تدخل في ضمن التقييم الخاص لكل واحد منّا.

وتناولت الفقرة السابعة: «ومن حمل ما لا يطيق عجز». تحذير الإنسان من تحمل مسؤولية ما لا يطيق، وأن يقتصر على تحمّل مسؤولية ما يطيق. ومن ظواهر العمل الجماعي أنّنا نرى البعض يحاول تحمّل أعباء كثيرة لا يستطيع أن يتحمّلها الإنسان وحده عادة، لأنّ الإنسان لديه قدرة محدودة، ومع ذلك نراه يريد أن يمسك بكل شيء ويضع يده على كل شيء، بدلاً من التعاون مع الآخرين وتوزيع المهام والمسؤوليات في العمل الجماعي، وهذه تعكس حالة الانانية والاستئثار وعدم الثقة بالآخرين أو الخوف منهم لئلا يستحوذ من هو أكفأ منه على العمل، ولهذا نراه يندفع للدخول في كل التفاصيل، وهو إنسان واحد لا يستطيع أن يستوعب هذه التفاصيل، وبالتالي سيشعر بالعجز ويقصّر في أداء واجباته، فإنّ الذي يريد أن يدخل في الفروع تضيع منه الأُصول والواجبات الأساسية.

ومن أجل ألا تضيع الأُصول يجب اعتماد مبدأ توزيع الأدوار والتخصص في المهام، وهي قضايا أساسية في العمل الجماعي، لكي تتحقق النتائج، فالنوع أهم من الكم في الفهم الإسلامي، ومن أجل ذلك فان ركعتين يأتي بهما المصلّي بتوجّه تعادلان مئة ركعة بدون توجّه، وقراءة بضع آيات من القرآن بتدبر أفضل من قراءة جزء كامل من غير تدبر، فالعمل النوعي هو المؤثر دائماً، والبعض منّا يصرف وقتاً طويلاً وجهداً عضلياً كبيراً ويكون نتاجه من العمل بسيط؛ لأنّ هذا العمل الكبير بلا تخطيط ولا تفكير لا يتكامل مع جهد الآخرين، فيبقى جهده وحده، كمن يخوض الماء بعصاه فاذا رفع يده هدأ الماء وكأن شيئاً لم يكن، والنقش على الحجر أصعب من النقش على الماء، والنقش على الماء بقدر ما هو سريع يزول بسرعة أيضاً، والعمل النوعي هو الذي يترك بصماته على واقع الحياة.

ومما لا ريب فيه أنّ كل واحد منّا في عمله ومهمته، يفكر مادام هو مسؤولا عن هذا العمل، بالبصمات التي سيتركها بحيث عندما يسلّم الراية لشخص آخر تبقى هذه البصمات. ويعتبر العمل النوعي في أي مجال من المجالات، والعمل على أساس الفكر والرؤية، والعمل بالتشاور مع

الآخرين والاستعانة بهم وتعزيز العمل الجماعي والبناء المؤسسي، هي السياقات التي ربما تشير إليها هذه الكلمات العلوية الكريمة التي تحدثنا عنها، وهي عدم المبالغة بالقدرات، وعدم تقبل العديد من المهام والمسؤوليات والتركيز على مهمة واحدة فقط. والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع عشر

بناء الذات

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (لا شرف أعلى من الإسلام ، ولا كرم أعز من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا لباس أجلّ من العافية ، ولا وقاية أمنع من السلامة ، ولا مال أذهب بالفاقة من الرضا بالقناعة ، ولا كنز أغنى من القنوع) . [141]

تندرج هذه الحكمة الشريفة ضمن كم هائل من النصوص من الآيات القرآنية والروايات الواردة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الكرام(عليهم السلام) التي تشير إلى أن نقطة الانطلاق تبدأ من أنفسنا وبنائها الداخلي ، فكلما كان الإنسان مملوءا كان واثقاً ، وكلما كان مؤمناً ، كانت البناءات الداخلية رصينة وكانت القدرة أكبر على مواجهة التحديات .

فإنّ التحدي مهما كان أكبر منّا وكان خارج اختيارنا ولا نستطيع التحكم في وجوده وتحديد مساراته وكان مفروضاً علينا ، ولكنّنا نستطيع أن نتخذ قرارنا بأنفسنا في مواجهته .

والسؤال الذي يطرح نفسه : كيف نواجه التحدي؟ والجواب ؛ نواجهه عندما نكون مملوئين داخلياً ، وكانت لدينا الهمّة العالية والإرادة القوية والإيمان والوضوح بمشروعنا وما نطمح إليه ، فإنّ الإنسان المملوء الواثق من نفسه لا تزحزحه العواصف ، ولا تهزه التحديات ، ولا تؤثر فيه أعتى الأعاصير .

ولكي يكون الإنسان مملوءاً وقادراً على المواجهة فإنّه يحتاج إلى

141. نهج البلاغة 4 : 587 الحكمة 371 .

الصبر وسعة الأفق والاستيعاب والتحمل. وقد علّمنا القرآن الكريم كيف ندعو فقال: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[142]، فالمدخل هو الصبر، وهو بدوره يثبت الأقدام. ثم إنَّ الصبر والثبات يساعداننا على مواجهة التحدي.

فالعملية تبدأ من داخلنا ووجودنا، والصبر وسعة التحمل يجعلاننا أكبر من التحديات والمشاكل التي تواجهنا في مسار الحياة. ومن سنن الحياة الصراع الكبير فيها بين من يمتلك القوة المادية من المال والسلاح والسطوة والإعلام والأدوات المادية الكبيرة الأُخرى، ومن يمتلك المشروع. ونحن الآن في بغداد الإمام الكاظم(عليه السلام) الذي عاصر هارون العباسي الذي كان هو الحاكم والسلطان في هذه المدينة، وكان الإمام الكاظم(عليه السلام) محاصراً في بيته في المدينة المنورة ثم سجيناً في بغداد، ولكن معادلة المال والجاه والإعلام والجيش، وتدافع الناس على بلاط هارون قد اختزلها الإمام الكاظم(عليه السلام) بكلمة واحدة، حينما رآه هارون جالساً عند الكعبة فقال له: أنت الذي يبايعك الناس سرّاً؟، فقال(عليه السلام): «أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم»[143].

فالأجسام بيدك والمال بيدك والوظائف عندك والجيوش معك والمصلحة المباشرة معك، ولكن المشروع عندي، فلذلك أنا أتحكم بالقلوب. أي أنّ الناس عندما تأتي إلى هارون إنّما تأتي لمصلحة، ولكنّها عندما تذهب إلى الإمام الكاظم(عليه السلام) فهي تذهب عن قناعة وليس لمصلحة؛ لأنّ المصلحة عند غيره، ومتى ذهب الإنسان إلى شخص لمصلحة فإنّ حاجته تنتهي منه بانتهاء تلك المصلحة، وأما المشروع والقيم والمبادئ فهذه مسائل يحتاج إليها الإنسان في كل حال. ولقد كان أصحاب المشاريع هم من يكسب المعركة في نهاية المطاف، وكان أصحاب الإمكانات الكبيرة والعريضة والمؤسسات الضخمة هم من يخسر المعركة.

142. البقرة: 250.

143. ينابيع المودة 3: 120.

وليس لهذه الظاهرة تفسير مادي، إذ يفترض طبقاً للحسابات المادية أنّ من يمتلك المال والجاه والسطوة يجب أن ينتصر، ولكنّنا نرى دائماً أنّ هؤلاء يكسبون جولات ويخسرون المعركة، وأما أصحاب المشاريع الرسالية فهم يخسرون الجولات ولكن يكسبون المعركة، هذا في الأُفق الاستراتيجي.

وقد بيّنت هذه الآيات والروايات السرّ في هذه الظاهرة، وهو أنّ هؤلاء ممتلئون ولديهم إيمان ووضوح وعقيدة، ولذلك نرى أصحاب الإمام الحسين(عليه السلام) قد صبروا وقاتلوا حتى الرمق الأخير من حياتهم ولم يستسلموا ولم يهنوا ولم يضعفوا وهم سبعون شخصاً أمام الألوف المؤلفة من جيوش بني أُمية، لأنّهم كانوا مملوئين بالحق، ولهذا كان تأثير الثورة الحسينية عظيماً على مرّ الدهور. وهكذا كان الإمام الخميني وهو الطريد من النظام الشاهنشاهي آنذاك، عاد فاتحاً إلى ايران بعد خمسة عشر عاماً.

وهكذا نحن، أُناس مظلومون مضطهدون نقتّل من سنة 1980 إلى اليوم، ولكن مشروعنا يقوى ولا يتراجع، ونحن نقوى، ومن مؤشرات قوة مشروع شيعة العراق هو العشرون مليوناً الذين خرجوا مشياً لزيارة الإمام الحسين(عليه السلام) في ذكرى أربعين شهادته، بينما العام الماضي كانوا عشرة ملايين، وفي العام الذي سبقه كانوا سبعة ملايين، وفي العام الذي قبله كانوا أربعة ملايين.

فالأربعة ملايين أصبحوا عشرين مليوناً خلال عدة سنوات، برغم التخويف والإرهاب الشديد بكل الوسائل المتاحة من تقطيع الأشلاء في ظاهرة غير مسبوقة، حتى أصبحت رائحة الدم تزكم الأُنوف يومياً في كل مكان، بالرغم من كل هذا الاصطفاف معهم من وسائل إعلام وملياردات تنفق وكثير مما هو وراء الستار لم نكتشفه حتى الآن، وقد تنشره بريطانيا وغيرها بعد ثلاثة عقود وعندها ستظهر بعض الحقائق والمسائل والأجندات والصفقات، كما تظهر اليوم عن حقبة الثلاثين سنة

الماضية عن الحرب العراقية الإيرانية وتنشرها كعناوين رئيسة في صحفها المحلية، حيث أطلقت مؤخراً بعض الوثائق من أرشيف وزارة الخارجية البريطانية.

وفي ظل هذه الاصطفافات والقوى والتأثيرات نرى أنّنا نقوى ولا نضعف، ووضعنا يقوى تدريجياً، ولا أحد يتصور أنّ داعش وأمثالها من العصابات الإرهابية يستطيعون استهدافنا بالكامل والقضاء علينا، وإن قتلوا منّا وضغطوا علينا وأربكوا مشروعنا، ولكنّهم لا يستطيعون أن يوقفونا أو يزيلونا، فهذا أمر مستحيل. نعم، إنّ أدواتنا ضعيفة، والناس الذين نعتمد عليهم في إدارة شؤوننا يحتاجون إلى نضج أكبر، إلى غير ذلك من إشكالات فنية.

ولكن مشروعنا مشروع قوي ورصين وكبير، وهو كناطحة سحاب لا يضيرها أن يوضع سلك كهربائي خطأ في غير محله فتنقطع الكهرباء عن البناية، فهو لا يعني أنّ كل شيء قد انتهى، بل كل شيء موجود ولكن يجب وضع السلك الكهربائي في محله الصحيح. ولذلك فإنّ مشروعنا قوي، ونحن أقوياء بإذن الله تعالى لثقتنا به سبحانه ولصدقية مشروعنا. ولا يخشى على مشروعنا وإن كانت بعض أدواتنا ضعيفة ومتلكئة وتعطي نتائج بطيئة وعكسية.

الدرس الخامس عشر

معيار التعاطي مع الواقع

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (العجب ممن يخاف العقاب فلم يكف ، ورجا الثواب فلم يتب ويعمل)[144]

تشير هذه الحكمة الشريفة إلى فصل مهم من فصول التعاطي مع واقع الحياة ، والى أنّ المشاعر الطيبة والنيات الصادقة لا تكفي بمفردها . فمن يخاف العقاب يعرف أنّه أمر غير ملائم ، فتتحرك مشاعره تجاه الفعل الذي يترتّب عليه العقاب وتتولد لديه النية في تركه . ومن يرجو الثواب يعرف أنّه أمر ملائم ، فتتحرك مشاعره تجاه الفعل الذي يترتّب عليه الثواب وتتولد لديه النية في الإتيان به .

ولكن هذا لا يكفي ، فإنّ مجرد المشاعر غير كافية ، وإنّما الإنسان بحاجة إلى إجراءات ومواقف ، فالإنسان موقف ، وما لم يتحقق هذا الموقف تبقى كل الأُمور الأُخرى ادعاءات فقط ، وقد يكون البعض منها صادقاً ولكنّها مشاعر قلبية لا تتحول إلى حقائق تتحرك على الأرض ، فالإنسان الذي يثير عجب أمير المؤمنين(عليه السلام) هو ذلك الشخص الذي يخاف العقاب ولكن لم يتخذ الإجراءات المطلوبة للحد مما يوقعه في العقاب ولم يتب ويتراجع عن أخطائه ولم يقم بالعمل الصحيح .

إذن ، الموقف هو المساحة الأساسية والركيزة الرئيسة في تقييم عمل الإنسان ، فإنّنا نلاحظ في كثير من الحالات أنّ أُمماً قد ضلّت وشذّت

144. تحف العقول : 89 .

وانحرفت، كانت لها رؤية صحيحة وكانت تتحرك مشاعرها تجاهها ولكن لم تكن مواقفها وعملها تصب في هذه الرؤية الصحيحة، ونعتبرهم اليوم من المنحرفين، ولا نعدّهم من الأمم الصالحة.

فمثلاً، حينما لخّص الفرزدق للإمام الحسين(عليه السلام) موقف أهل الكوفة فقال: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[145]، فكيف يكون القلب مع الإمام الحسين(عليه السلام) ما لم تكن هناك رؤية صحيحة، ويشخّص أنّ هذا هو الحق وذاك هو الباطل، وأنّه يجب على الإنسان أن يصطف مع الحق، ولذلك فقد اصطفت عقولهم ومشاعرهم مع الحق، ولكن الموقف على أرض الواقع أنّ سيوفهم كانت مشهورة لقتل الإمام الحسين(عليه السلام).

إذن، نحن عندما نلخّص موقف أهل الكوفة نعتبرهم ممن أخلّوا بالأمانة وتخلفوا عن نصرة سيد الشهداء(عليه السلام) وإن بكوا عليه بعد قتله، وماذا يعني قول عمر بن سعد حينما أصدر أوامره بذبح الإمام الحسين(عليه السلام): «انزلوا إليه وأريحوه»[146] وهو يبكي والدموع تنهمر على لحيته المشؤومة كما ورد في سير المقاتل، ولكنّه أصدر الموقف وقال: اقتلوه!، والآن ما هي مشاعره وهو يرى أنّ موقفه كان خطأ، وأنّ مصالحه هي التي دفعته إلى ذلك، فهذه المشاعر لا تشفع له أمام ذلك الموقف، فقد اتخذ الإجراء وأصبح مداناً بسبب هذا الموقف.

إذن يجب علينا دائماً أن نلحظ المواقف عند تقييم الأشخاص ونلحظ السلوك على الأرض، وهذه قضية مهمة جداً في وضعنا الداخلي، فنحن مثلاً حينما نرى حصول إنجاز نسارع في نسبته إلى فاعليه، فنقول فلان هو الذي حقّق هذا الإنجاز، وهذا شيء طيب، ولكن عندما يحصل إخفاق قلما يتحمل فاعله المسؤولية أو يتحمله الآخرون في داخل ذلك البيت، بل يبحثون له عن مائة عذر وحجة وذريعة لكي يبرئوه من مسؤولية ذلك الإخفاق، وتضيع علينا معرفة من هو المقصّر.

145. دلائل الإمامة: 182.

146. مقتل الحسين للمقرم: 283.

وهذه المشكلة موجودة في تيارنا، وكذلك هي موجودة في إطار وضعنا العراقي، وتتشكل مئات اللجان لمعرفة المقصّر ثم لا تخرج بنتيجة، وربما كان بعضها يرغب في الخروج بنتيجة ولكن شدة التعقيدات وتشابك الأُمور تحول دون ذلك، فكل شخص يرمي مسؤولية الإخفاق على الآخر، فترتبك اللجنة ولا تعرف من هو المقصّر الحقيقي، كما حدث في سجن أبي غريب عندما هرب منه المئات من عتاة الإرهابيين، ومع أنّها قضية واضحة وبيّنة وبهذا الحجم الكبير ولكنّنا نرى وزارة الداخلية تتنصل من تحمل المسؤولية وترميها على وزارة العدل، وتنفي الأخيرة مسؤوليتها عن ذلك، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يمكن التعرف على المسؤول المباشر عن هذه القضية إلى هذه اللحظة. وهذا التداخل في المهام وفي الواجبات هو الذي يدفعنا أحياناً إلى مثل هذه المواقف والغموض والسعي في التبرير.

وما نستفيده من كلام أمير المؤمنين(عليه السلام)، أنّه يجب أن نعتبر العمل والسلوك والأداء على الأرض هو المعيار في تقييم الأشخاص، ولا نقول إنّ فلانا شخص ناجح ولكن النتائج لا تخرج مناسبة، فإنّ ذلك يضاهي قولنا إنّ العملية الجراحية ناجحة 100 ٪ لكن المريض توفي! إذن أين النجاح؟. وطبعاً فإنّ ما نعني به من النتائج هي النتائج الاختيارية، وأما النتائج غير الاختيارية فنحن غير مسؤولين عنها وإن كنّا حريصين عليها، لأنّ هناك بعض الأُمور خارجة عن اختيار الإنسان، والله سبحانه وتعالى هو الذي يقدّر الأُمور فينصر من يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذل من يشاء. ولكن هناك أسباب طبيعية توفر مناخات النصر إذا وفرناها جميعها، ومع ذلك يحبس الله سبحانه وتعالى عنّا النصر لسبب من الأسباب، فهذه حالات استثنائية، وتبقى دائماً خارجة عن إرادة الإنسان واختياره،

ولكن ما يسير ضمن إرادة الإنسان وإمكاناته، يجب أن يكون خاضعاً للمحاسبة والتقييم الدقيق. ويميز الناجح من المخفق بحسب طبيعة الإنجاز والسلوك الذي يحقّقه الإنسان على الأرض.

إذن نحن اليوم عندما نكون جماعة صالحة اجتمعت على مشروع

ووضعت لنفسها رؤية معيّنة يجب أن تقيّم نفسها بقدر تمسّكها بالمشروع، وليس بالقول وإنّما بالفعل والسلوك ، وقدرتها على تنفيذ هذا المشروع على الأرض، فنجاحنا ليس بقدر ما نستشعره في قلوبنا من التزام تجاه المشروع، وإنّما هو بقدر ما نتحرك به على الأرض في تحقيق مشروعنا، وهذا هو المعيار الواقعي الذي يضعه أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) في التعاطي مع شؤون الحياة، والحمد لله رب العالمين .

الدرس السادس عشر

العلاقة بين الهمة والطموح

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (بقدر الهموم تكون الهموم) [147] .

تشير هذه الرواية الشريفة المروية عن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه إلى مفتاح آخر من مفاتيح التصدي للعمل الاجتماعي والخدمة العامة، وهو أنه كلما كانت همة الإنسان عالية، كانت تطلعاته أكبر وطموحاته أعظم واستشعاره للمسؤولية أكبر، فأصحاب الهمة العالية يكونون من ذوي الهموم الكبيرة والطموحات العالية، فهناك ارتباط وثيق وعلاقة مباشرة بين الهمة وحجم المسؤولية، وليس المهم نوع المهمة المناطة بالإنسان، بل المهم طبيعة الأداء والسلوك في تنفيذ المهمة التي كُلف بها؛ فمن الممكن أن يكون الإنسان مكلفاً بمهمة تبدو عادية، ولكنه ذو همة عالية وحريص على أدائها بشكل صحيح، فتأخذ وقته وراحته ويقوم بالتفكير والتخطيط لأداء هذه المهمة بأحسن وجه مهما كانت بسيطة وعادية، وفي الجانب الآخر يمكن أن تناط مهام جسيمة وخطيرة بأشخاص ليسوا من ذوي الهمم العالية، بل يتعاملون معها على أنها فرصة ومكسب وامتياز.

إنّ تحمل الهمّ واستشعار المسؤولية والحرص في الأداء لا ترتبط بحجم المسؤولية، بل ترتبط بطبيعة الهمة ونوعية المسؤول، فالمسؤول

147. عيون الحكم والمواعظ: 185.

الـذي يتعاطـى بمسـؤولية مـع الأُمـور، وبهمـة عاليـة مـع مسـاحة مسـؤوليته ـ مع قطـع النظـر عـن طبيعـة تلـك المسـؤولية ـ سيستشـعر همـاً عاليـاً وكبيـراً، وهـذا معيـار مهـم يقـاس بـه مـدى الحـرص عنـد المسـؤول واستشـعاره للمسـؤولية.

الدرس السابع عشر

مواصفات المسؤول

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) في وصف العاقل، قال: (هو الذي يضع الشيء مواضعه، فقيل: فما وصف الجاهل؟ فقال: فعلت)[148].

إذا كان العاقل هو من يضع الشيء مواضعه، إذن فالجاهل هو من لا يضع الشيء مواضعه، وهذا التعريف الذي يذكره أمير المؤمنين(عليه السلام) للعاقل جاء أيضاً وصفاً للعادل، إذ العدل هو وضع الشيء في موضعه، وجاء أيضاً في وصف الحكمة أنها وضع الشيء في موضعه، مما يؤكد أهمية هذا الأمر، وإذا كان العقل والعدل والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، إذن فما يقول الإنسان، وفي أي مكان يقوله، وكيف يقوله، وماذا يفعل، ومتى يغضب ومتى يندفع ومتى ينكمش، هي متطلبات كل ظرف من الظروف، فالغضب بشكل دائم خطأ، والبشاشة والمرونة بشكل دائم خطأ أيضا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[149]، فالرحمة الدائمة ليست عنصر قوة، كما أنّ الشدة الدائمة ليست عنصر قوة، والإنسان المتزن والمؤمن يغضب لغضب الله ويرضى لرضاه، وأما أن يعيش الإنسان حالة الرضا الدائم، حتى مع من يستحق الغضب، فهذه ليست منقبة، وكذلك الأمر حين يعيش حالة الغضب الدائم والشكوى الدائمة حتى في ظروف الرضا، فهذه ليست

148. نهج البلاغة 4: 52 الحكمة 235.

149. الفتح: 24.

منقبة أيضاً، وحالة الاتزان ووضع الشيء في موضعه هي قمة الاتزان، والحالة المثالية في السلوك والقول والفعل وتقدير الموقف بشكل صحيح، والإنسان القادر على تشخيص متطلبات واستحقاقات اللحظة التي هو فيها، بالزمان والمكان والمخاطبين؛ هذه اللحظة ماذا تتطلب وهذا الظرف ماذا يحتاج؟ إلى صولة فيصول، أو الى مرونة فيتعامل على وفق هذا الاستحقاق، ليضع الشيء في موضعه، وهذا الموقع الذي نرشح له شخصاً ما هي متطلباته؟ هل يحتاج إلى جهد وحركة ونشاط عضلي وطاقة شبابية، أو يحتاج إلى فكر ورؤية ونظر؟ فنضع الشخص المناسب له، وهناك موقع يحتاج إلى مؤهلات عالية وطاقة عالية، ولو وضعنا شخصاً دون تلكم المؤهلات، نكون قد ظلمناه وظلمنا الموقع، وكذا لو وضعنا شخصاً ذا مؤهلات عالية في موقع بسيط لا يمكنه من خلاله التعبير عن إمكانياته، نكون قد ظلمناه وظلمنا الموقع معه، يقول المتنبي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

فوضع إنسان ضعيف غير قادر على أداء الوظيفة المناطة به بشكل صحيح وكامل، هو كوضع الندى في موضع السيف بالعلى، لأنّ وضعه في مكان يتطلب هممـاً عالية وهو لا يمتلكها، أمر مضر بحقه وتحميل له أكثر من طاقته، ومضر بحق الموقع واستحقاقاته أيضاً، وهو كوضع السيف، ذي الهمة العالية والقدرات الكبيرة، في مكان رطب، فإنه سوف يصدأ وتصبح النتيجة عكسية.

ومن أجل أن يوضع الإنسان في الموضع المناسب، يجب دراسة شخصيته من خلال نظراته وحركاته وسكناته وكلماته ومواقفه وخياراته وقراراته، وكل شيء مطلوب لاستحقاق تلك الوظيفة ومتطلباتها، وذلك بتشخيص ما هو الانصاف والأفضل لهذه الخطوة والنظرة والكلمة، وهذا يحتاج إلى إرادة قوية لمواجهة الرغبات والنزوات التي تدفعه أحياناً لاتخاذ

موقف أو رؤية أو كلمة خلاف المصلحة، بل وكل شيء يخرج الإنسان عن الوسطية والاتزان، فتصدر منه مواقف سرعان ما يندم عليها.

إنّ وضع الشيء في موضعه يحتاج إلى تشخيص دقيق، ويحتاج إلى إرادة لمقاومة هذه الرغبات والنزوات العكسية، ويحتاج إلى حالة من الرضا بقضاء الله وقدره، والقناعة بما قسمه الله تبارك وتعالى، وهذه كلها مستلزمات ومتطلبات أساسية من أجل أن يوضع الإنسان في الموضع المناسب. نسأل الله تعالى أن يوفقنا لنضع الشيء في موضعه، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن عشر

الارتباط بين التقييم والمهام المناطة

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (فضيلة السلطان عمارة البلدان)[150] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى قضية أساسية ، وهي أن تقييم كل متصدٍّ في أي موقع من مواقع ، يجب أن يعتمد على معيار واضح ، فالناس يختلفون في تقييم المتصدين بناء على أمزجتهم وانطباعاتهم ورؤيتهم الشخصية وتقديراتهم ، ويضع أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الرواية معياراً مهماً في التقييم ؛ إذ يربط بين تقييم المتصدي والمهمة والأهداف الموضوعة لهذا المتصدي ، فحينما نقيّم متصدياً معيناً بناء على الملبس الأنيق ، وهو عنصر مكمل في شخصية المتصدي ، ولكن ليس هو قوام الشخصية ، أو نقيّم متصدياً على أساس أنّ لديه السمة الفلانية ، مع أنه من الممكن أن يمدح الكثير من الناس أو يذموا بناء على أُمور معينة ، وهي سمات تأتي على الهامش ولا تمس مهام المتصدي المباشرة ، ولذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) إنه في التقييم يجب أن نعود إلى المهمة الأساسية المناطة بهذا المتصدي وواجباته ومهامه ، ومدى تحقيقه النتائج في هذه المهمة ، وليس عن طريق الدعاية الإعلامية ، أو على أساس صياغات جميلة لعشرين صفحة في الفيسبوك ، فهذا كله غير ناجح مهما كانت الأسباب .

إذن ينبغي أن يكون التقييم على أساس المهمة المناطة بالشخص ، فإذا كان مكلّفاً بمسؤولية تنظيمية ، فإنّ عدد الأفراد المسؤول عنهم ليس هو

150. عيون الحكم والمواعظ : 30 .

المهم، بل المهم هو مدى قوة التنظيم والوصول إلى كتلة تنظيمية فاعلة وكفوءة، وهكذا يقيّم غيره من المسؤولين، فتقييم السلطان ـ وهو الحاكم المتصدي لإدارة اُمور الدولة ـ يكون بتشخيص مهمته في البدء، لكي يكون معيار التقييم مدى إنجازه لتلك المهمة.

ويبيّن الإمام (عليه السلام) في هذه الرواية، أنّ مهمة ووظيفة السلطان هي عمارة البلدان، فالإعمار والازدهار والبناء والخدمة هي المهمة الأساسية للحكم والدولة، وحينئذ يقيّم الحاكم على أساس ما قدمه من إعمار للبلاد ومن خدمة للمواطنين، سواء كان هذا الحاكم شيعياً أو سنيّاً أو كردياً، ولا اعتبار لأي قضية اُخرى لا تمس هذه المهمة الأساسية بشكل مباشر.

وعليه إذا أردنا أن نقيّم اي مسؤول تنفيذي، من السلطان إلى أصغر مسؤول، فيجب أن نرى ماذا خدم، وماذا قدم، وهل استطاع أن يحقق من الإعمار والبناء ما يحتاج إليه البلد؟ وإذا طبقنا هذا المعيار ربما يمكن أن نعطي حكامنا درجات عالية بالمقلوب؛ نتيجة حجم الإعمار الذي حصل في البلاد؛ فاليوم وبعد مضي أحد عشر عاماً على سقوط نظام صدام، وإنفاق ما يقرب أو يزيد على 600 مليار دولار، ما زال وضعنا الاقتصادي مزرياً؛ فلا ماء ولا كهرباء ولا خدمات ولا أمن ولا بنية تحتية صحيحة ولا مؤسسات رصينة، وكل هذه الاُمور هي المهام الأساسية في عملية التقييم، وفي تحديد واجبات المسؤولين والمتصدين، وهذه هي الأسباب المهمة التي تدفع إلى عملية التغيير التي تناشد بها المرجعية، وقد عملنا بهذه التوصيات ورفعناها شعاراً لأنفسنا، وإلى هذه اللحظة نحن أوفياء لشعبنا، على الرغم من الضغوط وظروف البلد المعروفة.

الدرس التاسع عشر

تحديد الأهداف وتشخيص الغايات

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (لا تطلب الحياة لتأكل ، بل اطلب الأكل لتحيا)[151] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى مفتاح آخر من مفاتيح التواصل في الحياة السياسية والاجتماعية ، وهو تحديد الأهداف وتشخيص الغايات ، أي ما هو الهدف الذي نريده؟ وما هي الغايات السامية التي نضعها لأنفسنا في الحياة؟ هذه مسألة جوهرية لا يمكن لشخص أو جماعة أن يسير من دونها ، فالهدف المحدد هو الذي ينبغي أن يعيش من أجله الإنسان في هذه الحياة ، ويأتي الطعام فيقوي الإنسان ليعيش من أجل ذلك الهدف ، وإذا لم تكن الحياة من أجل هدف ، فانّ الإنسان حينئذ يحيا لأجل أن يأكل كما تأكل البهائم ، ولكن إذا كان الهدف هو الحياة ، والحياة شيء سام ولا تنقطع بالوفاة ، وأصبح لنا أُفق واسع في الحياة ، فإننا حينئذ نأكل لنعيش ، وأما إذا لم يكن لنا هدف في الحياة ، فإننا حينئذ سنعيش لنأكل ، ويصبح الأكل هو الهدف ، وهو هدف مرحلي محدود .

إذن تشخيص الهدف والغاية وتحديد الأولويات في هذه الحياة ضمن الأهداف المرسومة ، نقطة أساسية ينبغي التركيز عليها ؛ لأنّ هناك الكثير من الأشياء الطيبة والصالحة لا يستطيع الإنسان أن يستوعبها كلها ، ولذا يجب عليه أن يبحث عما هو أهم ، ويقدّم الأهم على المهم في ظل

151. شرح نهج البلاغة 20 : 333 الحكمة 824 .

الإمكانات المادية والمعنوية المتوفرة له كشخص أو جماعة، ويجب أن يركز على أولويات محددة ملتصقة مع الغاية الأساسية.

وللوصول إلى الهدف يجب اعتماد وسائل شريفة ونبيلة، فالغاية لا تبرر الوسيلة، كما هو معروف في المنطق الميكافيلي، بل يجب أن تكون الوسائل من جنس الغايات، والغاية الشريفة يجب أن نصل إليها بمقدمات شريفة ونبيلة، فلا يمكن لمن يسرق أن يتصدق على الفقراء، فالغاية نبيلة ولكن الوسيلة غير شريفة، ولا يمكن أن يطاع الله من حيث يعصى.

إذن لدينا أهداف، وأولويات ووسائل للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف، وعلينا الحفاظ على اتجاه البوصلة، فأحياناً يندفع الإنسان بدوافع صحيحة، ولكنه عندما يدخل في عمق الحدث يضيع، فقد تتغير القناعات أو الأولويات أو الاتجاهات أو النيات، حينما يدخل بهدف الخدمة وبعدها يجد نفسه في تدافع وصراعات على مواقع وعلى منافع شخصية، وهو عندما دخل المشروع لم تكن تلك الأُمور في ذهنه.

وعليه فلا يكفي أن نضع أولويات صحيحة، وأن نعتمد وسائل شريفة ونبيلة، بل علينا استذكار الهدف والرجوع إلى الأولويات، أي يجب أن تكون لدينا مسطرة نعرض أعمالنا عليها دائماً، ونعمل بنفس الاتجاه والنيات والدوافع والمسارات، ونرى هل الهدف ما زال هو الهدف، وطموحاتنا ما زالت مشروعة؟ أو تغير الهدف وانقلبت طموحاتنا إلى طموحات غير مشروعة، ووقعنا في مطبات ومنزلقات وصرنا شيئاً آخر، بحيث أصبحنا نترحم على أي براءة وأي إخلاص، ودخلنا بنيّة وأصبحنا بنية أُخرى؟ وهذا شيء مهم جداً، فالطموحات الجديدة والصداقات والعداوات المستحدثة نتيجة العمل، ينبغي أن لا تحدد لنا مسارات أُخرى، وتشغلنا عن الهدف الرئيسي، فقد يدخل الإنسان بنيّة وينتهي بمسار آخر، ويجد نفسه قد استُهلك في صراعات وخصومات وطموحات بعيدة كل البعد عن الأهداف والأولويات التي رسمها لنفسه، والوسائل التي اعتمدها.

في مناسك الحج، نُحرم لنؤدي العمرة أو الحج، وبعد الإحرام نعقد

التلبية، ومن ثم نخرج ونركب السيارة ونجدد التلبية، وحين ننزل كذلك، وإذا نمنا واستيقظنا أو فعلنا أي شيء أيضاً، وفي كل خطوة نخطوها يحبذ أن نجدد التلبية، حتى نصل إلى حدود الحرم، وهو الأوسع من المسجد الحرام، وتجديد التلبية معناه تذكّر أننا نلبي ونعقد الإحرام، لكي لا ننسى إلى أين نحن ذاهبون، وهكذا تجديد النية؛ فمعناه استذكار الفعل، والتأكد من أننا نسير في مسارات تنسجم مع الهدف.

هناك من يتسرب من التنظيم نتيجة الواقع الذي يجده، وبعض أسباب ذلك أنهم يرون من بعيد أنّ المشروع مهم وطموحاته عالية ورؤيته صحيحة، وهناك نقاء في ترسيخ المسار، ولكن عندما يدخلون في المشروع يجدون شيئاً آخر، فيرتبك لديهم الواقع، ولا يرون الصورة التي رأوها من بعيد، ومن المؤكد أن أقرب الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله لم يكونوا سواسية، وأتكلم عن المخلصين؛ كما في الرواية عن الإمام الصادق(عليه السلام) عن علي بن الحسين(عليه السلام) قال: (والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله)،[152]، فحتى في المخلصين هناك مراتب ورؤية متفاوتة، ومن لم يصل إلى مرتبة معينة لا يستطيع أن يفهم الأُمور والرسائل، .

إننا كمتصدين نعتبر هذه القضية محورية؛ أي تحديد الأهداف ووضع الأولويات وتحديد الوسائل والآليات والمسارات، ومراجعة أنفسنا لنتأكد هل نحن باتجاه البوصلة، أو تغيرت المسارات والأهداف في الإرباك؟ وهذا أمر مهم جداً، لئلا نكون قد بدأنا نأكل لنعيش من أجل الهدف، ثم أصبح همنا الأكل، كالبهيمة همها علفها.

كان الإمام الحكيم رحمه الله مبتلى بالعديد من الأمراض كالضغط والسكر، فكان يتناول طعامه من غير ملح أو دسم أو سكر، ولكنه لم يشتكِ في يوم من الأيام، وحينما سأله أحد أبنائه مرة عن سبب عدم شكواه من الطعام الذي يتناوله قال: نحن نأكل لكي نعيش ونشتغل، وهذا متحقق، فقد كان يأكل ليحيا، وليس العكس.

---

152. الكافي 1: 401 ح3.

الفصل الثالث

توصيات رسالية

(1)

سمات الحازم

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (أحزم الناس رأياً من أنجز وعده ، ولم يؤخر عمل يومه لغده)[153] .

تحدد هذه الحكمة العلوية المقياس في الحزم والوضوح في الرؤية ، وحينما يمتلك الإنسان الرؤية الواضحة ويكون حازماً في رأيه يحقق جميع النجاحات . وهذا الحزم ، أن ينجز ما وعد ، وحينما يتصدى للمسؤولية ، لا يؤخر عمل يومه إلى غده ، ويتميز بسرعة الانجاز وسرعة الحركة والمبادرة .

153 . عيون الحكم والمواعظ : 114 .

(2)

الهمة والحمية

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (همو الرجل على قدر همته ، وغيرته على قدر حميته)[154] .

في هذه الحكمة العلوية عقد مقارنة بين ما يحمله الرجل من همة وبين ما يقع به من هموم ، ومقارنة بين ما يمتلكه من حمية وبين ما يستشعره من غيرة تجاه وطنه وشعبه وتجاه غاياته . فإذا وجدت هذه الغيرة نرجع لنرى أنفسنا هل نمتلك الغيرة والعمل تجاه مشروعنا ، فالإنسان المهموم يجد في نفسه غيرة تجاه عمله . نسأل الله أن نكون من ذوي الهمم العالية وأصحاب الغيرة العالية على بلدنا ومشروعنا ، وأن نعمل ونبذل الغالي والنفيس تجاه العمل .

154. عيون الحكم والمواعظ : 514.

(3)

التعامل بين المال والأخلاق

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) :(إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء)[155] .

تتحدث هذه الحكمة العلوية عن أحد المفاتيح المهمة في التصدي والتعامل مع الناس في الإدارة، ومساعدة الناس بشيء حسن، وألا تبنى العلاقة على أساس المصلحية المباشرة، لأن العلاقة مع الناس على أساس العطاء والمال والمصالح المباشرة لايمكن أن تكون علاقة دائمة، وأن دولاً لا تستطيع جمع الناس بالأموال.

وتشير هذه الحكمة العلوية أيضاً إلى أهمية العلاقات الإنسانية وأهمية التواصل في كسب ودّ الآخرين، وفي توسيع الشبكة الاجتماعية. ومن يعتقد بأن المال هو المهم في التنظيم فهو مخطئ. ولكن الأساس هو الانطباع الطيب في لقاء ما والكلمة الطيبة.

إن ترسيخ وتأسيس التعاون والتعامل يتم من خلال التعاطف والتفاعل مع هموم الآخرين، وهذه هي أهم طريقة في الاستقطاب والتواصل.

155. بحار الأنوار 68 : 384 ، ح 22.

(4)

شرف الهمة

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (أحسن الشيم شرف الهمم)[156] .

الشيمة هي حالة النخوة لدى الإنسان، وأحسن حالاتها أن يتصف الإنسان بالهمة العالية. نجد الكثير من الآيات القرآنية والروايات عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الأطهار(عليهم السلام) تؤكد على موضوع الهمة. فالإنسان في واقعه يعيش تقلبات عديدة وصعوداً ونزولاً، وتقدماً وتأخراً، ولكن ما يدفع الإنسان لاستثمار الفرص هو توفر الهمة العالية، وهذه الهمة تجعله قادراً على تحويل الفرصة إلى انجاز حقيقي. فكم نحن بحاجة إلى الالتفات إلى وجود الهمة العالية فينا.

ولقد تعودنا أن نتصارح وندقق ونراجع ما نحن عليه الآن، فنتقدم وننتصر ونحتاج إلى المراجعة باستمرار والتدقيق وجلد الذات إذا احتجنا إلى ذلك. صحيح نحن في تقدم وإمكانات جيدة ولكن ليس بمستوى الطموح.

156. عيون الحكم والمواعظ : 118.

(5)

قبول النقد

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (احمد من يغلظ عليك ويعظك ، لا من يزكيك ويتملقك)[157] .

يستعرض أمير المؤمنين(عليه السلام) في حكمته هذه أحد أسس النجاح في التصدي الاجتماعي ، فعندما يتصدى الإنسان من الطبيعي أن يصيب وأن يخطئ ، وهذه واحدة من أساسيات العمل ، والإنسان عندما يكون مستغرقاً في العمل لا يمكن أن يشخص الثغرات ، وإنما يكون التشخيص من المشاهد والمتابع .

ولذا علينا الالتزام بمبدأ التقبل والنقد والمصارحة من الآخر ، ويكون ممن يستحق الشكر في منظومة العمل ، والاطراء والشكر من مقومات النجاح في العمل .

والإنسان المتصدي إذا لم يستمع إلى الملاحظة الصحيحة فمعنى ذلك أنه سوف يندفع أكثر باتجاه الخطأ ، وهذه خسارة للمفصل والمشروع . ولذا يجب أن تشيع في أوساطنا ثقافة الشكر على النصيحة .

157 . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي 20 : 258 ، ح 26 .

(6)

الإخلاص

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (إن تخليص النية من الفساد أشد على العاملين من طول الاجتهاد)[158] .

تشير هذه الحكمة العلوية إلى مبدأ آخر من مبادئ النجاح والتوفيق في التصدي للعمل الاجتماعي والسياسي، ومفادها أن الإخلاص هو من مفاتيح النجاح، وكلما اشتد الإخلاص لله تعالى، ازداد النجاح، ولولاه لما نجح العمل. والإخلاص له دور كبير في النجاحات.

وقد قرنت هذه الحكمة بين الإخلاص والتوكل على الله، وأشارت إلى وجود العنصر الغيبي في هذه النجاحات في هذه الدنيا. ونحن نقوم بهذه الأعمال بأفكارنا وجهدنا بينما تكثر أعمال الحاسدين والمنافسين والأعداء والرقباء، وحجم هذه المسائل كبير، والإنسان حين يلحظ هذه التعقيدات، يدرك صعوبة القول إن إمكاناتنا المادية هي التي تحقق هذا النجاح، بل توجد ألطاف إلهية، وإن أي إنجاز سيتحقق هو لطف من الله، وأن أي كبوة لاسمح الله هي في (الإخلاص)، والإنسان عندما يفتقد الحصانات والإخلاص سوف ينجر إلى الحالة النرجسية، وهي أن يحسب نفسه هو الذي يفهم، ويرى الناس همجاً رعاعاً، ويرى نفسه هو المسدد. ونرى هذه الحالة عند الطغاة والظالمين، وأخطر حالة يصل إليها الإنسان هي الحالة النرجسية.

158. تحف العقول : 99.

(7)

صيانة الأسرار

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (أحق الأسرار بالصيانة سرك مع مولاك ، وسره معك)[159] .

تتحدث هذه الحكمة العلوية عن جانب من التعليمات المهمة في علاقات العمل الحركي ، فحينما يكون هناك مسؤول عنك يتحتم تداول الكثير من المعلومات ، وكشف الكثير من الحقائق ، فكلنا غير معصوم عن الخطأ ، وربما يكون البعض منا في موقف غير موفق وغير مسدد ، وهنا تأتي مسألة حفظ الأسرار في دائرة العمل . وهنا يذكر أمير المؤمنين(عليه السلام) أن أحق الأسرار بالصيانة وأخطر الأسرار واكثرها ضرورة في الحفظ هي أسرار العمل . فقد يتبادل البعض الأسرار والمعلومات مع عائلته وأصدقائه وبعض العاملين معه ، وهذه من أخطر الأضرار التي تؤدي إلى إفشاء الأسرار . وقد لا يستطيع شخص أحياناً كتمان أسرار العمل ، وبالتدريج يوجد قناعة لدى الآخرين أنه ممن يفشي الأسرار ، فيغضون النظر عنه . فنحن بحاجة ماسة إلى خلق ثقافة كتم الأسرار وعدم تداولها .

إن من الظواهر المرضية وغير الصحيحة عند البعض هو التدخل للاطلاع على القضايا السرية والمعلومات الممنوعة التداول . ونحن نحرص على عدم تداولها إلا عندما تقتضي الضرورة ذلك .

وهناك اتهامات سهلة التداول ، وسرعان ما تتحول إلى قضية تتداول ويهتم بها البعض ، في حين يجب أن تبقى هذه المسائل في الدوائر المغلقة . وينبغي التأكد من المعلومة والبناء على حسن الظن .

159 . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي 20 : 245 ، ح 666 .

(8)

التركيز على العمل

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (أقصر همك على ما يلزمك ، ولا تشتغل بما لا يعنيك)[160]

يشير أمير المؤمنين(عليه السلام) في حكمته العلوية هذه إلى سبب آخر من أسباب نجاح المتصدي في العمل الاجتماعي ، وهو التركيز على العمل ، فإن التعقيدات أكبر من أن تعالج من شخص واحد ، والمهم هو التركيز ، والمتصدي يتحرك في المساحة التي تعنيه والتي يعمل عليها ويتطور فيها ، ويترك الأعمال التي لا تعنيه . وعند الانشغال في مهام الآخرين تتولد مشكلتان :

الأُولى : انشغال المتصدي عن العمل المناط به .

الثانية : عدم قدرة المتصدي على إنجاز مهمته ، وحصول إرباك للشخص الآخر المناط به ذلك العمل .

160. عيون الحكم والمواعظ : 83 .

(9)

اغتنام الفرص

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (بادر الفرصة قبل أن تكون غصة)[161] .

تشير هذه الحكمة العلوية إلى سر آخر من أسرار ومفاتيح النجاح في التصدي للعمل السياسي. وهي استثمار الفرص التي تمر على الإنسان، فإنه إذا عرف قيمتها يمكن أن يحولها إلى إنجاز وانتصار ومكسب، ومع تعدد المكاسب تتحول إلى حالة تراكمية يبني عليها ويصعد. وأما إذا لم يستطع استثمار الفرص التي هي بطبيعتها تمر مر السحاب، فسيغرق الإنسان في الماضي، وينقطع عن حاضره ومستقبله، وهذه حالة لا تنفع الإنسان في حياته، فالحياة تتحرك كحركة النهر، فيسير الماء من تحت قدميه وهو لا يستطيع أن يستفيد منه. وشتان بين من يستثمر الفرصة وبين من يعيش في الماضي ويترك العمل المستقبلي. إنه منطق اقتناص الفرص، ولذلك يجب علينا تشخيص مكامن الفرص وتحويل هذه الآفاق إلى إنجاز. وهذه خطوة أساسية تجعل الإنسان يواكب الحياة، والتنبه في حينها إلى استغلال الفرص يحتاج إلى رؤية واضحة، والذي يقدر على أن يتنبه سينطلق ويعيش الفرصة، ومن يخاف ويتردد لا يعمل ولا ينطلق (فاز باللذات من كان جسورا). نحتاج إلى تشخيص الفرص، وكيف نستثمرها ونعيشها، ونستفيد منها، حتى لا نعيش الغصة.

161. نهج البلاغة 3 : 53 كتاب 31.

(10)

المؤمن بين الصلابة والذلِ

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (المؤمن نفسه أصلب من الصلد ، وهو أذلّ من العبد)[162] .

تشير هذه الحكمة العلوية إلى حقيقة مهمة، وهي حقيقة توازن وتكامل الشخصية، وأنه يجب على الإنسان ألا تزحزحه العواصف ويكون كالصخر صلابة، وفي نفس الوقت يكون أكثر تواضعاً من العبد في سلوكه مع الآخرين. وكلما كان الإنسان في تعامله متواضعاً فُسّر ذلك بضعف شخصيته. ولقد كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) متواضعاً، يخفض جناحه للمؤمنين، ويعيش ذروة الترابية. نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الثقة العالية في النفس والعمل الصالح.

162. عيون الحكم والمواعظ : 20.

(11)

تقارن العلم والعمل

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) :(العلم يرشدك ، والعمل يبلغ بك الغاية)[163] .

تشير هذه الحكمة العلوية إلى كيفية تحقيق الأهداف والطموحات بواسطة العلم والعمل . والمقصود من قوله(عليه السلام) «العلم يرشدك» : الرؤية والبرنامج ؛ ليعرف الإنسان ما يريد وكيف يحقق ما يريد . فعلى الإنسان أن يحدد اتجاه البوصلة أولاً ، ويشخص الغايات والأهداف التي يطمح إليها في الحياة . ثم تأتي الخطوة الثانية التي أشار إليها أمير المؤمنين(عليه السلام) بقوله «والعمل يبلغ بك الغاية» ، أي أن التصدي والنزول إلى الميدان يحققان الغايات المشروعة . فمن يعمل من غير خطة ومن غير برنامج لا يحصل على ما يتمناه ولا يمكن أن يصل إلى الأهداف التي يتوخاها . وكم نحن بحاجة ماسة إلى استحضار هذه التعليمات في مسيرتنا الفتية .

163. عيون الحكم والمواعظ : 63 .

(12)

استشارة الشبان والشيوخ

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (إذا احتجت إلى المشورة في أمر قد طرأ عليك فاستبدئه ببداية الشبان ، فإنهم أحد أذهاناً ، وأسرع حدساً ، ثم ردّه بعد ذلك إلى رأي الكهول والشيوخ ليتعقبوه ويحسنوا الاختيار له ، فإن تجربتهم أكثر)[164] .

تضع هذه الحكمة العلوية خارطة طريق في إنضاج الرؤى والمشاريع ، وذلك من خلال الاستفادة من المشورة ، التي هي عرض الرأي على الآخرين لتمحيصه ومعرفة وجوهه . ولكنْ هناك فئتان من الناس يتفاوتون في تجاربهم وخبراتهم ، وهما فئة الشيوخ وفئة الشباب .

فكبار السن يمتلكون التجربة والخبرة ولكنهم بعيدون عن المجازفة ، ودائماً تكون حركتهم في المساحة الرمادية . وأما الشباب فإن لديهم الطموح والحركة نحو العمل ولكن نسبة النجاح تكون ضعيفة . فيجب أن نستفيد من كلا الشريحتين . فنأخذ آراء الشباب أصحاب الطموح والحماسة ونعرضها على الشيوخ وكبار السن ، ليمحصوها حسب تجربتهم ، وبذلك نكون قد استفدنا من جرأة الشباب وتجربة وآراء الشيوخ .

164. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي 20 : 337 ، ح 866 .

(13)

الحزم والتواني

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (الحزم بضاعة ، والتواني إضاعة)[165] .

وردت هذه الحكمة في الكلمات القصار الواردة عن أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) ، وهي ذات مداليل مهمة ، وتعتبر مفتاحاً آخر من مفاتيح التواصل والعمل الاجتماعي ؛ لأنّها تبيّن كيف ينبغي أن تكون عملية التصدي ، ونحن في هذه الحكمة أمام مشهدين : مشهد فيه حزم ووضوح وحماسة واندفاع وإقدام ومبادرة وأخذ لزمام المبادرة ، وهكذا يمكن أن نسرد العديد من المفردات التي تشير إلى حالة الإقدام والتصدي . ومشهد آخر فيه التساهل والتماهل والتواكل ، ويرمي كل شخص العمل على الآخر ويترقب التعليمات والتوجيهات حتى يتحرك ، وعدم الشعور بالمسؤولية واللامبالاة ، وهذه كلها سمات في الاتجاه الآخر الذي تسود فيه حالة التردد والتباطؤ .

وهنا يعتبر أمير المؤمنين(عليه السلام) أنّ الرأسمال الحقيقي هو حالة الحزم وحالة الإقدام وحالة التصدي ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة في قوله تعالى : ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[166] ، فإذا كُلّفت بمهمة خذها وسر وفكر وأبدع ، وحاول أن تتطور وتنمو ، وحاول أن تجد آفاقاً جديدة ، وعليك أن تستثمر هذه الفرصة .

165. عيون الحكم والمواعظ : 36 .

166. مريم : 12 .

فقوله(عليه السلام) : «الحزم بضاعة» أي أنّ رأسمال الإنسان هو الجدية والإقدام والتصدي والبحث عن المخارج للأزمات والمشاكل والتحديات التي تقف بوجهه ، وسنن الحياة تقول لنا : إنّ الله سبحانه وتعالى عندما يغلق باباً يفتح أبواباً وآفاقاً .

(14)

علاج مرض التواكل

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (واجعل لكل امرىء منهم عملاً تأخذه به ، فإنّه أحرى أن لا يتواكلوا) [167] .

يتحدّث أمير المؤمنين(عليه السلام) في هذا الحكمة عن أهمية توزيع المهام والنشاطات بين العاملين ، في الفريق الواحد ، وذلك بأن يجعل المسؤول لكل امرىء منهم عملاً من خلال تحديد الواجبات والمهام لكل واحد ممن يتخذه عضداً وعاملاً في فريقه ويحاسبه على انجازه ، فإنّه أحرى ألا يتواكلوا ويترك كل منهم المهمة لكي ينجزها غيره . وهذا هو الطريق العملي الذي يمنع من حالة التواكل والتقاذف للمسؤولية عندما يتكل كل فرد على الآخرين من أعضاء الفريق في إنجاز الأعمال المناطة بالفريق ، والطريقة المثلى لإنجاز المهام تتمّ من خلال تكليف كل فرد بمهمة محددة ، وتحديد وقت زمني لإنجازها ، ثم محاسبة الشخص المكلّف بها بعد انتهاء الوقت المحدد لها ، سواء من زاوية وقت الإنجاز بالتقدم والتأخر أو من زاوية كيفية الأداء أو من زاوية الصعوبات والعقبات التي رافقت الإنجاز وغيرها من الأُمور المتعلقة بالمهمة المناطة به .

إنّ المدخل الذي يجعل الجميع مسؤولاً أمام القيادة ، هو في تحميل المسؤولية المباشرة لكل فرد من أفراد فريق العمل ، وذلك يتم من خلال تحديد الواجبات وإفراز المهام ، وحينئذ يمكن التخلص من حالة الغموض في تحديد الصلاحيات والواجبات والمهام التي تؤدي إلى

167 . نهج البلاغة 3 : 57 كتاب رقم 31 .

التداخل والتدافع والتواكل، فتارة يمكن أن يتحرك أكثر من طرف وينجز عملاً واحداً وتحصل حالة التدافع، وهي حالة سلبية، وتارة يتكل كل فرد من المجموعة على الآخر، فيقول الأول لأتركها للثاني ويقول الثاني لأتركها للثالث فلا ينجز العمل، وهكذا يتلكأ العمل نتيجة التدافع أو التواكل أو لا ينجز أصلاً، وأفضل طريق لحسم هذا الموضوع هو نظام الملفات وتحديد الواجبات، بأن يكلّف فلان بالقضية الفلانية ويكلّف الآخر بالقضية الأخرى وهكذا.

وعلى هذا الأساس قام نظام السماوات والأرض، فنرى أنّ الذين يتسلمون الأوامر المباشرة من الله عز وجل هم ملائكة السماء المقربين، فجبرائيل لديه مهمة، وعزرائيل لديه مهمة أُخرى، وإسرافيل لديه مهمة ثالثة، ورضوان لديه مهمة رابعة، فكل منهم له مهمة محددة، يعمل بها، وهذه رسالة واضحة علينا أن نتعلم منها؛ وهي عملية التفكيك في الواجبات والمهام، ونفس الأمر نجده في أداء رسولنا الكريم(صلى الله عليه وآله) وأئمتنا(عليهم السلام) أيضاً، والشواهد كثيرة على هذه الحالة.

ومما ينبغي التنبيه عليه أنّه في المنهج الإسلامي للإدارة يجب أن يكون الواجب معروفا لكل شخص أو جماعة، ثم في داخل الفريق يكون هناك تفكيك في المهام، وحينذ لو تحقق إنجاز أو انتصار لا يصادر باسم مسؤول أو باسم شخص آخر، وسيتبين تماماً من هو الشخص الذي حقق هذا الإنجاز، وكذلك إذا حصل تلكؤ سيعرف أيضاً من الذي يعاتب ولمن يوجه الاتهام.

ولكننا نلاحظ أنّ الأمر في واقعنا على العكس من ذلك، فإذا كان هناك انتصار نرى الجميع يدعي أنّه هو من فعل ذلك، وعندما يحدث تلكؤ فكل واحد يرميه في رقبة الآخر ويتنصل الجميع من تحمل مسؤولية الفشل. وهذا هو واقع مجتمعاتنا اليوم، وعلى كل حال، فانّ مبدأ توزيع الأعمال والمهام هو مبدأ إسلامي عظيم، فحينما نتحرك وننطلق علينا أن نفرز الواجبات ونكلف كل طرف بمسؤوليات محددة، ليتبين إنجازه

فيشكر أو يتبين تلكؤه فيعاتب، وبذلك نستطيع معالجة حالة التداخل التي تؤدي إلى الكثير من الإرباك، ومعالجة حالة التواكل التي تؤدي إلى أن يتكل كل على الآخر فلا تنجز المهمة ويبقى العمل يراوح في مكانه.

(15)

محاسبة الذات

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (المؤمن نفسه منه في تعب ، والناس منه في راحة)[168] .

ترسم هذه الرواية الشريفة واحدا من أهم الملامح في البعد الإيماني من شخصية الإنسان المؤمن ، فهي تحدد له اطار سلوكه وأدائه ؛ لأنّها تركز على واحد من مفاتيح ومنطلقات بناء الشخصية السليمة ، وهي أن يبدأ الإنسان من نفسه ، فيفكر بواجباته قبل التفكير بحقوقه ، ويقف عند التزاماته تجاه الآخرين قبل أن يستذكر التزامات الآخرين تجاهه ، فيميل على نفسه ويجهدها بالتركيز على واجباته ، واستحضار مسؤولياته ، سواء التزم الآخرون أو لم يلتزموا ، وسواء وفى الآخرون أو لم يفوا ، وأن يكون المهم في نظره ؛ هل أنا وفيت أو لا ؟ ، سواء كان هذا الأنا هو الفرد أو الجماعة أو الفريق أو التيار .

إذن علينا أن نبدأ من أنفسنا فنسألها : هل خدمنا الناس؟ وهل نحن أصحاب رؤية ومشروع؟ وهل لدينا عمل مؤسسي؟ وهل نحن مسيطرون على أخلاقنا؟ وهل نحن منظمون لسلوكنا وإيقاعاتنا؟ وهل نحن متكاملون في ما بيننا؟ وهل جسّدنا في أنفسنا ما نريده للعراق ونتحدث به؟ وهل نتعب أنفسنا ونميل عليها ، ونربّي قواعدنا ثم ننطلق للآخرين؟ ، فهذه ثقافة مهمة ينبغي أن تشق طريقها بيننا وتجد لها صدى في نفوسنا وفي مجتمعنا .

168. الخصال للصدوق : 620 .

وإذا قال كل واحد منّا: لأبدأ من نفسي وأُغلّب المشروع العام على مصلحتي الشخصية وأتحمل مسؤولياتي قبل الآخرين، سواء أخطأ الآخرون أو لم يخطئوا، فإذا لم يتحمل الآخرون مسؤولياتهم فلماذا لا أتحمل أنا مسؤوليتي؟

إنّ الحوارات التي ينبغي أن تدور في المجتمع وفي داخل تيارنا هي أن نتساءل مثلاً: لماذا لا نتعامل بحرص وشفافية في الحفاظ على المال العام؟ ولماذا لا نرشح الكفوء لتولي المهام والمسؤوليات؟ وينبغي أن تشمل هذه الحوارات الجميع مهما كان حجمهم ومساحتهم في داخل التيار.

وهذا منهج إسلامي، وهو أن تبدأ عملية التغيير والاصلاح من الداخل ثم تنطلق إلى الخارج، تبدأ من الذات وتنطلق إلى الآخرين، تبدأ من القاع ثم تصل إلى الهرم والمستويات الأعلى. فمثلاً، بدأ مشروع الولاية في يوم توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) بجهود أفراد قليلين وكان الإسلام قد انتشر انتشاراً كميّاً واسعاً وكبيراً، كما شهد بذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[169].

فقد خضعت الجزيرة العربية لنفوذ الإسلام، وبدأ تمدده إلى خارجها بإرسال رسائل إلى امبراطوريات فارس والروم ومصر، وفي ذروة انتشار الإسلام توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) وبدأت حركة الردة عن ولاية أمير المؤمنين(عليه السلام)، وقد ورد في بعض الروايات: «ارتد الناس إلا ثلاثة»[170]، وفي رواية أُخرى: «ارتد الناس إلا أربعة»[171]، ويقول أحد أساتذتنا: تقصيت وتحريت عن هذه الروايات فوجدت أنّ أعلى عدد هو: «ارتد الناس إلا ثلاثين».

وكان شهيد المحراب يفسّر هذا الارتداد بأنّه ليس ارتداداً عن الإسلام،

169. النصر: 1 ـ 2.

170. بحار الأنوار 22: 440 ح9.

171. الرسالة العثمانية للجاحظ: 180.

بل هو ارتداد عن الولاية، وأنّ الشيعة الخلص في تلك اللحظة كانوا ثلاثة أو أربعة أو ثلاثين، أي أنّ المشروع الحقيقي والامتداد الحقيقي للدين الخاتم والرسالة الخاتمة كان ثلاثين شخصاً فقط على أفضل التقادير، بعد ثلاثة وعشرين عاماً من العمل الدؤوب لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، في بيئة ليست معقدة أو مركبة، بل بيئة بسيطة تعيش حالة من الفراغ؛ إذ لم يبعث الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله) إلى أُمم مشبّعة حضارياً، بل أُرسل إلى أُمة تعيش فراغا فكريا وحضاريا، فهي مثل الإسفنج قابلة لامتصاص المشروع والتمسك به، لذلك انتشر الإسلام خلال فترة قصيرة في مساحات بشرية واسعة، ولكن بالرغم من وجود شخصية بهذه العظمة، كشخصية رسول الله(صلى الله عليه وآله)، في أُمة تعيش حالة من التخلف الفكري والحضاري، وخلال ثلاث وعشرين سنة من العمل المخلص الدؤوب، ورغم الاتساع العددي الكبير ممن اعتنق الدين الجديد، ولكن لم يثبت معه في العمق على المشروع سوى ثلاثة أو ثلاثين، كما أنبأهم الله تبارك وتعالى بذلك مسبقاً في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾[172].

وبدأت المسيرة والحركة الجديدة من هؤلاء الثلاثين، حتى وصل عددهم اليوم إلى ما يقارب المائتين وخمسين مليوناً من مجموع المسلمين الذين تجاوز عددهم المليار مسلم.

وهؤلاء وإن كانوا أقل عدداً من الآخرين، ولكن نوعياً هم الأكثر من حيث إسهاماتهم وفكرهم ورؤيتهم، حتى صاروا مشروعاً عظيماً، بدؤوا من الآحاد، ثم تحولوا إلى آلاف وعشرات الآلاف ومئات الآلاف وإلى الملايين ثم إلى مئات الملايين، وهو خط صاعد في ظل الحصار والمشاكل والأزمات والاستهدافات، وفي ظل القتل على الظن والتهمة، وما زال لقب (رافضي) إلى اليوم سُبّة على الشيعي، ونحن في القرن الحادي والعشرين.

172. آل عمران: 144.

ومع ذلك اتسع المشروع الذي بدأ ببناءات صحيحة على أُسس كونكريتية صلبة، حيث ركز أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بشكل كبير على «الصفوة»، وجذّروا ورسّخوا بهم هذه المدرسة وهذا المشروع، كما كان شهيد المحراب يصطلح عليهم استناداً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾[173]، فهنا عملية انتقاء واصطفاء، وهي مرتكزات حقيقية، قليلة في عددها، كثيرة في تأثيرها؛ لأنّها ترسم مشروعاً ومساراً وخطاً وتياراً في الأُمة، ولذلك فإنّ الاتساع العددي مهم، ولكن النواة الصلبة في المشروع التي تشكل العماد الأساس أهم بكثير، وهكذا يجب أن يبدأ المشروع من ثلة من المخلصين المؤمنين بالمشروع، الذين يجب أن يبدؤوا من أنفسهم، ويتناسوا التفكير بأي امتيازات أو فرص، ويقتصروا على التفكير كيف ينتصر المشروع.

وهنالك كلمة شهيرة للعلامة المطهري يقول فيها: «البعض منا يدافع عن إسلام يكون هو حجة الإسلام فيه»، وأما الإسلام الذي لا يكون فيه هو القائد وحجة الإسلام فلا يدافع عنه، وعندما تخرج الناس خلف الشيخ الفلاني ولا تأتي خلفه يقول: هذا إسلام لا يفيدنا، وهو إسلام يفرّق الناس عنّا، ونحن نريد إسلاماً لأنفسنا وذواتنا، أي أنّ هؤلاء البعض يريد إسلاماً يكون مجرد غطاء، وليس إسلاماً يكون عنواناً للاستقطاب، ولا أن يكون هو الأصل، بل مجرد عناوين وواجهات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

173. آل عمران: 33 – 34.

(16)

الإخلاص لله

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (ما أقرب الراحة من النصب ، والبؤس من النعيم ، والموت من الحياة ، والسقم من الصحة ، فطوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته وفعله وقوله)[174] .

تشير هذه الحكمة الشريفة لأمير المؤمنين(عليه السلام) في وصيّته لابنه الإمام الحسين(عليه السلام) ، إلى المساحة الضيقة للمفاهيم المتقابلة في الدنيا ، إذ تقترب فيها المفاهيم المتعارضة بعضها مع البعض الآخر ، فالراحة والنصب كل منهما في طرف يقابل الآخر ، ولكنّهما قريبان جداً ، فربما كان الإنسان في ذروة التعب والنصب ، فيأتيه خبر طيب أو حركة جميلة ، كابتسامة من طفل ، أو استراحة أمدُها دقائق أو ساعات ، فتجعله في عالم آخر مختلف تماماً عن الحال السابق ، وهذا يعني أنّ المسافة بين الراحة والنصب قصيرة .

وكذلك فإنّ المسافة بين البؤس والنعيم قصيرة أيضاً ؛ فربما كان الإنسان في قمة الارتياح والتنعم ، فيحدث خلال ثوان أو دقائق حادث ؛ كموت عزيز أو قضية أبسط ، كسقوط طفل ، فيتحول حال الإنسان من السعادة إلى البؤس والشقاء .

وكذا فإنّ المسافة بين الموت والحياة خطوة أو لحظة ، فلو تقدم الإنسان خطوة أمام سيارة مسرعة لدهسته وعرّض نفسه للموت ، أو اتخذ

174. تحف العقول : 91 .

شخص قراراً خاطئاً في لحظة فيؤدي به إلى فقدان حياته، وربما كانت غلطة بسيطة في غرفة عمليات؛ فبدلاً من زرق العلاج الفلاني يزرق العلاج الآخر ويموت المريض، فالمسافة بين الموت والحياة قصيرة جداً.

وكذا هي المسافة بين السقم والصحة؛ إذ ربما كان الإنسان في صحة جيدة، ولكن أكلة أو نسمة هواء في حالة معيّنة يمكن أن تفقده صحته، ويتحول من حالة الصحة والعافية إلى حالة السقم والمرض.

ولما كانت المتناقضات قريبة بعضها من بعض، فإنّ معنى ذلك أنّ الدنيا لا تساوي شيئاً؛ لأنّها ضيقة ولا تساوي أن تكون الأمل والمنى والغاية للإنسان في حركته وحياته، لأنّ الشيء يمكن أن يحصل في لحظة، ويمكن أن يغيب في لحظة، فيجب على الإنسان ألا يضع رأسماله في مثل هذه الحالة، فيكون كمثل المقامر(أجلّكم الله)؛ فالمقامر يمكن أن يفقد الملايين بضربة نرد، ويمكن بضربة أُخرى أن يحصل على الملايين، فإذا حصل عليها يكون قد لعب بشطارة، وإذا فقدها فغير مأسوف عليه؛ لأنّه وضع كل رأسماله وشقائه بضربة نرد، فالدنيا كلها ضحالة، وهي كالقمار، فالذي يجعلها هي المنى والأمل والغاية، يكون قد خسر خسراناً مبيناً؛ لأنّ خيرها وشرها يمكن أن يحصلا، ويمكن أن يسلب كل شيء في لحظة أو قرار أو أبسط الإجراءات، وهنا تكمن ضحالة الدنيا، فمن غير المنطقي ومن غير المعقول المراهنة عليها، ووضعها الأمل والغاية في حركتنا وغايتنا.

ولذلك فإنّ الإخلاص لله سبحانه وتعالى يجعل الإنسان كشركات التأمين، وهذا مثل والأمثال تضرب ولا تقاس، وتقرّب من جهة وتبعّد من جهة أُخرى، فالإنسان عندما يؤمّن على ممتلكاته مثلاً يكون مرتاحاً ومطمئن البال في ذهابه ومجيئه؛ لأنّه عند تعرضه للسرقة ستدفع له شركة التأمين قيمة جميع ما سُرق منه، فهو مرتاح ويعيش بلا مشكلة لوجود شركة تأمين تضمن له ممتلكاته، وكذلك ما نحن فيه؛ فإنّ الضمان لأعمالنا في هذه الدنيا هو أن نربطها بشيء مطلق وواسع، بشيء غير متأثر بهذه الانتقالات والتقلبات السريعة والمفاجئة، نربطها بالله تبارك وتعالى بأنّ نجعلها خالصة لوجهه الكريم.

وبعد تقرير المقدمة السابقة ينتقل أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى النتيجة فيقول: (فطوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه)، أي هنيئاً لمن يكون تعلّمه لله عز وجل، وعندما يحوّل هذا العلم إلى عمل وسلوك على الأرض، يبتغي به وجه الله تعالى أيضاً، وما كان لله ينمو ويصير حسنة له، سواء أنتج نتيجة مادية مباشرة أو لم ينتج، وسواء رآه الآخرون أو لم يروه، وسواء عرفوه أو لم يعرفوه، فعلى كل الأحوال هو مؤمن وقد أخذ الحصيلة الكاملة بعين الله تبارك وتعالى.

وقد تجسّدت هذه الكلمة الرائعة بالإمام الحسين(عليه السلام) بعد أن نزل به كل ما نزل وبأهل بيته وأصحابه، قال وهو في اللحظات الأخيرة يصارع الموت على الأرض وحيداً غريباً ظمآن، وفي لحظة عزلة وغربة ووحشة: «هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله تعالى»[175]، فلا أحد يدرك عمق المحنة والمأساة، ولا أحد يستطيع تقدير ذلك، لكن يكفي الإمام الحسين(عليه السلام) راحة أنّ ما نزل به هو بعين الله تعالى، فهو الذي يرى، وهذا يكفي.

وتجسّدت هذه الكلمة أيضاً مع شيخ الأنبياء نوح(عليه السلام)، فحينما أراد الله سبحانه أن يصبّره بعد أن أمره بصنع السفينة في تلك الصحراء القاحلة، وبدأ يصنع والناس تستهزئ به، وبعد إكمال صنع السفينة لم يأت الطوفان، حيث أخّر التقدير الإلهي في الإمهال الطوفان المرة تلو الأُخرى، وحدث الانهيار النفسي عند بعض المؤمنين به في كل مهلة جديدة بسبب الضغط النفسي الهائل الذي يتعرضون له نتيجة الاستهزاء والسخرية بهم من قبل الناس، وقد ارتد بعضهم في عملية غربلة عسيرة لم يصمد فيها إلا القليل من المؤمنين الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان، وحينما جاء الأمر الإلهي لنبيّه نوح(عليه السلام) بقوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[176]، يا نوح إنّنا نرى عملك «بِأَعْيُنِنَا»، فلا يضيرك استهزاء المستهزئين، وعندما يربط الإنسان عمله بالله عز وجل فلا يهمه حينئذ ما تؤول إليه نتيجة عمله، سواء أنتج

175. موسوعة كلمات الإمام الحسين: 573.

176. هود: 37.

أو لـم ينتـج أي نتـاج مـادي مباشـر، وسـواء رضيـت النـاس أو لـم تـرض، وسـواء آمنـت أو كفـرت وغيّـرت وضعهـا وهاجمـت المتصـدي كمـا هاجمـت الإمـام الحسـن المجتبـى(عليه السلام) وسـحبت البسـاط مـن تحـت قدميـه، وكمـا حاصـرت أميـر المؤمنيـن علـي بـن أبـي طالـب(عليه السلام) فـي صفيـن وكادت أن تقتلـه وأجبرتـه علـى وقـف القتـال والدخـول فـي المفاوضـات، فـكل هـذا لا يهـم العامليـن شـيئاً، مـادام عملهـم خالصـاً لوجـه الله الكريـم.

وكذلـك «طوبـى لمـن أخلـص لله حبـه وبغضه»، فيكـون الحـب لله والبغـض لله، وهـو أمـر فـي غايـة الصعوبـة، وهـي درجـة عاليـة لا يتسـنى لـكل أحـد الوصـول إليهـا إلا بعـد أن يخـوض امتحانـات عسـيرة لا يفـوز فيهـا إلا الأوحـدي مـن الرجـال، فمـن الطبيعـي أن يحـب الإنسـان ويبغـض لنفسـه وعائلتـه وعشـيرته وأهـل بلـده لأنّـه أمـر مجبـول عليـه فـي فطرتـه، ولكـن أن يحـب ويبغض لا لنفسـه ولا لاعتباراتـه وكرامتـه الشـخصية، بـل لله سـبحانه وتعالـى فهـو أمـر يحتـاج إلـى مجاهـدة ومراقبـة وتربيـة مسـتمرة.

«وأخـذه وتركـه» أي إذا أخـذ بأمـر فإنّـه يأخـذه لله تعالـى، وإذا تركـه يكـون تركـه لله تعالـى أيضـاً.

«طوبـى لمـن أخلـص لله كلامـه وصمتـه»، أي عندمـا يتحـدث يكـون حديثـه لله تعالـى، ويعلـم بـأنّ هنـاك فائـدة ومصلحـة فـي أن يتحـدث، وإن كان هـذا الحديـث يحمّلـه تبعـات عظيمـة وقـد يسـلب منـه الحيـاة، ككلمـة حـق عنـد سـلطان جائـر.

وكذلـك إذا صمـت يكـون صمتـه لله تعالـى وإن كان صمتـه يفقـده فرصـة كبيـرة ويعرضـه للملامـة، أو يشـعر بعـدم وجـود مصلحـة فـي هـذا الحديـث إلا أن ينتصـر لنفسـه ولا يريـد أن ينتصـر لنفسـه، بـل يريـد أن ينتصـر لله عز وجـل، وعنده المنطـق الكافـي ليغيـر الانطباعـات والأوضـاع، كمـا قـال أميـر المؤمنيـن(عليه السلام): «والله مـا معاويـة بأدهـى منّـي ولكنّـه يغـدر ويفجـر»[177]، فعنده مقاييـس ومعايير،

177. نهج البلاغة 2: 18 من كلام له رقم 200.

وعنده إطار يتحرك به، وهي لا تسمح له بأن يتحرك وفق تكتيكات رخيصة ويتقدم خطوة أو جولة، ولكن من المستحيل أن يكسب معركة كاملة ويثبت الحق لنفسه وهو على باطل، ولا يستطيع أن يسلب منّي الحق ، وإن أخذ وهجاً في لحظة ما وصفّق له الجمهور واستطاع التأثير في الرأي العام.

ولقد مرّت مرحلة استمرت سنين طويلة، والإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) يُسبّ على منابر المسلمين، وكان سبّه(عليه السلام) من تمام صلاة الجمعة، حتى انّ التأريخ ينقل لنا أنّ أحد أئمة الجمعة خطب وصلّى بالناس وخرج، ثم تذكر أنّه لم يسبّ الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، فوقف في مكانه وسبّه هناك قضاءً لما نسيه، فبني في ذلك الموقع مسجد سُمّي مسجد الذكر، وهو موجود بمصر، وحينما انتشر خبر استشهاده(عليه السلام) في محراب صلاته قالوا: أكان علي يصلي ليُقتل في محراب صلاته ؟[178].

هكذا كانت الصورة عن مولى الموحدين(عليه السلام) لدى الرأي العام، فإذا كان علي(عليه السلام) يُستبعد ويُستغرب أنّه كان يصلي، فكيف بنا نحن الذين من أتباعه وشيعته! مع أنّه كان ولا يزال المعيار الناصع والمقياس الواضح الذي يميّز الحق عن الباطل على طول التأريخ الاسلامي والإنساني.

ولذلك فإنّ من كان عمله لله عز وجل يستطيع أن يستوعب ظروف المرحلة واستحقاقاتها، ويهضم كل خطوة ويتجاوزها فيثبت ويستقيم، ومن كان عمله للدنيا فإنّه سوف ينهار عندما يتعرض لمثل هذه الأُمور؛ لأنّه يشعر بأنّه بنى وتعب وعمل للناس ولكنهم ليسوا معه، فنراه يصرخ: لماذا لا يُسمع كلامي؟! مع أنّه مشكوك به، وتحوم حوله مئات الشائعات والشبهات وهو يدافع عن الباطل، فلا يستطيع الصمود ويشذ ويكفر ويخرج من الطريق، وتحصل له ارتدادات خطيرة حتى يخاطر بمساره.

ولذلك حينما يربط الإنسان عمله بالله تبارك وتعالى ويجعل الله غايته ومناه، يشعر بقوة وصلابة وثبات، ويأخذ أجره على كل حال، مع أن الناس

178. تدوين السنة الشريفة للسيد الجلالي: 539.

لا تعرف ولا تقدّر، كما قال الله تعالى عنهم في كتابه الكريم: (الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، أي أنّ الأُمة كلها ضدكم، والرأي العام كله ضدكم، فخافوهم، فإنّ من كان وحده في مقابل أُمة، فمن الطبيعي أن يدخل الخوف في قلبه، ولكنّهم كانوا على عكس ذلك: (فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[179]، أي أنّه لا فرق عندهم سواء كانوا أفراداً معدودين أو كانوا آلافاً مؤلفة، وهذا رسول الله(صلى الله عليه وآله) لم يختلف شعوره النفسي عندما كان محاصراً مع عشيرته من بني هاشم في شعب أبي طالب(عليه السلام)، أو عندما دخل مكة فاتحاً.

وتمتد هذه المشاعر إلى غير المعصوم أيضاً، فالإنسان العالم والإنسان الصالح كالإمام الخميني (قدس سره)، وبعد أكثر من عشرين سنة قضاها في الغربة والهجرة والمنفى، عندما نزل من الطائرة في مطار طهران وجّه له أحد المراسلين السؤال الأول: ما هو شعوركم وأنتم تعودون إلى أرض الوطن؟ وهو سؤال تقليدي، فكان جواب الإمام الخميني لهذا المراسل: «إنّي لا أملك شعوراً خاصاً؛ خرجنا لله وعدنا لله»، في حين كان الشعب الإيراني قد خرج عن بكرة أبيه لاستقباله!.

وهكذا كان خروجنا سراً فرادى غرباء في ليلة ظلماء، وأجهزة السلطة تتعقبنا وتقتفي آثارنا، وعدنا اليوم ولا فرق عندنا بين أن يجتمع الناس من حولنا، أو يتفرقوا عنا؛ فنحن نعمل لله تعالى سواء خرجوا أو لم يخرجوا.

ثم يواصل الإمام الخميني كلامه قائلاً: «أجرهم ـ أي الناس ـ على الله ولا يستطيعون أن يؤجروني»، فإذا كان عملي خالصاً لله تعالى فهو الذي يؤجرني، ولا يستطيع هؤلاء الناس أن يعطوني أجر عملي الذي كان لله تعالى.

ومادامت المسألة ترتبط بالإخلاص لله عز وجل، فلذلك أوصي نفسي أولاً وثانياً وعاشراً وأوصيكم أيضاً أحبتي، أن تكون أعمالنا خالصة لله

179. آل عمران: 173.

تعالى، وأن نحاول بالرغم من أنّها صعبة جداً، وإن كانت سهلة بالكلام، ولكن عندما يكون الإنسان على المحك، فإنّ ذاته ومصلحته وأنانيته تحول دون ذلك، وإنّه لأمر صعب للغاية، ولكن دعونا نحاول ونجرب ونستذكر ونسأل أنفسنا ـ فإنّ الإنسان على نفسه بصيرة ـ عندما نتكلم، هل كان كلامنا لله تعالى أو ليقولوا كذا وكذا؟ وعندما أخطو خطوة، هل هي لله تعالى أو ليراها فلان وفلان؟ وهكذا، فإذا بدأنا نجرب ونعرف كم من أقوالنا ومواقفنا وسلوكنا وصبرنا وثباتنا ومحنتنا وألمنا لله تعالى، فهذا شيء عظيم.

وأنا أذكر لعزيز العراق، أنه عندما تأتي المحن والآلام والتحديات الخطيرة التي تعصف وتهز الكيان، كان يكثر الصمت وتخرج منه كلمة واحدة بين فترة وأُخرى، ومن الممكن أن تكون بدون اختيار، يقول: (أكو الله)، ونسأله عن بعض الأشياء في منعطفات خطيرة جداً، فيصبر ويطرق برأسه ويقول: (أكو الله)، وكان يقولها بثقة تُشعر الإنسان حينما كان يستمع إلى هذه الكلمة بأنّه كان صادقاً حينما ينطق بها، فهو لا يريد بهذا الكلام أن يجامل، وبالفعل تحل الكثير من المسائل على بساطتها بعمق الإخلاص لله، عندما يكون العمل لله والكلام لله والإقدام لله والإحجام لله.

نسأل الله أن يوفقنا إلى أن نكون كذلك، والحمد لله رب العالمين.

(17)

الصبر والثبات والاستقامة

عن الإمام محمد بن علي الجواد(عليه السلام) : (قال له رجل : أوصني ، قال(عليه السلام) : وتقبل؟ قال : نعم . فقال(عليه السلام) : توسد الصبر ، واعتنق الفقر ، وارفض الشهوات ، وخالف الهوى) [180] .

تضمنت هذه الحكمة الشريفة للإمام الجواد(عليه السلام) فقرات عديدة :

الفقرة الأُولى : «قال له رجل : أوصني . قال : وتقبل؟ قال : نعم»

وهنا درس مهم، وهو أن كثرة التوصيات لا تعني الكثير، بقدر ما تعني أهمية تنفيذ هذه التوصيات، وقد يصبح عند البعض هوس في طلب النصيحة كلما جلس في مكان.

فسأله الإمام(عليه السلام) : هل تتحمل وتتقلد هذه المسؤولية وتعمل بما اوصيك به؟ فأجابه الرجل بالإيجاب، وبعد أن أخذ منه الإمام(عليه السلام) عهداً بتنفيذ ما سوف يوصيه به بدأ بنصحه، وكان المعروف عن سماحة آية الله العظمى المقدّس الشيخ محمد تقي بهجت رحمة الله عليه حينما يُطلب منه النصح، أن لا يقدّم النصيحة دائماً، وفي إحدى المرات أصرّ أحدهم كثيراً وألحّ عليه بأن يقدّم له نصيحة، فقال له : أنصحك بأن تعمل بما استمعت إليه من نصائح سابقة! فمن المهم للإنسان أن يفكر بالعمل ويخطط له، ويعود إلى مدركاته وفهمه وتصوره عن مجمل مسؤولياته وواجباته.

180. تحف العقول : 454.

الفقرة الثانية : «قال(عليه السلام) : توسّد الصبر» .

كانت الوصية الأُولى من الإمام الجواد(عليه السلام) لهذا الرجل هي الصبر والثبات والاستقامة وتحمّل المنغصات، وهذا واحد من أهم عناصر القوة في شخصية الإنسان في مواجهة تحديات الحياة، شأنه شأن المسلسل الذي يتابعه الإنسان؛ ففي كل حلقة يُختم بخطوة مثيرة حول ما سيحدث وتنتهي الحلقة، وتأتي الحلقة الأُخرى وتنتهي بنفس الإثارة في ختامها، وهكذا إلى أن ينتهي المسلسل.

وكذلك هي حياتنا؛ فيها تحديات كبيرة وخطيرة ومنعطفات، ولكن الإنسان الصبور يستطيع أن يتجاوز هذه التحديات من دون أن تؤثر في مساره، أو يستطيع أن يروضّها ويتكيّف معها، ولذلك فإنّ الصبر عنصر مهم من عناصر القوة، وسلاح فتاك يستطيع به الإنسان أن يتخطى العقبات مهما كانت كبيرة، فالوصية الأُولى هي أنّ على الإنسان أن يصبر ويتحمل ويزن الأُمور ولا يتعجل؛ لأنّ من طبعه وسجيته الاستعجال، كما بيّن الله تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[181]، فهو عجول، وعندما يريد أن يصبر ويعمل على خلاف طبعه وخلاف تكوينه وشخصيته، يجد صعوبة في ذلك، ولذا نرى كثيراً من الناس يندفع ولا يستطيع أن يصبر.

الفقرة الثالثة : «واعتنق الفقر» .

والنصيحة الثانية للإمام الجواد(عليه السلام) لهذا الرجل الذي استنصحه، هو أن يكون زاهداً في الحياة وأن يقنع بالقليل، وهذه القناعة هي ملكة أخلاقية ولا علاقة لها بالبخل، فالفقر ليس بخلا، وينبغي أن يكون الإنسان كريماً مع الآخرين، ولكن حياته الشخصية يجب أن يكون فيها حساب وكتاب، وهو أمر مهم، وقد سبق أن ذكرت في أحوال شهيد المحراب والمرحوم السيد الوالد اللذين عشنا أوضاعهما الداخلية، ولاحظنا كيف يتعاطيان مع مفردات الحياة، وهكذا تربينا منذ الطفولة؛ أنّه ليس هناك شيء مفتوح، حتى الشيء البسيط.

181. الإسراء: 11.

وليس المهم الكلفة المالية، بل أخلاقية القناعة، في الملبس والمأكل والتأثيث وطبيعة التجملات في حياة الإنسان، وهذه أخلاق مهمة، يجب على الإنسان أن يتعلمها، فمثلاً هناك فاكهة سعرها غال، وفاكهة أُخرى سعرها رخيص، وبسطاء الناس يأكلون الفاكهة الأرخص، وكل فصل له فاكهته الخاصة التي تكون متوافرة بكميات كبيرة، فيكون سعرها أرخص في أواسط الموسم، حيث يستطيع شراءها أكثر الناس، وليس بالضرورة أن يأكل الإنسان كل أنواع الفاكهة، بل ينبغي أن يكون ذلك حسب الإمكانات والظروف، وليس الإمكانات الشخصية بل الإمكانات المتوافرة لدى عموم الناس.

إذن، إذا كان سعر الفاكهة مثلاً غاليا، وكان لديّ المال الكافي لشرائها، ولكن عموم الناس لا تستطيع شراءها، فلا ينبغي شراؤها وأكل ما لا يأكله الآخرون، وكنّا عندما ندخل بيت شهيد المحراب نجده كسائر بيوت بسطاء الناس، وكانت حياته ومأكله ومشربه وملبسه، مثل عموم الناس، فمثلاً كان يلبس «الدشداشة» الصينية التي يشترونها له بعشرة أو عشرين ريالا، في حين كانت تأتيه هدايا كثيرة من الأقمشة الراقية، ولكنّه كان لا يلبسها ولا يرتاح لها، وكان يأنس بالملبس البسيط، حتى أصبحت البساطة جزءا من حياته، وكان يراقب الطبخ أيضاً، فإذا كانت الكمية أكثر من عدد أفراد الأسرة يعاتبهم، وكان حريصاً دائماً على أن يُطبخ الطعام بمقدار محدد، وإذا زاد أحياناً فلا يذهب إلى سلة المهملات، بل يوضع مرة أُخرى في السفرة ويؤكل، أو يُعطى للطيور والدجاج.

وكان كل شيء في البيت محسوبا حساباً دقيقاً، وليس هناك إسراف ولا تقتير، وهذه حالة مهمة ينبغي أن توجد فينا ونعوّد أنفسنا على هذا المنهج، حتى إذا أتانا اليسر في يوم ما أخذنا حصتنا، وبذلنا الباقي للإنفاق العام أو في مساعدة الآخرين، وإن ذهب اليسر وجاء العسر، نكون قادرين على التكيف مع القليل نحن وعوائلنا بلا مشقة، وهذه التربية ينبغي الالتزام بها لما أجده من بعض أخواني من إنفاقات زائدة، وطريقة تعامل تختلف

عـن الطريقـة التـي ألفناهـا وتعلمناهـا ، فهنـاك إسـراف وبـذخ وإنفـاق بـلا مبـرر ، وينبغـي أن نضـع حـداً لمثـل هـذه السـلوكيات التـي لا تنسـجم مـع خطنـا الرسـالي الـذي نتبنـاه ، ولا مـع الحيـاة التـي عاشـها أئمتنـا المعصومـون ومراجعنـا الكـرام التـي اتسـمت بالبسـاطة والتقشـف ، ويجـب علينـا الاقتـداء بهـم فـي سـلوكنا وحياتنـا فـي كافـة أنحائهـا .

وعلينـا أن نسـأل أنفسـنا ؛ لـو كانـت لدينـا الإمكانـات الماديـة للذيـن يعيشـون حياتهـم بتـرف ، فكيـف سـنتعامل معهـا ؟ هـل سـنعيش مثلهـم أو نختلـف عنهـم ؟ إنّـه ليـس مـن القناعـة أن تكـون لدينـا الإمكانـات الماديـة المتاحـة للمترفيـن ، ثـم نتعامـل معهـا بالإسـراف والتبذيـر ، وهـذا مفتـاح آخـر مـن مفاتيـح النجـاح ، وسـر مـن أسـرار القـوة ورفـض الشـهوات .

والفقـرة الرابعـة : «وارفـض الشـهوات» ، الشـهوات لا تعنـي الأُمـور المحرمة ، بـل قـد تكـون أحيانـاً مـن الأُمـور المحللـة ، كأن يأنـس الإنسـان بشـيء ويشـتهيه مـن الأطعمـة والأشـربة والملابـس والراحـة والاسـترخاء ، وهـذه مسـألة يجـب السـيطرة عليهـا ، وكذلـك ينبغـي أن تكـون حركاتنـا مضبوطـة ، وألا تتحـول إلـى حالـة مـن الاسترسـال ، فـكل منّـا يحـب أن يجلـس مـع الاخـوان والأصدقـاء ويصـرف سـاعات طويلـة مـن وقتـه معهـم ، وهـذا وقـت بالنسـبة لأمثالنـا مـن المعنييـن بالخدمـة العامـة ثميـن ولا يعـوّض أو يقـدّر بثمـن ، فـإنّ وقتنـا ليـس لأنفسـنا ، وعندمـا نجلـس إلـى السـاعة الواحـدة ليـلاً بالمسـامرة سـنتأخر صباحـاً إلـى العاشـرة ، فنكـون قـد ضيّعنـا حـق الآخريـن ، أو نقـوم غيـر مرتاحيـن فـلا نـؤدي واجباتنـا بشـكل صحيـح .

إذن كل شـيء فـي حياتنـا يجـب أن يكـون محسـوباً حسـاباً دقيقـاً ، فيجـب علـى الإنسـان أن يلجـم شـهواته ، ولا يعطـي لنفسـه مـا تشـتهي مـن جلسـات السـمر ولهـو الحديـث والأسـفار وغيـر ذلـك ، فقـد يبـرر الإنسـان لنفسـه كل هـذه الأُمـور ، ويصـرف حصـة كبيـرة مـن وقتـه فـي مسـاحات ومجـالات خـارج المهـام المطلوبـة ، فيجـب علينـا أن نرفـض حالـة الشـهوة المنفلتـة وغيـر المنضبطـة وغيـر المحـددة بحـدود .

والفقرة الخامسة: «وخالف الهوى»، والهوى مجال لا يقف عند حدّ، وليس له سقف، وإذا أراد الإنسان أن يترك العنان لهواه، فيمكن أن يتجاوز المباح ويقتحم المحرمات ولا يقف عند حدّ، ثم يقوم بتبرير هذه الأشياء بمبررات كثيرة، ولذا يجب على الإنسان التحلي بالصبر والقناعة، وأن يعلم أنّ هناك أشياء يجب أن يحجم عنها، وهي الشهوات والهوى.

وإذا استطاع الإنسان أن يحقق ذلك، فحينئذ يمكن أن يصل إلى شخصية متوازنة، ويستفيد من المحللات ويروّح عن نفسه ويهدئ من غليلها، من دون أن يبالغ في ذلك، بأن يلزم نفسه بمحددات معينة في الحياة، ويكون قنوعاً في تعاطيه مع مختلف الأُمور، فيرضى بما قدّر الله تعالى له، والقناعة تستتبع الرضا، والرضا يوفر الاستقرار، فإنّ الإنسان غير الراضي يكون غير مرتاح وفي حالة غليان دائم، فيعيش همّا يوميا مستمرا، فمثلاً يحدّث نفسه بأنّ فلاناً يملك البيت الفلاني وأنا لا أملك مثله، وكذلك نوع وسعر السيارة أو الأثاث. وهكذا، وعينه على الآخرين، مع أنّ هناك دائماً من يمتلك أكثر مما نملك، فيبقى الإنسان غير القانع في حالة من القلق المستمر، فعدم القناعة تجعل صاحبها في دوامة ليس لها حدود، ويضيع في متاهات لا آخر لها، بينما القناعة تجعل الإنسان يشعر بالرضا، والرضا يوفر الاستقرار، وهو يعني الهدوء النفسي، وهو شيء مهم.

وكذلك الأمر في مسألة الصبر والثبات، وهو عنصر أساس في تجاوز ما نعانيه من مشاكل، وهو سر النجاح في الحياة، وهو أمر ليس غامضاً ولا مجهولاً، ويبدأ بخطوات بسيطة ولكن مدروسة، وهي بمثابة بنى تحتية وخطوط إستراتيجية، ويبنى عليها الآلاف من المواقف التفصيلية الأُخرى، والبناءات إذا كانت صحيحة، فإنّ الأشياء الأُخرى ستنتظم من تلقاء نفسها، وحينئذ سنمسك الخيط والشريان الأصلي والمواقف التفصيلية ستلحق بها وتترتب عليها. نسأل الله تبارك وتعالى أن نكون من العاملين المخلصين، وأن نستفيد ونستثمر مثل هذه الوصايا لأئمتنا الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(18)

الأخوة الإيمانية وقبول العذر

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (اقبل عذر أخيك ، فإن لم يكن له عذر فالتمس له عذراً)[182] .

تمثل هذه الحكمة العلوية الشريفة واحدا من المفاتيح المهمة في التواصل الاجتماعي في دائرة المؤمنين ، لأنّ الحديث عن العلاقة مع غير المؤمنين، تدخل فيه معايير أُخرى ، منها التكبر على المتكبر عبادة ، والظهور بمظهر العزة والكرامة ، والانتصار للمؤمنين ، وعدم خفض الجناح للكافرين ، وعدم اتخاذ الكافر ولياً إلى غير ذلك مما ورد في النصوص . ولذلك فحديثنا اليوم في هذه الحكمة عن المؤمن .

تناولت الجملة الأُولى : «اقبل عذر أخيك» قبول عذر المؤمن ، فالإخوة الإيمانية هنا يجب أن تكون الوجهة الخلفية والمنظار في الرؤية ، وتقييم الموقف مع الأُخوة مختلف عما هو مع الآخرين ، والأساس فيه هو قبول العذر ، والاستماع إلى المبررات وقبولها .

وإذا كان الموقف واضح الخطأ وواضح الالتباس ولا يتحمل التبرير ، بحيث لا يملك حجة وعذراً ، فهنا تأتي الجملة الثانية في الحكمة ، لتبيّن الموقف الصحيح فتقول : «فالتمس له عذراً» ، فتقول مثلاً : إن شاء الله لم يكن يقصد ؛ لأنّ هذا الكلام ليس له تفسير آخر إلا الإساءة ، مع ذلك كان سبق لسان ، فتلتمس له عذراً في الموضع الذي ليس له تبرير وعذر مقبول فيه .

182. تحف العقول : 112 .

وقد عكست ثقافة أُذن الخير التي جسّدها رسول الله(صلى الله عليه وآله) في خُلقه العظيم، كما شهد له القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿أُذُنُ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[183]، فرسول الله(صلى الله عليه وآله) كان أُذناً، بمعنى أنّه يقبل من المؤمنين أعذارهم عندما يسيئون إليه، وكان يكتفي منهم أن يقولوا: لم نقل ذلك، أو لم نكن نقصد، أو كان كلامنا في غير هذه الأجواء، أو نُقل إليكم مقطع من الكلام، وأي شيء يقال كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقبله.

وهذا المنطق في دائرة المؤمنين منطق مهم، فالذي لديه عذر نقبل عذره، وهذا يتطلب المصارحة، فان هناك كماً هائلاً من الملاحظات والحساسيات التي توجد نتيجة التباعد والوشايات والمنقولات، من أُناس يُظهرون أنفسهم بمظهر الحرص، مع أنّ الذي ينقل كلاما عن أخيك المؤمن ليحرضك عليه لا يمكن وصفه بالحرص، فهو قد زرع في قلبك الشك به، ومن ينقل لك اليوم ينقل عنك غداً، ومن يظهر بمظهر الحريص عليك سيكون حريصاً على غيرك غداً، وبهذا المنطق ستتحول هذه الظاهرة إلى حالة مرضية، فالفتنة والوشاية والوقيعة، هي من أفعال شخص مريض نفسياً، فتظهر هذه الحالة المرضية من خلال تحريض البعض على البعض الآخر، من حيث يقصد أو لا يقصد، وقد أصبحت هذه الحالة عادة عند البعض مع الأسف.

ولذلك فإنّ الأساس في دائرة المؤمنين هو حسن الظن، ولذا لو نُقل لنا كلام فينا من أخ نقول: غير معقول، إنّ أخي لم يقل ذلك! فإن قيل: إنّ لدينا تسجيلاً لكلامه. نقول: لابد من أنّه قالها بغير قصد، فالأساس حسن الظن، والأساس الحمل على الصحة، والأساس خلق المبررات واختلاقها، والأساس المصارحة، والمفاتحة والمكاشفة، فنقول لهذا الأخ: هذا ما ينقلون عنك، هل قلت ذلك؟ ولا يجوز أن أحمل في نفسي شيئاً ضده وأدع الفجوة تتعمق، والحساسيات تتزايد، واتحدى أي شخص منّا أن يقول إنّه صارح مؤمناً ولم يرتح ولم تتوضح له الأُمور.

183. التوبة: 61.

إنّ دائرة التجاوز والاعتداء هي دائرة غير متصورة في الوسط الإيماني، فالمؤمن حتى لو أخطأ مع أخيه فهي مجرد ساعة انفعال، فالإنسان يتكلم أحيانا في لحظة انفعال، فلا يجوز أن نتشبث بما قال في لحظة الانفعال ونعتبره موقفاً له ونرتّب عليه الآثار؛ إذ لا يوجد منّا من هو كامل ومعصوم، ونحن بشر أصحاب مشاعر وعواطف تزيد وتنقص، وتمر علينا ساعة انفعال وغضب كما تمر علينا ساعة مزحة، بالاضافة إلى أنّه لا يوجد فينا من يراقب كلماته بدقة، وكثيراً ما تسبقنا ألسنتنا فنقول بعض الكلمات غير المناسبة وغير الصحيحة، أو نريد قول شيء ذي مداليل أخرى أعمق فنعجز عن ذلك، أو كان قصدنا بين الهزل والجد، أو كانت الكلمات بين أحاديث في سياقات أُخرى، أو كان التقييم في اطار تقييمات أوسع وفي إطار ظواهر أعمق فظهر كأنّه استهداف. فهناك إذن فرص كبيرة للتبرير.

ولذلك فالمنطق الأساس هو المصارحة والمكاشفة والقبول والتسامح، وفي الموارد التي لا نستطيع أن نصل فيها إلى الحقيقة نغمض أعيننا ونسير ونتجاوز، وكأنّه لا يوجد اعتداء من المؤمن، إذ كلما دخلنا أكثر في هذه التفاصيل، فقد لا نصل إلى نتائج محمودة، كما ورد في الحديث الشريف: «ولو تكاشفتم ما تدافنتم»، ولو أراد أحدنا الدخول في هذه العوالم، وجلب أجهزة التنصت ووضع العيون، فإنّ الأُمور ستبدأ بالتعمق لديه وتزداد سوءا، ويرى نفسه فجأة غارقاً في كم هائل من المعلومات، وحينها سيفقد الثقة بأقرب الناس إليه؛ لأنّ الواقع لا يخلو من ملاحظات ومسائل وانتقادات.

والذي يريد أن يدخل إلى هذا العالم فلن يخرج بنتيجة، ولذا فإنّ البناء هو على التساهل والتسامح وغض الطرف والتزام الأعذار، وأن نكون أكبر من هذه الأُمور، وكلما عمّق الإنسان هذه الثقافة والسلوك والمنهج رأى نفسه قريباً من الآخرين، فإنّ الطرف الآخر حتى لو كانت لديه ملاحظات، إذا رأى التعامل المقابل بهذا المستوى ستتغير قناعاته وسلوكه نتيجة هذا الموقف؛ لأنّه إنسان ذو مشاعر وعواطف وأحاسيس، خصوصاً في دائرة المؤمنين.

وكم نحن بحاجة في وسطنا الإيماني إلى هذا الخُلق، ولاسيما المتصدون منّا في العمل الجماعي والمؤسساتي، وأودّ هنا الإشارة إلى ظاهرة في تيارنا، وهي وصول شكاوى من مستويات مختلفة ومن شخصيات رسالية وصالحة بعضهم من البعض الآخر، وعندما أسمع من الطرفين أرى صورتين مختلفتين، وأصل إلى نتيجة أنّهما مع كونهما في بناية واحدة أو طابق واحد، فقد وصلتهما معلومات من مصادر أُخرى وترت العلاقة بينهما، ولو تصارحا لما وصلت الشكاوى إلى خادمكم، وهي قضايا بسيطة جدا يمكن حلّها لو أخذ أحدهما الكلام الذي سمعه ووضعه أمام الآخر، فيدافع عن نفسه بقوله إنّي لم أقل هذا، وفجأة ستنهار الأفكار والنظريات والاصطفافات والتكهنات.

ولذلك استطيع أن أجزم من خلال تجارب ملموسة، أنّ هذه القاعدة التي يذكرها أمير المؤمنين(عليه السلام) هي مفتاح مهم من مفاتيح الخير، والتآزر والتراحم والتواصل وإذابة الجليد، وصارت عندي شخصياً جرأة بالمصارحة نتيجة هذه التجارب، فرأيت أنّه مهما كانت الصورة تبدو دقيقة والناقل واثقا منها، ولكن عندما أضعها أمام صاحبها وأقول له هكذا نقلوا عنك، يعطيني مبرراً مقنعاً يكشف عن التباس عنده أدى إلى تصريح وموقف غير مسؤول، ثم يزول ويعالج، ولذلك فإنّ المصارحة والمكاشفة بمحبة وليس بعدوانية، ومن ثمّ الحمل على الصحة وحسن الظن وعبور هذه الأُمور، هي المدخل المهم لبناء علاقات إيمانية وثيقة وصحيحة، وهذا ما نتمناه أن يتحقق في أوساطنا، والحمد لله رب العالمين.

(19)

أهمية التخطيط والتدبير

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (ضع كل أمر موضعه ، وأوقع كل أمر موقعه)[184] .

تشير هذه الحكمة الشريفة من عهد أمير المؤمنين(عليه السلام) لمالك الأشتر ، إلى أهمية التخطيط والتدبير وحسن الاختيار لكل خطوة ، وأن يحسب الإنسان حسابها ، كما ورد في الحديث الشريف : «اعقلها وتوكل» [185] .

ليس هناك قواعد ثابتة في التعاطي مع الأحداث المتغيرة ، وفي مسألة التخطيط للأُمور وتحليل الظواهر ودراسة المسائل ثم اختيار الموقف الصحيح ، واختيار الرجل الصحيح الذي يمكن أن تناط به مهمة محددة ، ولدى الشهيد الصدر دراسة معمقة تحت عنوان «أهل البيت تعدد أدوار ووحدة هدف» ، يشير فيها إلى أن الأهداف واحدة ولكن تجلياتها وتطبيقاتها متعددة ، فمثلاً إذا كان الإمام الحسن المجتبى(عليه السلام) قد هادن وصالح ، والإمام الحسين(عليه السلام) قد حارب ، فليس هناك تناقض بين الموقفين .

وإذا كان أمير المؤمنين(عليه السلام) قد عاش الزهد في حياته بأعلى صوره ؛ بحيث كان يخصف نعله بيده ويرقع مدرعته حتى استحيى من راقعها[186] ، بينما كان الإمام زين العابدين(عليه السلام) والإمام الباقر(عليه السلام) يلبسان(الخز) ،

184. نهج البلاغة 2 : 109 كتاب رقم 53 .

185. مشكاة الأنوار : 551 .

186. انظر : نهج البلاغة1 : 80 الخطبة 33 ، نهج البلاغة 2 : 60 الخطبة160 .

وهو من أرقى أنواع الأقمشة في ذلك الوقت، وكانا يلبسانه فصلا واحدا ويتصدقان به[187]، ثم يشتريان جبة أُخرى من (الخز) ويلبسانها في الفصل اللاحق، وليس هناك تعارض بين هذين السلوكين؛ لأنّ الهدف واحد ولكن الظروف متعددة ومتغيرة، ولتعدد الاستحقاقات إلى غير ذلك، فالإمام الحسن(عليه السلام) صالح معاوية ثم استشهد بعد سنين، فتصدى الإمام الحسين(عليه السلام) للإمامة وبقي عشر سنين ثابتاً على نفس موقف أخيه الإمام الحسن(عليه السلام)، ولم يتحرك للثورة حتى مات معاوية وتولى يزيد الخلافة، فهيأت شخصيته المناخ المناسب للثورة.

إن الذي يريد أن يختزل شخصية الإمام الحسين(عليه السلام) ويقول هي شخصية ثورية، وشخصية الإمام الحسن(عليه السلام) شخصية تصالحية، فهو مخطئ؛ لأنّ الإمام الحسين(عليه السلام) حينما كان يعيش نفس ظروف الإمام الحسن(عليه السلام) اتخذ نفس الموقف، ولم يشهر السيف ويعلن الثورة بمجرد تصديه للإمامة، فقد كان إماماً لسنين طويلة ولم يعلن الثورة.

وهكذا نجد الأمر بوضوح في مجمل حركة أهل البيت (عليهم السلام)، فمثلاً لم يكن أمير المؤمنين(عليه السلام) أقل شجاعة من الإمام الحسين(عليه السلام)، وهو أبوهم وسيدهم، ومعروف بشجاعته وبطولته، لكنه جلس 25 سنة في بيته في سبيل الحفاظ على المشروع الذي كان يتطلب مثل هذا الموقف في ذلك الحين. ولذلك فإنّ الحكيم الفهيم هو الذي يختار الموقف الصحيح لكل مرحلة من المراحل.

وهذه الرواية تضع لنا قاعدة تقول: الرجل المناسب في المكان المناسب في الزمن المناسب، فقد يكون الشخص يصلح لموقع ما ولكن ليس في هذا التوقيت والمرحلة، وهو نافع له في مرحلة أُخرى، وكما يقال: لكل مرحلة رجالها، فكل مرحلة حسب تطور الظروف تحتاج إلى رجال من نمط معيّن للمواقع المختلفة.

187. دعائم الإسلام 2: 156 ح522، 523.

وفي مقولة الرجل المناسب للمكان المناسب في الزمان المناسب، يتدخل المكان والزمان في بيان هل هذا الشخص ملائم أو غير ملائم للوصول إلى الموقع المناسب، لأنّ الموقف الصارم قد يكون مناسباً في زمان معيّن، وقد لا يكون كذلك في زمان آخر، وقد يكون الموقف المرن مناسباً في مكان ما، ولا يكون كذلك في مكان آخر، وكذلك قد يكون موقف ما خاطئاً وله مضاعفات خطيرة في حالة ما، ولكن ليس بالضرورة أن يبقى كذلك في حالات مختلفة.

وبما أنّ الحياة مختلفة والواقع الاجتماعي يعيش تغيرات سريعة، فليس هناك تعاط ثابت ومواقف ثابتة، نعم هناك مبادئ ثابتة، ومن هذه المبادئ الثابتة وحدة الهدف، ولكن يتحقق هذا المبدأ الثابت تارة بالمرونة، وتارة أُخرى يتحقق بالشدة والحدّة والثورة.

ولذلك لا يحق لأحدنا أن يتخذ موقفاً ويقول: إنّ الإمام الفلاني اتخذ الموقف الفلاني في القضية الفلانية، فيجب علينا أن نعمل بنفس الموقف؛ لأنّ اللحظة التأريخية التي نعيشها لا تتطابق وملابسات الظرف الزمني التي عاشها الإمام(عليه السلام) لنتخذ نفس الموقف، وهذه قضية معقدة جداً، وليس من السهل تحليلها والوصول إلى استنتاج نهائي فيها، وتحتاج إلى مجتهد في الشأن الاجتماعي، يدرس الظروف الموضوعية الواقعية السياسية والاجتماعية لحالة ما، ثم يدرس الظرف المتغير الذي نعيشه في كل لحظة، لكي يستطيع أن يتخذ قراراً ما أو موقفاً محدداً.

وهذه قاعدة في العمل الاجتماعي، فلا يمكن التشبث في الالتزام بموقف معيّن كان صحيحاً وناجحاً قبل خمس سنوات في قضية ما، لنكرره في ظروف مختلفة، وكذا ليس بالضرورة أن نترك اتخاذ موقف معيّن تركناه قبل أربع سنوات ونجحنا في ذلك، وكذلك إذا عملنا القضية الفلانية ولم ننجح في المكان الفلاني، ليس بالضرورة أن تفشل إذا عملناها الآن في مكان آخر.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة يمكن أن يساعدنا، ويكون له دور كبير

فـي جعلنـا متوقديـن وحذريـن ومتريثيـن ومدققيـن فـي كل خطـوة وفـي كل ظـرف ، لنسـتلهم الموقـف الصحيـح الـذي يتطلـب اتخـاذه فـي كل خطـوة مـن خطواتنـا .

(20)

ثقافة الاعتذار وبراءة الذمة

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (من سلّ سيف البغي قُتل به ، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها ، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته)[188] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى إحدى الضمانات الحقيقية في بناء المجتمع وتواصل الناس مع بعضهم ، فالمفروض بالإنسان أن يرتبط بالله عز وجل ، وحينما يتجاوز حدود الله سبحانه يجب أن يتوب ويبتعد عن المعصية ويستغفر الله تعالى ، ويحترم حقوق الناس ، لأنّ الله تعالى جعل للناس حقوقاً ، وحينما يتعدى الإنسان على هذه الحقوق ، فإنّ الله تعالى لا يغفر له حتى لو تاب إليه ما لم يصفح عنه المعتدى عليه ، وهناك تبعات حتى بعد الاستغفار وعفو الله عنه .

إن هذا الأمر يدعو الإنسان العاقل الى أن يفكر مائة مرة قبل أن يقدم على ظلم الآخرين ، وقبل أن يتناول خصوصية الآخرين ويفشي أسرارهم مثلاً ؛ لأنّ هذا الموضوع إذا لم يكن ضمن معايير ، فستبتعد عن الصدق وتقوم بإفشاء سرّ مؤمن ، حتى لو كان ذلك السرّ قد وقع حقيقة ، فلا يجوز إفشاؤه ، إلا في حالات محدودة جداً واستثناءات أوضحتها الشريعة الغراء ، وهذا يدعو الإنسان الى أن يبقى في حالة التريث والتروي والتعمق قبل أن ينطق بكلمة أو يأتي بسلوك أو يتخذ موقفاً ما ، ولا مجال للتخلص من التبعات إلا بلقاء المعتدى عليه والاعتذار إليه وطلب مسامحته ، وهذه

188. نهج البلاغة 2 : 81 الحكمة 349 .

مسألة مهمة، في ضمان سلامة البناء الاجتماعي وأي مسألة ترتبط بالجانب الآخر.

وهناك آثار أُخرى غير الآثار التشريعية وهي الآثار الوضعية، ، فمن لم يصل رحمه لا يزيد الله تعالى في عمره، وهذا الارتباط بين صلة الرحم وطول العمر أثر وضعي، ولكن تناول الإنسان بسوء له آثار تشريعية ووضعية أيضاً، كما قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «من سلّ سيف البغي قُتل به»، فإنّ أي مستوى من مستويات استهداف الآخر له مردودات سلبية على صاحبه ولو بعد حين، قد تقتل مرة أو عشرة، لكن سيفتضح أمرك وسيرتد الناس عليك، فإنّ أي استهداف للآخر ليس شطارة، ويمكن أن يتقدم بذلك خطوة، ولكن النتيجة أنّ الناس سترتد عنك وتنقلب عليك، لأنّ «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها»[189]، فبالمكيدة يمكن أن توقع بالآخر، ولكن اعلم أنّه حينما تسيء للآخر فانّك تسيء لنفسك، والمكيدة التي تكيدها للآخر ستكون أنت من ضحاياها، وهذا ما نسميه بالأثر الوضعي.

فمن كان لديه سلوك منحرف تجاه الآخرين، فلابد من أن يُبتلى به، كما جاء في قول الإمام الصادق(عليه السلام): «من عيّر مؤمناً بذنب لا يموت حتى يركبه»[190]، فيجب على الإنسان أن يضع في علاقاته مع الآخرين تبعات هذه العلاقة إذا كانت ضمن حدود معيّنة، وهذه العلاقة قد تكون بين شخصين في المجتمع ينتميان إلى قبيلة أو وطن، أو مشروع واحد يجمعهما، وكلما كان هذا المشروع إنسانياً ازدادت الحرمة.

فيجب علينا أن يحفظ بعضنا بعضاً، ونتنبه للانطباعات داخل المجموعات والفريق الواحد، ويجب الحذر من اطلاق أي كلمة على أي شخص مهما كنّا ناصحين له، وكذا يجب الحذر من الكلمات والتكهنات والأخبار غير الموثوقة، بل حتى الموثوقة، لترتب الآثار عليها، وأما التشهير بهذا وذاك فهذه مسألة خطيرة تحتاج إلى الحذر الشديد والتدقيق العميق، ويجب أن

189. بحار الأنوار 58: 220.

190. الكافي 356: 2 ح3.

تكـون لدينـا الشـجاعة لطلـب بـراءة الذمـة ممـن صـدر منّـا بحقـه أمـر ، لنبـرئ ذمتنـا منـه ، وأنـا شـخصياً أطلـب منكـم إذا صـدرت منـي أي كلمـة أن تُبرئونـي منهـا ، وأسـتغفر الله لـي ولكـم .

(21)

فن مخاطبة الناس

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) : (خالطوا الناس بما يعرفون ، ودعوهم مما ينكرون ، ولا تحملوهم على أنفسكم وعلينا فإنّ أمرنا صعب مستصعب ، لا يتحمّله إلا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان» [191]

تشير هذه الحكمة الشريفة إلى مفتاح آخر من مفاتيح التواصل الاجتماعي ، وهو أنّه يجب علينا حينما نخاطب الناس أن نتكلم معهم بما عهدوه وعرفوه وبما يستسيغونه ويفهمونه ، فإنّ الإنسان لا يصدّق ولا يقبل بالأُمور التي لا يعرفها ويجهلها ، ويصبح لديه ردّ فعل ضدك ، كما لو تكلمنا مثلاً في المقامات المعنوية لأهل البيت (عليهم السلام) ، مع من لا يفهمها ، فإنّ مثل هذا الكلام يخاطب به الخواص ، بل وبعضه لخواص الخواص ، ولا يصح الحديث به على المنابر ، لأنّ الناس لا تفهمه ولا تستوعبه ، وحينئذ سيبدأ التشكيك به ، بل وبالواضحات من الأُمور ، ويجر إلى التشكيك بنظرية الإمامة ، عندما لا تفهم بعض المناقب والمقامات المذكورة لأئمتنا(عليهم السلام) ، لأنّه كلام لا يفهمه إلا الخواص من الناس .

ولذلك أوصى أمير المؤمنين(عليه السلام) بترك الخوض في الحديث الذي لا تستوعبه الناس ، فقال : «ودعوهم مما ينكرون» ، أي الذي لا يفهمونه ولا يتفاعلون معه ، وليس عندهم المقدمات العلمية للتصديق به ، فلا

191 . بحار الأنوار 2 : 71 ح30 .

يستطيعون أن يتقبلوه، فلا تصروا عليه، لأنّ إصراركم عليه وهم غير متفهمين له سينسحب إلى إنكارهم ما يمكن أن يتقبلوه.

وبالطبع، هذا المبدأ ليس مبدأ في العقيدة فقط، ، بل هو مبدأ في كل شيء، فمشروعنا السياسي فيه ظاهر وباطن، بل فيه بطون وأبعاد، لا يفهم عمقها إلا الذي تعرّف وتشبّع بهذا المشروع، وليس بالضرورة أن تعرف الناس كل هذه الأُمور، ولذا ينبغي أن تحدّثوا الناس بما يمكن أن يتفهموه وبما يمكن أن يتفاعلوا معه، وأما الأُمور الأُخرى التي لا يستطيعون أن يتفاعلوا معها ولا يعرفونها فاتركوها لحين مجيء الوقت المناسب ليتعرفوا عليها.

«ولا تحملوهم على أنفسكم وعلينا»، فإنّ الإصرار على الأُمور التي لا يقبلها الناس يسبّب موقفاً ضدكم، وبما أنّنا نمثّل أهل البيت (عليهم السلام) فهو يسبّب موقفاً ضدّهم أيضاً؛ إذ أنّنا أتباع أهل البيت (عليهم السلام) في البعد العقيدي وفي البعد الفكري، وعندما نتكلم في الأُمور التي ينكرها الناس وتسبب لديهم انطباعاً سلبياً، فإنّه ينسحب على أهل البيت (عليهم السلام) أيضاً، ولذا قال الإمام(عليه السلام): «فإنّ أمرنا صعب مستصعب لا يتحمّله إلا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان»، فالناس لا تستطيع أن تفهم عمق أهل البيت (عليهم السلام)، فمثلاً لا تستطيع الناس أن تعرف معنى الحديث القدسي الذي يخاطب فيه الباري جل جلاله رسوله الكريم(صلى الله عليه وآله): «يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما»[192]، فمثل هذا الكلام ليس كلاما يقال على المنابر يسمعه القاصي والداني، ولا نستطيع أن نوضحه، والناس ينكرونه، ويمتد الاستنكار لينسحب على أهل البيت (عليهم السلام).

وكذلك الأمر في مشروعنا أيضاً، فهناك بعض الأشياء لا يفهمها الناس ولا يعرفونها، وعندما نصرّ عليها سوف لا يخطئون قائلها فقط، بل سيخطئون التيار والمشروع والرموز.

192. مستدرك سفينة البحار 3: 169.

ولذا علينا استعمال مبدأ التدرج في بيان الحقائق، كما وضّحته الحكمة العلوية الشريفة: «لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كل ما تعلم»[193]، فلا تكذب وتتكلم بشيء خلاف الواقع، ولكن ليس بالضرورة أن تقول كل ما تعلم؛ لأنّ استيعاب كل الحق يحتاج إلى وقت كبير.

وعلينا أيضاً استعمال مبدأ مخاطبة الناس على قدر عقولهم، فإنّ الناس متفاوتون في مراتب إدراكهم ومستويات استيعابهم، ولذا يجب أن نكلم الناس بقدر ما يستوعبون، وليس أكثر؛ لأنّهم سينكرون عليكم ويشككون بكم وما تمثلونه من تيار ووجود.

إنّ مسألة التدرج هي مسألة مهمة، وهي تعني المرونة في عملية التثقيف، والمرونة في عملية التوجيه، ومن أمثلة التدرج في عملية البناء، قضية تحريم شرب الخمر، وقد أصبحت اليوم قضية واضحة مسلّمة، ولكنها استغرقت فترة زمنية معينة من خلال تشريعات متعددة، لأنّ ظاهرة شرب الخمر كانت ظاهرة مستحكمة في المجتمع الجاهلي، وقد استمرت في سلوك الذين دخلوا الإسلام، فلم يأت رسول الله(صلى الله عليه وآله) ليفاجئ المجتمع بتحريمها ويقول لهم؛ من اليوم يحرم عليكم شرب الخمر وإنّ من يتناولها فعقوبته كذا، بل تدرج في بيان تحريمها خلال فترة زمنية كافية لإقلاع بعض المسلمين عنها مع كل تشريع، أو ليحدّ من تناولها في بعض الأوقات، فبيّن أولاً أنّ مضار الخمر أكثر من نفعها وأنّ فيها إثما كبيرا فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[194]، ثم قال سبحانه: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾[195]، فنهاهم عن الصلاة وهم سكارى، وفي اليوم خمس صلوات في خمسة أوقات متباعدة، ومعلوم أنّ تناول الخمر يؤثر في عقل الإنسان لساعات عدّة، فامتنعوا من تناولها في أوقات النهار من قبل صلاة الفجر إلى صلاة العشاء.

193. نهج البلاغة 4: 91 حكمة 382.

194. البقرة: 219.

195. النساء: 34.

ثم بيّن أنّ الشيطان يستغل حالة السكر وفقدان العقل الذي يصاب به الإنسان بعد تناوله للخمر ليوقع العداوة بين أفراد المجتمع، وأنّه رجس، وطلب من المسلمين الانتهاء عن تناوله، فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[196]، وهكذا استمر تشريع الحرمة إلى أن وصلت إلى الحرمة المطلقة.

196. المائدة: 90 ـ 91.

(22)

الهمّة العالية

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : (ذو الهمّة وإن حط نفسه يأبى إلاّ علواً ، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلاّ ظهوراً) .[197]

تشير هذه الحكمة الشريفة لأمير المؤمنين(عليه السلام) إلى مفتاح آخر من مفاتيح النجاح والتألق والتميّز ، وهو الهمّة العالية ، فهمّة الإنسان قادرة على أن تتغلب على كل التحديات ، وأن تواجه كل المنغصات ، وأن تتجاوز المعرقلات .

والموضوع الجدير بالبحث ، هو كيف يحصل الإنسان على الهمّة العالية بالرغم من تواضعه؟ وتكمن أهمية هذا الموضوع في أنّ الهمم العالية تصنع الانجازات الكبيرة ، وتجعل الإنسان كالجبل الأشم ، وتجعله في القمة ، فيكون في موقع التألق والتميّز في الحياة ، فينظر إليه الجميع ويعرف قيمته .

لقد قضى بعض أئمتنا الأطهار سنين طويلة من حياتهم في السجون والزنازين المظلمة ، وأُريد إخفاؤهم ، ولكن تحول ذلك السجن وتلك الزنازين إلى محطة لتألقهم وعلو شأنهم ، وصارت أحاديث للناس بسبب صبرهم وثباتهم .

إنّ من يمتلك الهمّة العالية يمكن أن يتحول إلى أسطورة ، حتى وإن كان من الناس العاديين ، كمانديلا الذي قضى ثلاثين عاماً من عمره في السجن ، وتعامل بصلابة أمام السجانين والعنصرية وغيرها ، فصار شخصية

197 . شرح نهج البلاغة 20 : 289 ح304 .

عالمية، فالأمر ليس مقصوراً على الأولياء والصالحين والمصلحين الكبار، في المنظومة الأخلاقية والقيمية التي نتكلم عنها.

والسؤال؛ كيف نحصل على الهمّة؟ وكيف تكون لنا همّة عالية؟. إنّ الهمّة وليدة الدوافع، ومن يملك دافعا قويا يحصل على همّة عالية، والدوافع الهشة والضعيفة والانتهازية لا تستطيع أن تصنع وتخلق همّة عالية.

والسؤال الآخر هو: كيف يمكن أن يكون الدافع قوياً حتى نصل إلى الهمّة العالية؟. والجواب: إنّ الدافع القوي يحتاج إلى وضوح في الرؤية، وإخلاص في النية، وعزيمة في الإرادة وفي المسار، ومن يمتلك هذا الإخلاص والوضوح والغايات النبيلة تكون لديه دوافع كبيرة، والدوافع الإلهية هي أقوى الدوافع، ومن يمتلك الدافع القوي تتولد لديه الهمّة العالية، فيبقى الإنسان قوياً مهما كانت الصعاب.

وهناك من الناس، من إذا حقق تقدماً معيناً في مكسب مادي أو مكسب معنوي أو خطوة معيّنة، سرعان ما ينتعش ويكون في حالة من الزهو والعجب، وعندما يفقد شيئاً معيّناً أو فرصة معيّنة سرعان ما ينهار ويضيع كل شيء، فتكون همّته بقدر دوافعه، وعندما تكون دوافعه آنية ووقتية ومرحلية نرى سلوكه خاضعاً للحالة التي يعيشها، فمن الممكن أن يندفع في لحظة ويشعر بالنشوة فيحقق إنجازاً، ومن الممكن أن يحجم في لحظة أُخرى ويشعر بكبوة فيتراجع وتنهار لديه الكثير من الأُمور، ولكن الإنسان الذي يمتلك الدوافع الإلهية يمضي إلى الأمام مهما كانت التحديات.

(23)

تضافر الجهود وإنجاز الأعمال الكبيرة

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (من الخيط الضعيف يفتل الحبل الحصيف ، ومن مقدحة صغيرة تحترق مدينة كبيرة ، ومن لبنة لبنة تبنى قرية حصينة)[198] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى واحد من مفاتيح النجاح في هذه الحياة، وهو أنّ مضمون الخطوات التي يقوم بها الإنسان أهم من حجمها، صحيح أنّ الكم مهم، ولكن قدرات الإنسان متواضعة الكم دائماً؛ لأنها ملاحظة بطبيعة الظروف، وستكون أقل من الحاجة، فإنّ الإنسان إذا أراد أن يغطي حاجاته، يجد نفسه غير قادر على تغطيتها، مما قد يؤدي إلى الانكماش، فمثلاً إذا أراد إنسان أن يساعد محتاجاً على قضاء حاجة يتعذر عليه تلبيتها، كشراء منزل أو إرسال مريض إلى العلاج، ولم يستطع القيام بذلك بمفرده، يمتنع عن المساعدة بذريعة العيب أو قلة ما يقدمه للمحتاج، فلا يحصل المحتاج على شيء، وعندما نريد أن نقدم خطوة إصلاحية، يتبادر إلى الذهن ما الذي نستطيع أن نقدمه في هذه الفوضى والانحرافات الكبيرة؟ وبهذا لا نستطيع تقديم شيء، وهذا حال الجميع، إذن من الذي سيصلح؟!.

ولو اعتمدنا هذه النظرة؛ إما أن تتم تغطية المساحة المطلوبة بالكامل أو لا نقدم شيئا، فسوف لا نجد فرصة حقيقية في إيجاد متغيرات كبيرة أو نتائج مهمة، بينما يقول المنهج الإسلامي إن المهم هو أن تكون لديك نية المساعدة، وكما في الحكمة: (من الجود بذل الموجود)[199]، هذه قدرتي؛ كلمة حق أقولها في مكان،

198. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد20 : 292 ح347.

199. عيون الحكم والمواعظ: 119.

وخطوة صحيحة بحسب إمكاناتي في مكان آخر، ومساهمة معينة مادية أو فكرية في مكان ثالث. . وهكذا، فالسيل يتكون قطرة فقطرة ثم يصبح سيلاً يغرق المدن، ومن هذه الخطوات وكثرتها ستكون القدرات فائضة عن الحاجة، وسيجعل الله تبارك وتعالى البركة في العمل والمواقف.

إذن يجب على الإنسان أن يقدم ما بوسعه، كما نصت عليه الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[200]، فالمهم هو النية الصالحة والإخلاص لله سبحانه وتعالى، إذ من الممكن أن اشارك في هذه الحرب بسهم، وأن أسهم في حل مشكلة في خطة ورؤية وموقف، وهذا الذي أستطيع أن أقدمه يجعل الله تعالى فيه البركة، وإذا نظرنا إلى الكائنات المحيطة بنا، نجد هذه السنّة الإلهية جارية فيها؛ فهذه الشجرة الكبيرة أصلها نواة أو فسيلة صغيرة، وهذه الأنهار الكبيرة أصلها قطرات المطر التي تتجمع في جداول صغيرة، ثم تصب في مجرى واحد لتتكون هذه الأنهار، وكذلك كلمة الحق والخطوة الصحيحة في الإصلاح؛ تتراكم لتجد طريقها إلى الإصلاح الكلي والشامل لجميع مرافق الحياة، فمثلاً الاقتصاد وعدم الإسراف في الكهرباء والطعام والأشياء البسيطة في الحياة، يمكن أن تحقق الإصلاح، وكان شهيد المحراب ينزعج عندما كانوا يزيدون في الطعام من مجمل الطبخ، وهذه ثقافة صحيحة تعكس الاستفادة مما هو متاح بقدر الحاجة، والفرق بين التقتير والاقتصاد في الانفاق والمعيشة، هو أنّ الاقتصاد إيجابي والبخل سلبي.

وعلينا أن نبدأ بأنفسنا ومن الأُمور الصغيرة؛ لأنّ الاهتمام بها يؤدي إلى الاهتمام بالأُمور الكبيرة، هذا في البعد الإيجابي، وأما في البعد السلبي فكذلك أيضاً؛ فإنّ عندنا ذنوباً كبيرة وذنوباً صغيرة، وأحد الذنوب الكبيرة هو الإصرار على الذنوب الصغيرة، لأنّ شرارة صغيرة قد تحرق مدينة بأكملها، فلا يمكن أن نقول ما هي قيمة هذه الشرارة، وما الذي يمكن أن تؤدي إليه؟ لأننا سنكون شركاء في الحريق الذي سيلتهم المدينة بأكملها،

200. آل عمران: 286.

أو نقول: ماذا يمكن أن تؤتيه هذه النبتة من ثمر؟ لأننا سنكون شركاء في حرمان الناس من ثمارها وثمار كل نواة أو فسيلة يمكن أن تزرع، بذريعة أنها لو أثمرت لكان ثمرها قليلاً لا يكفي لسد الحاجة، وكذا الأمر بالنسبة للكلمة الطيبة لو استُهين بها، بذريعة أنها كلمة واحدة لا يمكن أن تؤثر شيئاً، بينما يقول الله في محكم كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[201].

وفي منطق الإسلام، فإن العامل بهذه الخطوة الصغيرة أو القائل للكلمة الواحدة، لا يستحق ثوابها فقط إن كانت خيراً، أو يستحق عقابها فقط إن كانت شراً، بل له ثواب من عمل بها، أو عقاب من عمل بها، إلى يوم القيامة، كما جاء ذلك صريحاً في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (من استن بسنّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن استن بسنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[202]، فهنا تأكيد على فكرة عدم استصغار العمل مهما كان متواضعاً، ما دام منسجماً مع جهد الإنسان، وأحياناً أستطيع أن أُقدم أكثر، ولكني لا أفعل، وهذا خطأ، فعلينا أن نقدم بحدود قدراتنا وإن كانت متواضعة، فمن الممكن أن نسهم في مساعدة منكوب بغطاء أو فراش حسب القدرة، وهذا مبدأ حيوي جداً، إذ من المهم أن نتحرك ونعمل بالممكن، ولا نحجم عن المساعدة لأنّها قليلة.

أقول هذا ونحن نمر بظروف صعبة، والكثير منا يبرر لنفسه بأنه لا يستطيع أن يقدم شيئاً، لأنّه لا يستطيع أن يتم المهمة بأكملها، فيجلس في بيته ويترك ما يستطيع القيام به، بينما علينا أن نتحرك، والله تبارك وتعالى يجعل البركة في أي نشاط وجهد وإن كان قليلاً؛ لأنّ العبرة ليست بالكثرة والقلة، بل بالإخلاص والنية الصادقة، ولأنه بتضافر الجهود تُنجز الأعمال

201. إبراهيم: 24 ـ 25.

202. بحار الأنوار 2: 24 ح75.

الكبيرة، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من الخيط الضعيف يُفتل الحبل الحصيف)، فمجموع الخيوط الضعيفة بعد فتلها يُنتج حبلاً قوياً، يستطيع أن يمسك باخرة كبيرة، ومن الشرارة الصغيرة تحترق قرية كبيرة، ومن الاساءة بحق شخص أو جيل أو جماعة، تخلق فتنة كبيرة تدوم أجيالاً، والقرية الحصينة تُبنى من لبنة فوق أخرى، ومن وضع طابوقة فوق أُخرى تبنى ناطحة سحاب، لذلك علينا أن نعمل بالممكن ولا نتوقف مهما كانت الظروف، ومهما بدا هذا الممكن قليلاً .

(24)

الارتباط بين العجز والفشل

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (من عجز عن أعماله أدبر في أحواله)[203] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى مفتاح آخر من مفاتيح التواصل الاجتماعي والتصدي للشؤون العامة ، وهو أنّ حالة الاحباط والكسل والإهمال والخوف والتردد ، وغيرها من الحالات النفسية التي تطرأ على الإنسان ، يمكن أن تغير مسار الأحداث ، وفي المقابل فإنّ القوة والشعور بالثقة والتوكل على الله سبحانه وتعالى والإقدام ، يمكن أن تحقق الكثير ، فمثلاً نلاحظ أنّ المعارك البشرية على طول التاريخ ، هي معارك معنوية أكثر منها معارك بإمكانات مادية ؛ إذ الإمكانات المادية تسهم في صنع النصر ، ولكنها لا تحسم من هو على الحق ومن هو على الباطل ، كما نشاهده في أصحاب العقيدة المنحرفة والمنظمات المتطرفة كداعش ؛ كيف يشكلون تهديداً حقيقياً بأبسط الإمكانات ، وكما نراه أيضاً في أصحاب الرؤية الحقة ؛ كيف يصنعون المعاجز من لا شيء بصبرهم وإصرارهم ، بينما نرى في الجانب الآخر جيوشاً جرارة لا تمتلك العقيدة ، تفقد الكثير نتيجة الإحباط واليأس ، صحيح أنّ العنصر المادي عنصر مؤثر ، ولكنه ليس حاسماً في كسب المعارك ، والعنصر المعنوي هو الحاسم ، وهو إما شعور بالقوة المستمدة من الله سبحانه وتعالى والاعتماد عليه ، أو شعور بالإحباط ، وهذا العنصر المعنوي يمكن أن يغير الكثير من موازين القوى ، ويجعلنا أمام مسؤولية كبيرة في تحقيق العنصر المعنوي ،

203 . عيون الحكم والمواعظ : 463 .

وذلك من خلال الاعتماد على النفس، والوقوف بوجه الأعاصير، والشعور بالعزة والقوة والمكنة، وهذا يعطي الإنسان دافعا كبيرا في ظروف المواجهة.

وهناك الكثير من الروايات في هذا السياق، منها: قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (العجز سبب التضييع)[204]، أي أنّ الإنسان يضيع نتيجة الشعور بالضعف الداخلي.

ومنها: قوله (عليه السلام): (العجز شرٌّ مطية)[205]، بئس الوسيلة التي يلتجئ إليها الإنسان، عندما يفقد المبادرة والعطاء والانجاز.

ومنها: قوله (عليه السلام): (العجز يطمع الأعداء)[206]، فالعدو عندما يجدك ضعيفاً ومتردداً يزيد من هجومه وضغطه عليك، ولكن البعض يتصور أنه إذا أظهر ضعفه للآخر فسوف يتركه، متناسياً أنّ العدو إنما يريد هلاكه، كما تجسد ذلك في يوم عاشوراء؛ عندما هجم الجيش الأموي على الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته، ولسان حالهم يقول: لا تبقوا لأهل هذا البيت باقية، كما يفهم ذلك من خطبة السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام في مجلس يزيد بن معاوية، مع سبايا الطف من نساء بني هاشم: (فكد كيدك وأسع سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا)[207]، وبقي هذا الشعار على مر التاريخ، ومن يعمم بأن الجميع سراق وفاشلون وفاسدون فهو من أعجز الناس؛ لأنّه عاجز عن إصلاح نفسه، سواء نفسه الشخصية أو الجماعية التيارية، والذي لا يستطيع إصلاح نفسه فهو من أعجز الناس.

ومنها: قوله (عليه السلام): (آفة الأعمال عجز العمال)[208]، أي أنّ الأدوات

204. عيون الحكم والمواعظ: 33.
205. عيون الحكم والمواعظ: 35.
206. عيون الحكم والمواعظ: 44.
207. بحار الأنوار 45: 135.
208. عيون الحكم والمواعظ: 181.

التي تستخدم إذا كانت منكسرة، فهذا سيكون له مردود كبير على ضياع العمل والمشروع.

ومنها: قوله (عليه السلام): (ثمرة العجز فوت الطلب)[209]، أي يضيع المشروع في ذروة الخذلان والعجز والشعور بالانكسار.

ومنها: قوله (عليه السلام): (لا تغلق باباً يعجزك افتتاحه)[210]، لا تقطع الجسور بينك وبين الآخرين.

ومنها: (لا ترمِ سهماً يعجزك رده)[211]، أي لا تطلق قولاً أو تفعل فعلاً لا تستطيع إرجاعه، وعليك أن تتعامل بالحكمة، وأن تختار التوقيت المناسب.

جميع هذه الروايات تأتي في سياق واحد؛ فالعجز والشعور بالانكسار والهزيمة النفسية والتردد والضعف، تؤدي إلى تبعثر المشروع والطاقات والإمكانات، فمثلاً لدينا ضعف مالي وشحة في تمويل مشاريعنا وأوضاعنا وملاكاتنا، وهذا يترك أعباء معينة، وهناك جو عام أنّ جميع الإسلاميين فاشلون ولصوص، ويخرج علينا أحد في لحظة ما، وفي هذا الجو العام المشحون بالاتهامات، في ظل وجود ضغوط مالية معينة ومنغصات، فتنكفئ الجماعة على نفسها فجأة، معتقدة بأنها تنقذ نفسها بهذا الانكفاء، والحال أنها تُطمع الآخر بها، فينقض عليها أكثر، وشتان بين الانحناء أمام العاصفة كتكتيك مع كامل القوة والعزة المنعة والاستعداد والتهيؤ، وبين الشعور بالخوف والانكسار والهزيمة النفسية، فهناك فرق كبير بين هذا وذاك.

حين تهب عاصفة رملية، كما نراها في بغداد أحياناً، لا يرى الإنسان أبعد من مترين، ويختفي كل شيء عن النظر، وهناك في بلدان أُخرى عواصف ثلجية، حيث يغطى الثلج كل شيء، وصحيح أنه في لحظة العاصفة يُغطى كل شيء وتنعدم رؤيته، ولكن هل يعني ذلك أنه ذهب

209. عيون الحكم والمواعظ: 208.

210. عيون الحكم والمواعظ: 517.

211. عيون الحكم والمواعظ: 522.

وانتهى؟ وهل انتهت بغداد بعاصفة ترابية؟ كلا طبعاً، فهذه العاصفة تغطي وقت مرورها المدينة، ولكن بعد زوالها تظهر المدينة من جديد، وبقليل من الغسل وإزالة التراب ينتهي أثرها، وكما قال الله تبارك وتعالى: (فأما الزبد فيذهب جفاء وما ينفع الناس فيمكث في الأرض)[212]، فالأبنية والطرقات والجامعات والمستشفيات لا يمكن أن تذهب بعاصفة، نعم يغطيها التراب ويشوش عليها، ولكن ما إن تنتهي العاصفة، حتى يعود كل شيء كما كان، لأنّ العاصفة ليست شيئاً مستمراً، بل هي أمر طارئ فقط، ويبقى الذي له وجود حقيقي وليس طارئاً.

212. الرعد: 17.

(25)

أهمية العمل بالتكليف الشرعي

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (اَنَا قاتِلُ الْأَقْرانِ ، وَمُجَدِّلُ الشَّجْعانِ ، اَنَا الَّذى فَقَأْتُ عَيْنَ الشِّرْكِ ، وَثَلَلْتُ عَرْشَهُ ، غَيْرَ مُمْتَنٍّ عَلَى اللّهِ بِجِهادى ، وَلا مُدِلٍّ اِلَيْهِ بِطاعَتى ، وَ لكِنْ اُحَدِّثُ بِنِعْمَةِ رَبّى)[213] .

تندرج هذه الرواية الشريفة ضمن العديد من النصوص التي يتحدث بها أمير المؤمنين (عليه السلام) عن شجاعته وانجازاته ، ويشير إلى أن ذكر هذه الانجازات ليس من موقع المنة والجميل على الله سبحانه وتعالى ، وإنما من باب التحدث بنعمة الله تبارك وتعالى ؛ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[214] .

وتشير هذه الرواية إلى أهمية العمل بالتكليف الشرعي ، مهما تبدو هذه التكاليف متباينة وغير منسجمة في الخارج ، وعلي (عليه السلام) الذي يمثل قمة الهرم ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ـ في امتثال التكاليف الشرعية ، كان الصورة الأكمل للجمع بين هذه التكاليف ، الأمر الذي دفع بعض الشعراء لوصف شخصيته بأنها جامعة للأضداد من الصفات ، فقال :

هو البكّاء في المحراب ليلاً هو القتّال إن جدّ الضراب[215]

213 . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي 20 : 296 الحكمة 384 .

214 . الضحى : 11 .

215 . انظر : موسوعة الغدير 4 : 26 .

فعلي (عليه السلام) الذي ينكسر قلبه وتدمع عيناه وهو يرعى الأيتام، نراه يمارس أدواراً أُخرى عندما تتطلب المسؤولية ذلك؛ فيقاتل الأقران، ومن هو قرين علي (عليه السلام) في الشجاعة؟ ويجدّل الأبطال انتصاراً لعقيدة الحق التي يحملها، فقد وقف في وجه الخوارج الذين يحملون عقيدة الباطل، ومن يحمل عقيدة، سواء كانت حقاً أو باطلاً، فهو صاحب وقفة وإقدام، فالقرين لعلي (عليه السلام) هو من يحمل العقيدة الباطلة المتمثلة بالخوارج في تلك الحرب الضروس.

(26)

الرغبة بالكلام والاستماع إلى كلام الآخرين

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (ليس يفهم كلامك من كان كلامه لك أحب إليه من الاستماع منك ، ولا يعلم نصيحتك من غلب هواه على رأيك ، ولا يسلم لك من اعتقد أنه أتم معرفة بما أشرت عليه به منك)[216] .

تشير هذه الرواية عن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه إلى مفتاح آخر من مفاتيح التواصل ، وهو مسألة الرغبة بالحديث وآدابه ، والبعض منا يعرف كيف يتحدث ، ولكنه لا يعرف كيف يستمع للآخرين ، فهو يعتقد أنه هو العارف بكل شيء ، وتراه يتكلم باستمرار أينما جلس ، فهو يحتكر الحديث ولا يعطي فرصة للآخرين ؛ فقد يتكلم نصف ساعة ، ولكن ما إن يتحدث الآخر حتى تراه يريد أن يتحدث مرة أُخرى ، ولا يشعر بحاجة إلى أن يسمع من الآخرين شيئا ، ومثل هذا الإنسان لا يصغي ولا يقف عند الكلمات ، ولا يريد أن يعلم الحقائق ، فهو ممن أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾[217] ، لا يريد أن يسمع ؛ فهو لديه قناعات راسخة ، ومتحجر على فكرة وفهم معين ليس مستعدا لتغييره ، وهذا لا يمكن أن يتطور ، ولا يستطيع أن يبني علاقة ناجحة مع الآخرين .

(ليس يفهم كلامك من كان كلامه لك أحب إليه من الاستماع منك) ،

216 . شرح نهج البلاغة 20 : 337الحكمة 860 .

217 . البقرة : 19 .

هـذا الشـخص يرغـب دائمـاً بالحديـث، ولا يريـد أن يسـمع، بينمـا قـد يلقـي الله سـبحانه وتعالـى الحكمـة علـى لسـان السـفهاء والمنحرفيـن؛ فقـد تجـد كلمـة مؤثـرة تكـون مفتاحـاً لمشـكلة عظيمـة، يجريهـا الله عـز وجـل علـى لسـان شـرار خلقـه، لذلـك تقـول الحكمـة: (انظـر إلـى مـا قـال ولا تنظـر إلـى مـن قـال)[218]، فمثـلاً لـو قـال يهـودي منحـرف كلمـة صحيحـة فخذهـا واسـتفد منهـا، وكذلـك لـو تفـوه طفـل صغيـر بعبـارة عبّـر بهـا عـن حقيقـة معينـة فخذهـا واسـتفد منهـا؛ فـإن الله تعالـى قـد أجـرى الحكمـة علـى لسـانه.

إنّ الأمـر الإلهـي لنـا بالسـير فـي الآفـاق والأنفـس، يلزمنـا أن نفتـح أعيننـا وننظـر فـي خلـق الله سـبحانه وتعالـى، ونقـف عنـد العجائـب والظواهـر الكونيـة ونلتقـط الرسـائل المطلوبـة، فيجـب علينـا أن نكـون متفاعليـن ومسـتفيدين وملتقطيـن لـكل شـيء مفيـد فـي هـذا الكـون، وأمـا السـير فـي الأنفـس فالمـراد بـه التعمـق فـي وجودنـا واكتشـاف الحقائـق، والأمـر الإلهـي بالسـير فـي الآفـاق والأنفـس هـو إشـارة واضحـة للإنسـان؛ أنّ عليـه أن يتعلـم الكثير مهمـا كان يملك مـن القـدرات، ويفتـح عينيـه ويحلـل ويدقـق بهـذه النظـرة التفحصيـة، وأن يكـون فـي موقـع الالتقـاط والاسـتفادة، ونظـرة الاعتبـار التـي أمـر الله تبـارك وتعالـى بهـا فـي كثيـر مـن آياتـه؛ ومنهـا قولـه تعالـى: ﴿فَاعْتَبِـرُوا يَـا أُولِـي الْأَبْصَـارِ﴾[219]، وإذا وقفنـا عنـد هـذا الأمـر بالاعتبـار، نجـد إشـارة إلـى هـذه الحقيقـة؛ فعلـى الإنسـان أن يتواضـع وينظـر إلـى كل شـيء علـى أنـه مفيـد، ومـن الممكـن أن يكـون فـي كل موقـف أو كلمـة شـيء مفيـد نـزداد بـه علمـاً ومعرفـة، ويجعلنـا علـى تمـاس وتواصـل حقيقـي مـع الآخريـن.

(ولا يعلـم نصيحتـك مـن غلـب هـواه علـى رأيـك)، أي مـن اتخـذ إلهـه هـواه فميولـه ورغباتـه تتحكـم بـه وليـس عقلـه، ومـا أكثـر الأشـياء التـي يقـوم بهـا البعـض منـا وهـو يعـرف أنهـا خطـأ، ويعتـرف بالانسـياق وراء الهـوى، ولكـن حبـه للدنيـا وتكبـره وأنانيتـه تدفعـه إلـى اتخـاذ مواقـف يعـرف أنهـا خاطئـة، ومثـل

218. عيون الحكم والمواعظ: 241، 517.

219. الحشر: 2.

هذا الإنسان لا يستطيع أن يتعاطى إيجابيا مع النصائح، ولا يستطيع أن يلتقط ويوظف هذا الأمر.

(ولا يسلم لك من اعتقد أنه أتم معرفة بما أشرت عليه به منك)، عدم التسليم ناتج من حب الذات والاستعلاء، والشعور بأنه أعلم من الآخرين، فمثلاً من ينظر إلى الناس على أنهم دونه في العلم والفهم، فهو لا يرى لهم قيمة، ومن الطبيعي أن يكون غير قادر على أن يسلم للآخرين ويستفيد منهم، ولذلك فإنّ الاعتزاز بالذات هو السمة القاتلة في جهد الإنسان، وللتخلص من هذه الحالة يجب أن يكون الإنسان متواضعاً، ويستمع ويتقبل ويناقش ويدافع عن الحق، وإن كان الآخر يمثل الباطل، وهذه ليست دعوة للضعف أمام الآخرين، ولكن شتان بين أن تأخذ الإنسان العزة بالخطأ، وبين الدفاع عن الحق والثبات عليه.

انفتح وناقش وتأمل والتقط، وإذا وجدت بنظرة موضوعية أن الموقف لا يرقى إلى تغيير قناعاتك، وأن رؤيتك هي الاقوى، فالتزم بهذه الرؤية، ولقد كان شهيد المحراب يتميز بهذه الخصيصة؛ فقد كان يسألنا جميعاً: ماذا ترون؟ وما رأيكم في هذه القضية؟ ونحن شباب وبعيدون عن الساحة السياسية آنذاك، وسماحته كان يجمعنا ويسألنا عن مواقفنا وآرائنا، وجزء منها عملية إعداد وبناء، وكان يدعوني إلى قراءة كتبه قبل الطباعة، وكنت ألمس منه الصدق في الاستماع إلى الملاحظات، وليست قضية شكلية لتربية الشخص، وإنما كان يستمع ويناقش، وأحياناً كان يعمل بالكلام، وأحيانا كان يقنع الآخر بأن هذه الرؤية غير صحيحة، وهذا ما كان يعمل به مع الجميع، كلٌ حسب عمله، ويتشاور ويسأل ويستفهم، فقد امتاز بهذه الخصيصة.

من المهم أن تكون لدى الإنسان القدرة على التجرد والنظر بموضوعية، والتدقيق في ما يصدر من الآخرين من تعامل وسلوك، مهما كان مقتنعاً بأفكاره ورؤاه، ومتى ما وجد في كلام الآخر ومواقفه صدقاً وصحة يجب أن يتمسك بها.

(27)

خطورة الوساطة في تعيين المسؤولين

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (لا تقبلنّ في استعمال عمالك وأمرائك شفاعة إلاّ شفاعة الكفاية والأمانة)[220] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى مفتاح آخر من مفاتيح العمل السياسي والاجتماعي والتعاطي مع الأُمور العامة ؛ فحينما يحمل الإنسان مشروعاً على عاتقه ، ويختار في إدارة هذا المشروع من يعينه من مسؤولين وملاكات وشخصيات وعناصر يضعهم في مواقع المسؤولية ، فعليه أن لا يجامل ولا يتساهل لا يتسامح في أمرين أساسيين :

الأول : عدم قبول وساطات وشفاعات وضغوطات وترجيحات وتحفيزات وتمنيات ، في أمر لا تقبله في من تضعه في موقع المسؤولية .

الثاني : الكفاية والأمانة ، والكفاية هي القدرة والكفاءة ، فعليه أن لا يقبل أن يضع شخصاً غير كفوء في موقع المسؤولية ، مهما كانت الأسباب والاعتبارات والضغوطات والشفاعات ، كما عليه أن لا يقبل أن يعين مسؤولاً غير أمين ، أو غير معروف بالأمانة . إذن فالقوي غير المؤتمن لا ينفع ، وكذلك الأمين غير الكفوء لا ينفع ، لأنه لا يستطيع أن يؤدي المهمة أيضاً ، ويجب أن تتوافق الكفاءة والأمانة ، كما جاءت الإشارة إليه في القرآن الكريم : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[221] .

220 . شرح نهج البلاغة 20 : 276 الحكمة 184 .

221 . القصص : 26 .

لا ينبغي المجاملة في هاتين السمتين؛ فإننا إذا وضعنا شخصاً كفوءاً في موقع المسؤولية، ورفضنا الترشيحات والوساطات التي تحاول تعيين شخص غير كفوء، فإنّ المنجز الذي يحققه الكفوء الأمين سيأخذ من الوهج والصدى، ما ينسي الانزعاج الذي يحصل نتيجة ردنا لهذه الوساطات، والعكس صحيح؛ فعندما يحصل التلكؤ، فإنه حتى الذي رشح غير الكفوء سيصطف مع الآخرين الذين سيلومونه على حالة الفشل، فالشيء الصحيح أن نضع الكفوء الأمين، ونرى دائماً أن النجاح يتبناه الجميع، وكلٌ يريد أن يثبت له موقعاً في هذا النجاح، أما في حالة الفشل، فكلٌ يرمي السبب على الآخر، بل حتى لو كان مسؤول معين هو سبب هذا الفشل، فسوف يحاول أن يتنصل من المسؤولية ويرمي الفشل على عاتق الآخرين.

إذا أردنا أن نكون ناجحين، ولا خيار لدينا إلاّ النجاح، فنحتاج إلى أدوات متميزة، وإلى أذرع متميزة وكفوءة وأمينة، ونحتاج إلى فريق كفوء وأمين، وهذه قضية يجب أن لا نساوم فيها.

(28)

أهمية مراعاة الناس وعدم الإسراع بما يكرهون

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال : (لا تُسرع إلى الناس بما يكرهون فيقولون فيك ما لا يعلمون)[222] .

تشير هذه الرواية الشريفة إلى مفتاح آخر من مفاتيح التصدي للعمل السياسي والاجتماعي، وهو أنه إذا أردنا أن نحقق الإنجازات بأقل الخسائر، فعلينا بتعزيز الثقة وتطييب الخواطر، وعلينا أن نخترق القلوب، ثم بعد ذلك نتخذ الاجراءات والخطوات المطلوبة لإنجاح المشروع، وفي كل مشروع هناك خطوات محببة وأخرى غير محببة، كمثل الإنسان الذي يمر بظروف مختلفة من الصحة والمرض، فيضطر في حالة المرض إلى استعمال علاج مرّ لا يرغب فيه، ولكنه ضروري ليستعيد الإنسان صحته، وكذلك صاحب المشروع؛ فهو مضطر الى أن يتخذ خطوات ومواقف قد لا تكون دائماً مناسبة للجميع، وهذه هي سنة الحياة.

إنّ أي خطوة من الخطوات تحتاج إلى توفير الارضية والبيئة المناسبتين، ثم تتخذ بعد ذلك الخطوة المطلوبة، والعمل السياسي والاجتماعي ليس استثناءً، ويمر بلدنا اليوم بواقع اقتصادي صعب؛ إذ يفتقد إلى خدمات البنية التحتية المناسبة، من الماء والكهرباء ومجاري الصرف الصحي، وكذلك فإن توفير هذه الخدمات مجاناً وبشكل دائم، يعرض الثروة الوطنية للهدر والتلف السريع، مما يستدعي وضع ضوابط

222 . عيون الحكم والمواعظ : 523 .

مناسبة وبشكل تدريجي، لتقنين الاستفادة من هذه الخدمات بشكل صحيح، كما هو معمول به في بلدان العالم، حتى الدول الكبرى والمتطورة والثرية.

إنّ بناء اقتصاد قوي لدولة نامية، من دون اتخاذ اجراءات وخطوات قاسية ومؤلمة، ولكنها ضرورية، يكاد يكون ضرباً من الخيال لمن يفكر بعقلية بناء الدولة، وفي البدء ينبغي تعزيز الثقة، وتقديم الاهتمام ورعاية مصالح الناس والتقليل من الاضرار، وتوعية الناس ليدركوا ضرورة هذه الاجراءات في بناء اقتصاد قوي ومتوازن، ومن ثم تتخذ الخطوات اللازمة.

الفصل الرابع

وصايا شهيد المحراب للعاملين

الوصية الإولى

العمل للخدمة لا للسلطة

يقول شهيد المحراب: نحن عملنا إسلامي ورسالي، نحن لا نعمل للسلطة، نحن نعمل للخدمة، لهذا السبب يجب أن تكون الدوافع رسالية وإلهية، ويجب أن يكون العمل في سبيل الله، فأول شروط النجاح لمن يتصدى لمهمة رسالية، هو أن يكون العمل لله تعالى، أي لتحقيق مرضاة الله، وهو معنى أن يكون في سبيل الله، ويجب أن يتبين ويتضح ويظهر هذا الدافع.

ويقول شهيد المحراب: هناك أربعة أركان للعمل الذي يقصد به وجه الله تعالى، وإذا تمت هذه الأربعة يصبح العمل لله، وإذا لم تتم فإن العمل ليس لله، وهي:

أولاً: أن يكون العمل فيه إخلاص لله سبحانه وتعالى واقعاً، أي أن نشعر من أعماقنا أن العمل لله، وفي التاسع من محرم كان العمل في العمق لله، وكنا نريد أن نقول نحن أقوياء، و(نحن) أي خط التشيع وخط الإسلام وخط المرجعية، ولو قلنا نحن تيار الحكمة الوطني أقوياء، لكان من الممكن أن يقال أين حصته في هذه القصة؟ هل هو الأساس أو نحن الأساس؟ وهناك فرق بين نحن الأُولى ونحن الثانية، فالثانية تعكس الأنا الجماعية، التي ربما يشوب إخلاصها شيء من الأنانية، وأما الأُولى فهي سحق لهذه الأنانية، ولا يشوب إخلاصها شيء، وعندما نقول نحن، أي نحن في الله التي ترفع هذا الإخلاص، وهو أمر مهم في نياتنا وأعمالنا، وكذلك فإن النتائج ترتبط بهذا الإخلاص؛ أي كلما كان العمل ينمو،

فإن معنى ذلك أن العمل كان لله؛ إذ ما كان لله ينمو، وبالإخلاص تذلل المشاكل.

جميع نشرات الأنواء الجوية الإقليمية والعالمية وليست العراقية فقط، تقول بنزول مطر شديد وبرد قارص، في حين كان العراق كله مشمساً، وهواؤه لطيفا، وكان خادمكم عمار أيضاً ينغمس في عرقه ويقول في قرارة نفسه: لماذا لم أرتد العباءة الصيفية فهي أفضل من التي أرتديها الآن؟ لقد كان الجو مشمساً، ما القصة؟ وما تفسيرها؟ ليس لها تفسير، قيل لي: إن الناس لن تخرج؛ لأن الشمس لن تطلع، وسيكون المطر غزيراً، فلماذا خرجت الناس! ولماذا طلعت الشمس؟! إن معنى هذا الحماس أن هناك مخلصين لله قد خرجوا لإحياء شعائر أبي عبد الله الحسين(عليه السلام)، ولو كان إخلاصنا أكثر لكان الحاضرون ضعف العدد.

لا يكفي أن يكون بعضنا مخلصاً، بل يجب أن نكون جميعاً مخلصين، وإن كان التوفيق قد يحصل لجماعة لوجود مخلص واحد فيهم، فنداء الإخلاص: من أجل عين ألف عين تكرم، فقد تنزل الرحمة على واحد في قوم، فتشمل جميع القوم من أجله، إذن يجب أن نكون طموحين، وأن ينطلق كل واحد منا؛ ينظم ويوجه ويكوّن رؤية، ويجب أيضاً أن يكون كل فرد منا مخلصاً لله عز وجل، وعندما تكون أعمالنا لله يصبح لكلامنا تأثيرعجيب، ويكون الأجر والثواب أعظم، وتكون الآثار والنتائج أكبر، ويكون كمال الإنسان ورقيه أشد وأرفع، ويكون التأثير في الآخرين أكثر، سواء كان التأثير الروحي أو التأثير الوضعي، فهناك آثار وضعية لا نفهمها ولا نعرف ما تأثيراتها، وهذه الآية التي أستشهد بها دائماً دليل على ذلك: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[223]، لماذا تحب الناس فلاناً وتصفق له، مع أنه لا ينفق شيئاً، وتترك فلاناً مع أنه ينفق المليارات ويروج له إعلامياً؟! إن هذا يعني أن هناك

223. آل عمران: 26.

جانباً من الأسباب بيدنا، ويعتمد على مقدار ما نبذله من جهد، ولكن هناك جانباً آخر من الأسباب ليس بيد الإنسان، بل من تدبير الله تعالى، وان الآثار الروحية والآثار الوضعية على الآخرين هي غير الآثار على أنفسنا، هكذا يكون تأثير الإخلاص.

ثانياً: التقوى في الأداء، إذا كنت تريد أن تتأكد من أن هذا العمل هو لله تعالى، فيجب عليك أن تراجع نفسك وترى؛ هل تتقيد بالحدود الشرعية في هذا العمل؟ فمثلاً نحن لدينا في التاسع من محرم مراسم خاصة، فنسرع بالسيارة من أجل الوصول إلى المكان في الوقت المناسب، فيجب علينا مراعاة الناس وتجنب إيذائهم، وما إلى ذلك من حدود شرعية في العمل، فهناك حدود لما يجوز وما لا يجوز.

وفي عنوان التاسع من محرم لا بد من أن نتساءل عن الموازين والأحكام الشرعية، وشرعية العمل وأداء الوظيفة الشرعية، فهنا أربعة أُمور ينبغي مراعاتها: أولاً: الالتزام بالحكم الشرعي. ثانياً: تقيد بالحدود الشرعية. ثالثاً: عدم ارتكاب ما يخالف ما أمر الله به. رابعاً: عدم ارتكاب ما يخالف أمر الله في العمل أو في مقدماته، وهنا أيضاً أود الإشارة إلى أن شرعية الغايات لا تبرر الوسائل، فيجب أن تكون الوسائل من جنس الغايات، فإذا كانت الغايات إلهية، يجب أن تتم بوسائل إلهية، من خلال مراعاة الحلال والحرام حتى يكون العمل في سبيل الله.

ثالثاً: الالتزام بالضوابط والتعليمات ومقررات العمل المؤسسي، كما لو وضعت ضوابط معينة لبدء الدوام في الساعة الفلانية، والخروج في الساعة الفلانية، وحمل الباج الفلاني. .وهكذا، والضوابط والمقررات المؤسسية هذه جزء من كون العمل في سبيل الله، وأما لماذا العمل بالضوابط ركن مقوم للعمل في سبيل الله؛ فلأنه مؤتمن في هذا العمل، وأي مخالفة لهذه التعليمات هي مخالفة للاستئمان، ولأنك قبلت العمل بهذه الشروط والضوابط، فإن تجاوزها يعتبر سوء تقدير في حفظ هذه الأمانة، ولا نريد التعبير بأنه خان الأمانة، فالنتيجة واحدة ولكم حق التسمية فيها، فأنت أيها

المسؤول عندما وضعوك هنا بهذه الشروط، فعندما تخالف هذه الأمانة فهذا يعني أنك خنت الأمانة، فانظروا إلى هذه النقطة وإلى قدر العمق الموجود في هذه الرؤية.

رابعاً: التوكل في العمل على الله سبحانه وتعالى، فالعمل لله يستمد قوته من التوكل عليه سبحانه في أداء العمل وفي استمراره، فالتوكل ليس فقط في إيجاد العمل، بل في إدامة العمل أيضاً، ففي كل خطوة يجب أن تبقى متوكلاً على الله تعالى، وذلك بالتوجه إليه وطلب المعونة منه.

جاءني مرة أحد مسؤولي التنظيم وقال: إن (س) بدأ بتنظيم المنطقة، والآن نريد من (صلى الله عليه وآله) أن يكمل التنظيم بدلاً منه، فعندما بدأ التنظيم كان التوكل على الله، وبعد أن وُجد التنظيم نسينا الله، ونحن بحاجة إلى التوكل على الله تعالى في تأسيس العمل، وفي ديمومته واستمراره، وهذا التوكل يفيد في أُمور:

منها: التوفيق في اختيار الشخص المناسب في المكان المناسب، فأنت لا تستطيع أن تقيّم الناس وتختار؛ مثلا مشروع التاسع من محرم، كيف اخترناه؟ في يوم ما فكر فيها عزيز العراق، وهناك الكثير من مشاريعنا تبدأ بفكرة تطرح، كفكرة هذا التنظيم من جعلها في بالنا، وطوال عمرنا لم نعمل في تنظيم، فمن قال كيف أتت؟ وما قصتها؟ هناك من يقول أنا فكرت وقررت، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يوفق الإنسان في قرار صحيح أو كلمة صحيحة، يمكن أن يُغيرا مسار العالم، ومثال ذلك موقف الحر الرياحي في يوم عاشوراء، عندما ترك صفوف الجيش الأُموي وانضم إلى سيد الشهداء(عليه السلام)، مع أنه رجل عاش حياته كلها في بلاط السلاطين والأُمراء، ويقاتل تحت راية الأُمويين، وفي مقابله شمر بن ذي الجوشن الذي قضى سنوات من حياته يقاتل مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وبعد ذلك انقلب على عقبيه، وخسر التوفيق الإلهي الذي لا يناله الإنسان اعتباطاً، وهكذا فقد التوكل في ديمومة العمل واستمراره.

ومنها: الأداء الحسن، فهناك كلمة تقولها مرتين، مرة تؤثر، ومرة لا تؤثر، كنفخة على جمرة لتوقدها، ونفخة على شمعة لتطفئها؛ ففي المرة الأُولى لم يلتفت أحد إليها، وفي المرة الأُخرى كان هناك من يلتفت، لماذا؟ وكيف؟ لا ندري، وهذا هو التوكل على الله تبارك وتعالى.

الوصية الثانية

التخطيط للوقت

الوصية الثانية لشهيد المحراب للعاملين، هي أن يكون لديهم برنامج يومي، وبرنامج أُسبوعي، وبرنامج شهري، وبرنامج سنوي، ولكن مع الاسف أن حياتنا خالية من أي برنامج، وتضيع أوقاتنا هباء منثوراً، ولا نحس بالمسؤولية تجاه أعمارنا، مع أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن ثلاثة أشياء، أحدها عن عمره فيم أفناه؟ ألا يجب أن يكون لدينا برنامج يستوعب كامل أوقاتنا؟.

وكان شهيد المحراب يحرص في توصيته هذه، على أن يكون لكل واحد منا برنامج مستوعب لكامل وقته، والأمر الذي رأيته منه، وقد أوصاني به أيضاً، هو أن أضع في اليوم الواحد برنامجا ليوم ونصف اليوم؛ خوفاً من أن يأتي شخص الآن، أو خوفاً من أن يلغى أحد اللقاءات، أو خوفاً من الازدحام، أو أي طارئ آخر، والحكمة في أن يكون لدينا برنامج ليوم ونصف اليوم في اليوم الواحد، هو أن نستفرغ جهدنا في استثمار أوقاتنا لئلا تضيع دقيقة هدراً، فمهما سعينا لا نستطيع إكماله، وبالتالي نرى أنه لا يوجد لدينا وقت فراغ.

إذن ما كان يوصي به شهيد المحراب العاملين هو أن يكون لديهم برنامج يستوعب كامل أوقاتهم.

وأما فقرات هذا البرنامج وتقسيم الأوقات فيه فينبغي أن تكون كالتالي:

الحصة الأُولى: النشاط العملي، كل واحد منا لديه مهام في هذا المشروع الرسالي، ويجب أن يعطي حق هذا العمل المكلف به والمهمة

المناطة به، ولا يقولن: لم استطع اليوم إكمال عملي لإنشغالي بأمر آخر، وعليه إنجاز عمله المكلف به أولاً ثم يأتي بالأعمال الأُخرى، فأنت مكلف بمهمة في هذا المشروع، وهذا مشروع متنوع المهام، ويحمل كل واحد منا على عاتقه جانبا منه، فهو مثل قطعة كبيرة من القماش وعليها ذهب أو ألماس الذي هو مشروعنا الرسالي، فإن أنزل أحدنا يده فسيقع الذهب ويضيع جزء منه، وهذا بمجموعه يمثل الحصيلة المتكاملة لذلك العمل، فيجب إنجاز المهام المناطة به أولاً، ثم إنجاز الأعمال الأُخرى، وهذه مسألة مهمة.

وهناك مسألة مهمة أُخرى، وهي أن مهمتنا لا تنحصر في القيام بما كلفنا به، بل يجب أيضاً أن نرجع ونقيّم أعمالنا، ويجب أن نعلم أن هناك بعض الأعمال تقيّم يومياً، وبعضها يقيّم أُسبوعياً، وبعضها شهرياً، وبعضها سنوياً، والتقييم يعني المراجعة والمشورة والتأكد من صحة العمل، ويجب أن تقع هذه كلها في الأوقات المخصصة لها ضمن البرنامج، ولا ينبغي أن نجهد أنفسنا في العمل فقط، من غير أن تكون لدينا محطات للمراجعة والتقييم، فنقضي مثلاً ستة أشهر في العمل الدؤوب، ثم ننتبه لأنفسنا ونقول لو كنا فكرنا بهذا العمل منذ الأُسبوع الأول لأنجزناه منذ الشهر الأول، ولكسبنا الخمسة أشهر الأُخرى وعالجنا الثغرة الموجودة، ولهذا علينا التخطيط المتقن والتقييم المستمر، وأخذ الملاحظات من الآخرين ومراجعة العمل وتأثيراته، فليس المهم ماذا قلت أنا، بل المهم ماذا سمع الآخر، وليس المهم ما هو قصدي، بل المهم ماذا تلقى الآخر، وليس المهم أنه مفيد من وجهة نظري، بل المهم ما هو تاثر المستمع به، سواء كان حديثاً أو موقفاً أو سلوكاً.

وهناك مسألة ثالثة مهمة وهي كتابة التقارير، واعتبارها ضمن العمل، وهو أن نكتب مطالعة عن العمل، ما الذي أنجزنا من العمل، وما الذي لم نستطع إنجازه، ولا ينبغي أن نتقاعس عن أداء هذا العمل بذريعة أن الله تبارك وتعالى يعلم بحركاتنا وسكناتنا، فنحن ضمن عمل مؤسسي، وهناك

مسؤول عنك يجب أن يعلم ماذا أنجزت من العمل المطلوب منك، وكم هي نسبة النجاح، وما المعوقات، وكيف يمكن علاجها، وهذا جميعه يتطلب أن نعرف ماذا جرى.

وكتابة المطالعة أو التقرير تقع ضمن الواجبات التي ترتبط بوقت العمل، فإن أصل العمل، وتقييم العمل، وأخذ الملاحظات عن العمل، وتطوير العمل، وكتابة تقارير عن العمل، تقع ضمن وقت العمل.

الحصة الثانية: العبادة، وينبغي لنا المبادرة إلى الصلاة في أول وقتها، وعدم الانشغال عنها بأي عمل آخر، اللهم إلا إذا كان هناك ظرف طارئ يقتضي تأخيرها عن أول وقتها، وهو نادر الوقوع عادة، وإن جاز تأخيرها إلى آخر وقتها لغير عذر، ولكن المبادرة إليها أمر مرغوب في الإسلام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[224].

ماذا يعني أن يعتذر المؤمن عن المبادرة إلى الصلاة، بحجة أنه مشغول في إعداد البرنامج الفلاني مثلاً الذي فيه تقرب لله عز وجل! مع أنك تارك للأمر الإلهي في المبادرة إلى الصلاة، لكي تشتغل بشيء آخر بدعوى أنه لله، فتركت الواجب الذي فيه توقيت معين، وانشغلت بعمل آخر يمكن أن تأتي به في أي وقت آخر، أليس في مقدورك أن تصلي أولاً، ثم ترجع إلى ذلك العمل فتكمله؟.

أود أن أنقل لكم تجربتي الشخصية في كيفية المحافظة على الصلاة في أول وقتها، فمنذ وقت ألزمت نفسي بصلاة الجماعة، فإذا كنت في اجتماع، فمن السهل أن أقول حان وقت الصلاة، لأني استطيع الاعتذار عن مواصلة الاجتماع ما دامت هناك صلاة جماعة، فأقول: تفضل نصلي وبعد ذلك نكمل الحديث، وإذا كنت لا تريد الصلاة جماعة فاجلس هنا حتى أكمل صلاتي ثم أرجع إليك، وأما سابقاً فقد كان من الصعب أن أعتذر ما دامت الصلاة فرادى، لأنني أستطيع أداءها في وقت آخر، وأنا الآن مرتاح لأني

224. النساء: 103.

استطعت أن أضبط وقت الصلاة وأداءها في أول وقتها، بالاضافة إلى صلاة الجماعة وهذا الدعاء وهذه الدمعة، وهي فرصة للاستزادة من الثواب.

إذا كان للعبادة وقت معين، فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل مصلحة في هذا الوقت، فيجب أن نلتزم به، والصلاة في أول وقتها خفيفة ومريحة ومؤثرة، وكلما تأخرت كانت أثقل، وفي آخر وقتها تصبح أثقل من جبل أبي قبيس، وحينئذ كيف يتسنى لنا أن نكمل الواجبات ونأتي بالمستحبات! والمستحبات كالملح في الطعام، فالإنسان لا يتقوت على الملح، بل يتقوت على الطعام، ولكن الطعام الذي ليس فيه ملح يفقد طعمه، ويعطونه في المستشفيات للمرضى كدواء، والطعام هو نفس الطعام، ولكن عندما تضع عليه قليلاً من الملح يصبح لذيذاً، وهكذا تكون فوائد المستحبات.

وكان شهيد المحراب نتيجة مراجعته للروايات وتجاربه الشخصية، يؤكد على العديد من النوافل، كنافلة المغرب ونافلة الفجر ونافلة الليل، فهناك تأكيد على هذه النوافل بشكل خاص، كما ورد التأكيد على صلاة الجماعة، وهي تبدأ من شخصين ولا تقف عند عدد ما، ويستطيع كل واحد منا أداء صلاة الجماعة في بيته مع عائلته مثلاً، أو في محل عمله. وهكذا.

وهناك أُمور أُخرى ممكنة التحقق أيضاً، كبعض الأذكار اليومية، فكل واحد منا يقضي بعض الوقت في السيارة أو في أماكن أُخرى، ويستطيع أن يذكر الله ببعض الأذكار، كسبحان الله، الحمد لله، اللهم صل على محمد وآل محمد، وغيرها من الأذكار، وهذه كلها تعطي للروح رقة وصفاء وتطهر القلب وتحمي الإنسان.

ومن الأُمور الأُخرى المهمة جداً أيضاً هو الالتزام ببعض الشعائر الدينية، والمشاركة في المجالس الحسينية والهيئات الحسينية، وقد يرغب الإنسان في أن يخلو وحده، ويستمع إلى قراءة عزاء الإمام الحسين(عليه السلام) من خلال المذياع أو التلفاز أو المسجل، ولكن هذا لا يمنع من حضور المجالس الحسينية التي تمتاز بنكهة خاصة، وتشملها الرعاية الإلهية وفوائد جمة أُخرى لا تحصى، مع أن المطلوب منا هو إحياء الشعائر، وهو لا

يتم إلاّ مع الاجتماع، كما أن تعظيم الشعائر يمثل جانباً معيناً في النظرية الإسلامية في الحياة؛ قال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾[225]، وعندما يأتي الإنسان بهذه الأعمال يكتمل جانب من شخصيته أيضاً، فالمطلوب هو المشاركة في هذه المجالس، والحذر من مكائد الشيطان وخدعه في عدم الحضور بذرائع مختلفة، كالاستماع إلى الخطيب الفلاني من الفضائية، أو متابعة الخطباء الجيدين فقط، أو الاصغاء للشيخ الوائلي من المسجل. إلى آخر قائمة الأعذار، ولكن نفس الحضور والاجتماع مع المؤمنين للبكاء على مصاب سيد الشهداء(عليه السلام) فيه بركات عظيمة، وآثار وضعية كثيرة، وتأثيرات جسيمة، وفوائد نفسية وشخصية واجتماعية لا تحصى.

الحصة الثالثة: الراحة، وهو أمر مهم ينبغي أن يوضع ضمن البرنامج، فيحدد مقدار ما ننام من الساعات، والوقت الذي ننام فيه، من الساعة الفلانية مثلاً إلى الساعة الفلانية، ويجب أن يكون الوقت المخصص للراحة كافياً لحاجة البدن، لإعادة نشاطه وقوته وحيويته.

إن وضع برنامج بهذا الشكل وبهذا التوزيع يطيل في الوقت، ويجعل فيه الكثير من البركة، ويدعنا نستفيد من أوقاتنا بنحو أفضل، ويساعدنا على إنجاز أعمالنا بشكل أسرع.

المرونة في التطبيق

وينبغي الالتفات إلى أمر مهم في البرنامج الموضوع لتنظيم الوقت، ألا وهو المرونة في تطبيق البرنامج، بحيث يستطيع الإنسان تغيير بعض فقراته لسبب طارئ معين، أو لتحقيق استفادة أكبر من الوقت، لئلا تفوته بعض الفرص التي يجب المبادرة إليها والاستفادة منها؛ فإنها تمر مرَّ السحاب الذي لا يعود ثانية، وإنما يلقي بما يحمل من بركات في مكان آخر.

---

225. الحج: 32.

وهـذا البرنامـج يجعـل الإنسـان مصداقـاً لدعـاء أميـر المؤمنيـن صلـوات الله وسـلامه عليـه فـي دعائـه المشـهور بدعـاء كميـل : (اللهـم اجعـل أوقاتـي مـن الليـل والنهـار بذكـرك معمـورة، وبخدمتـك موصولـة، وأعمالـي عنـدك مقبولـة، حتـى تكـون أعمالـي وأورادي كلهـا ورداً واحـداً، وحالـي فـي خدمتـك سـرمداً).

مـا معنـى أن تكـون الأعمـال كلهـا ورداً واحـداً؟ فهنـاك صـلاة وهنـاك نـوم وهنـاك عمـل، فكيـف يمكـن أن تكـون كلهـا ورداً واحـداً؟ ومـا يكـون الهـدف الأول، هـل هـي الراحـة لكـي أتقـوى علـى طاعـة الله؟ أو هـو الأكل لكـي أتقـوى علـى رعايـة العائلـة والأولاد؟ مـن المؤكـد أن واجبنـا الأساسـي فـي الحيـاة هـو العبـادة، ولكـي اسـتطيع السـير فـي عبـادة الله تبـارك وتعالـى، فـلا بـد مـن توفـر الراحـة والطعـام والمـأوى واللبـاس للنفـس والعيـال، وهـذه جميعـاً تعتبـر عبـادة؛ لأنهـا مقدمـة للعبـادة، ومقدمـة الواجـب واجبـة، ومقدمة العبـادة عبـادة، هـذا هـو منطـق الإسـلام.

التزود المعرفي

ثـم يشـير شـهيد المحـراب إلـى ضـرورة أن يكـون ضمـن البرنامـج وقـت للتـزود المعرفـي؛ بـأن يخصـص وقتـاً معينـاً للمطالعـة، فـإن الإنسـان بحاجـة مسـتمرة إلـى التـزود بالمعرفـة، ولا ينبغـي أن يقتصـر علـى مطالعاتـه السـابقة، بـل يجـب أن يجـدد معلوماتـه ومعارفـه فـي هـذا العصـر الـذي يسـمى بعصـر انفجـار المعلومـات، وخاصـة بعـد تطـور الأدوات المعرفيـة، ولكـن يجـب الالتفـات إلـى مسـألة مهمـة؛ وهـي ألا يكتفـى بالمطالعـة المبعثـرة مـن هنـا وهنـاك، أو الاقتصـار علـى مطالعـة الصحـف والمجـلات والدوريـات الثقافيـة، أو الركـون إلـى متابعـة بعـض البرامـج العلميـة والثقافيـة مـن خـلال بعـض الفضائيـات، بـل لابـد مـن المطالعـة المنهجيـة وفقـاً لبرنامـج خـاص؛ لكـي يسـتطيع سـد النقـص فـي حقـل مـن حقـول المعرفـة التـي يحتـاج إليهـا فـي أمـر دينـه أو دنيـاه.

الحرص على التنفيذ

والقضية الأُخرى التي يلفت شهيد المحراب الانتباه إليها، هي الحرص على إنجاز العمل بحسب ما هو مخطط له، من غير تأخير أو تأجيل، وهذا الانضباط في التنفيذ أمر مهم، وقد كنت أحياناً أُشاهد شهيد المحراب متعباً آخر الليل، ولكنه كان حريصاً على إكمال قراءة الصحيفة، وكان يقول إن هذا من فقرات البرنامج، وكان يواظب على إتمام جميع فقرات البرنامج وإن كان متعبا آخر الليل أو مرهقاً، ولا يتركها للغد مثلاً. لقد كانت هذه دروسا في الحياة، وفي بناء شخصية الإنسان. والسلام عليكم ورحمة الله .

الوصية الثالثة

سعة الصدر

يجب أن يتصف المتصدي بسعة الصدر، والتصدي للمسؤولية يحتاج إلى أُفق واسع، ويحتاج إلى صبر وتحمل، ويحتاج إلى انسجام مع الآخرين.

يقول شهيد المحراب: يعتبر العمل الاسلامي عملا جماعيا، وربما يقول قائل: لديّ موقع في الانترنت، وانزل عليه معلومات يستفيد منها الناس، وهذا عمل غير جماعي، والجواب أن هذه حالات خاصة ونادرة، ونعني بالعمل، العمل مع الآخرين، ومادام العمل جماعيا، والجماعة متعددة الأمزجة ومختلفة السلوك والأطوار، فقد يوجد في اطار الأُسرة الواحدة اثنان من الأولاد أحدهما عصبي والآخر هادئ، أو أحدهما عجول والآخر بطيء، وهي حالة طبيعية تُرى في الأُسرة، وكلما توسعت الدائرة توسعت هذه الأمزجة، فكل شخص لديه طريقته الخاصة، والذي يريد أن يتصدى لعمل عام، يجب أن تكون لديه القدرة على تمييز الناس، فيعرف كيف يتعامل مع العصبي، لكي لا يزيد في عصبيته، وكيف يعطي الهادئ جرعة لكي يحركه. وهكذا، وهذا أمر واقع، فالأمزجة المتقاطعة والمختلفة كانت منذ زمن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وستبقى إلى يوم قيام الساعة مادام هناك بشر، ولا تتصور أنها تغيب في مكان، من مكاتب المراجع إلى أعضاء شركة واحدة، وإلى أربعة سجناء في زنزانة، فيتنافسون حول قضايا معينة ويختلفون ويتفقون.

على من يريد أن يتصدى ألاّ يقول منذ البداية إن هذا طويل وهذا قصير، وهذا كذا وذاك كذا، فلا يبقى معه أحد، فيترك العمل هو أيضاً بعدها،

فلابد من تحمل الآخرين واستيعابهم وتحمل منغصاتهم والصبر على أذاهم، وهذا هو السبب الوحيد والطريق الوحيد لنجاح العمل، والسبيل الوحيد للتصدي في أمر من الأُمور.

ثم يضع شهيد المحراب معياراً فيقول: إن هذا التباين في الأمزجة، يصل أحياناً إلى فعل الحرام أو ترك الواجب، ولذا يجب أن يصل تحملنا إلى هذا المستوى، نعم إذا وقع في ترك واجب أو فعل حرام، فهذا مزاجه أن يسمع اغنية، وذاك مزاجه أن يصلي، فلا مشكلة ويجب التحمل، ولكنه استيعاب وتحمل بشرط عدم جر المتصدي إلى الوقوع في الحرام، فإن استيعاب شخص واقع في الحرام قد يوقعه أحياناً في الحرام، إذ من المحتمل أن يتحمل قليلاً إلى أن يقترب منه أكثر ويسحبه من الحرام، وأما أن يقع هو في الحرام فنقول: نحن نتصدى لعمل إسلامي أو لعمل معين، وننصح الناس بالابتعاد عن الدور والأماكن المحرمة، وربما يقول البعض: دعونا نذهب معهم ومن ثم نصلحهم! ونقول له: كلا، لقد أصبحت واحداً منهم، والواجب علينا هو استيعاب من لم يصل إلى ترك الواجب والوقوع في الحرام، وهذه هي حدود الاستيعاب.

وحينما قرأت هذه الوصية لشهيد المحراب تفاجأت، إذ لم أكن أظن أن الاستيعاب وتحمل الآخر يمتدان إلى هذه الحدود الخطيرة، وهذا الاستيعاب أمر مهم، ومن عايش شهيد المحراب يعرف أنه كان قمة في الاستيعاب، وكان مذهلاً، تهتز الجبال ولا يهتز، وحينما نرى بعض المشاكل التي كان يقع فيها ويتحمل، كنا نظن أنه يحرك مشاعرنا لنقتدي به، ولكنه كان يصبر ويتحمل ويصمد ويثبت، وما كان يستطيع أن يصبر تيار عميق وأصيل كهذا في الأُمة، لولا ذلك الصبر والاستيعاب الذي كان يتمتع به، وأود التركيز على هذا الجانب، لأن إحدى مشاكل التنظيم أن كل خطوة يقوم بها الإنسان فيها إيجابيات وسلبيات، فالتنظيم فيه إيجابيات كبيرة، ولكن فيه سلبيات يضيق منها صدر الإنسان، وهذا الانطباع ليس من أصدقائنا، بل أرى في الجو العام الذي يختلف معنا بأُمور بسيطة، أن ردة الفعل تكون مباشرة

شتائم وسبابا، ولذا يجب علينا أن نستوعب ونناقش ونحترم الرأي الآخر، ونبحث عن المساحات المشتركة، ونعتبر هذه قسما من الهوية والولاء، فالولاء الصحيح والهوية الصادقة أن ننتصر بقوة المنطق لمشروعنا، وليس بقوة الاتهام للآخر، ترون البعض يعيشون في غرفة واحدة وكل يضحك بوجه صاحبه، ولكنهم متنازعون في الداخل، وكل يريد أن يتصارع مع الآخر، وهذا وصف لما يحدث في أضيق دوائر المتدينين، وكل منهم ينتصر للمذهب والدين والمبدئية، وكلما روضنا أنفسنا وتعاملنا مع الآخر، توسع ظرفنا وأصبحت فضاءاتنا رحبة وكان مشروعنا أوسع، وذهب إلى الساحات الأكبر والأوسع، واستطعنا أن نستوعب الآخرين، وهذ أمر مهم في ظرف التنظيم الذي نعيشه. وأكتفي بهذا المقدار، واعتذر عن الإطالة.

الوصية الرابعة

التعامل باللين

التعامل مع الآخرين باللين والرحمة والمودة والمداراة، مع الحزم في الموقف، والعزم في الإرادة والقرار والتنفيذ، كما ورد في قوله تعالى لنبيه الأكرم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[226].

ومن هذه الرحمة واللين والمداراة تقديم النصيحة بلطف لإخوانه المسؤولين عنه، عندما يرى بعض الأخطاء، أو ينبه إلى بعض الاقتراحات التي تطور العمل، وكذلك الحال تجاه العاملين معه، فبدلاً من النقد والتشهير، أو الزجر والأوامر الصارمة، تقدم النصيحة بلطف وتعطى فرصة للتطوير.

226. آل عمران: 159.

الوصية الخامسة

الاحتراف في العمل

هناك ثلاث سمات للعمل المحترف:

أولاً: أن يكون الاحتراف بعلم وخبرة وتراكم تجربة، ويستند إلى معرفة حقيقية في المساحة التي يتخصص فيها المحترف ويعمل فيها، فيجب أن يكون هناك تعلم ودورات يتلقاها العامل في سبيل الله في مجال اختصاصة؛ حتى يلم بأكثر الأدوات وأساليب العمل تطوراً في عمله، ولا تكفي مجرد نية القربة إلى الله تبارك وتعالى وأن يكون العمل إلهياً والمسار رسالياً، بل لا بد من أن يكتسب مثل هذا الإنسان الخبرة، وتتراكم عنده المعرفة في مجال اختصاصه.

ثانياً: الوقوف عند تجارب الآخرين. يقول البعض إن الغربيين أُناس منحرفون، ولذا لا ينبغي أن نتعامل معهم، والصحيح أننا لا علاقة لنا بعقيدتهم، وأهلاً بهم في مجال خبرتهم في إدارة مؤسساتهم، وفي نضالهم من أجل التقدم العلمي والتقني، ولا يضرنا أن نختلف معهم في عقائدهم ومواقفهم السياسية، إذ يمكننا أن نأخذ إيجابياتهم ونترك سلبياتهم، وقد كان شهيد المحراب يدعو إلى الاطلاع على تجارب الآخرين والاستفادة منها، كل في حقل اختصاصه، فنأخذ ما ينفعنا ونترك ما يضرنا، ولا ينبغي أن نبقى أسرى للأسماء، وندع الفكر والعلم كله بسبب ذلك، فهذا أمر غير جيد، ولعل هناك فكرة جيدة وكلمة صحيحة نأخذها منه.

ثالثاً: الاهتمام بالمضمون الثقافي والسياسي، وقد يقول البعض: أنا عامل في سبيل الله ومتصد، وليس لي علاقة بهذه القضية أو تلك؛ لأنها

ليست لها علاقة بمجال عملي ومساحة اختصاصي، وهو كلام غير صحيح، فما دمت متصديا في عمل إسلامي، فإنه مهما كان اختصاصك، فيجب أن يكون لديك فهم ثقافي وسياسي، ويجب أن يعمم هذا الكلام على جميع العاملين والمتصدين، فمثلاً من كان عمله منضد حروف على الكومبيوتر في مشروع إسلامي، وكانت وظيفته أن يكتب كتبا رسمية، يجب أن يمتلك فهما ثقافيا وسياسيا أيضاً، وعليه أن يبرز هذا الفهم ويعطي رسالته السياسية حتى وهو ينضد في دائرة حكومية، وهذه قاعدة عامة في المتصدي للمشروع الرسالي الإسلامي، وهي أنه يجب أن يكون لديه فهم ثقافي وفهم سياسي.

وقد يعتذر البعض بأننا أتينا بهؤلاء الإخوة بسبب اختصاصهم في عمل ما، وأن ثقافتهم الإسلامية ضعيفة، ولا مشكلة في ذلك، ولكن يجب أن تكون عنده ثقافة إسلامية صحيحة، فهي ستهبه دوافع إلهية للعمل، وستمنحه حرصاً أكبر، وستضمن له ولاء أعمق واندفاعاً أكثر، وسيحقق انتاجاً أفضل حتى في مجال اختصاصه، وهذا الكلام بالنسبة إلى العاملين من ذوي الاختصاص في مشروعنا الرسالي، كالمقاول والبناء والمهندس، فيجب أن تكون لديهم ثقافة إسلامية، وانظروا كيف ستتحسن أعمالهم في مجال اختصاصهم.

إن الثقافة الإسلامية والثقافة السياسية من الأُمور الأساسية المطلوبة في العاملين، ويقول شهيد المحراب في هذه النقطة: على العامل أن يتحاور ويتداول في معارفه الثقافية والسياسية، فإن من الشروط الأساسية في عملية الاحتراف، هو أن يكون المحترف صاحب ثقافة، ولا تأتي الثقافة إلا عن طريق الحوار، وعندما يتبنى أشخاصاً يوافقونه وأشخاصاً يعارضونه وأشخاصاً يناقشونه، يضطر إلى تعميق الفهم أكثر بالمبادئ التي يؤمن بها ويتكلم بها، ولكي يتمكن من أن يناقش الآخرين ويحاورهم، يجب عليه أن يقرأ أكثر؛ لتزداد معرفته فيدافع عن قضيته ويتناقش فيها، وتكون النتيجة أن يستفيد أكثر، وقد ورد في حكم أمير المؤمنين(عليه السلام) أن (زكاة

العلم نشره)[227]، أي أن علم الإنسان ينمو ويزداد بالتحدث به وبيانه، كما أن قناعته في الموضوع ستزداد رسوخاً، وتتجذر أكثر في عقله وفكره من خلال هذا التداول والبيان والنشر.

ويقول شهيد المحراب: ويتأكد هذا الحوار وأهميته، عندما يكون الإنسان في ساحة يتواجد فيها المنافقون والمعادون والمرجفون، أو في الأقل يتواجد فيها غرباء عن هذا الفكر، كالمحايد الذي ليس لديه موقف، فقد يتعرض الإنسان للسؤال عن رأيه في الموضوع الفلاني، أو عن موقفه من القضية الفلانية، فهنا يجب أن يجيب ويشرح ويوضح، ليلجم المنافق أو المعادي الذي يحيّد الناس ليغرر بهم، ويعرّف الغريب موقفه ليتمسك به، أو يصحح له إذا كانت لديه وجهة نظر خاطئة، إذن فالاحتراف شرط أساس من شروط التصدي، بهذه السمات الثلاث التي يذكرها شهيد المحراب .

227. غرر الحكم ودرر الكلم: 424. مستدرك الوسائل 7: 46، ح 6.

الوصية السادسة

القدوة

يقول شهيد المحراب: يجب على المتصدي أن يكون قدوة في سلوكه الأخلاقي، وفي سلوكه الاجتماعي، ويتجلى البعد الشخصي الأخلاقي للمتصدي في حركته وصدقه والتزامه، ويتجلى البعد الاجتماعي للمتصدي في التعاطي مع الآخرين، فيكون قدوة تتعلم منه الناس، عندما تضعه قدوة لها في حركته وفي مساراته، ويود الآخرون أن يكونوا مثله.

ويجب على المتصدي أن يضع لنفسه مسارات وسلوكا في الجانب الأخلاقي والاجتماعي، فإن الآخرين لم يجعلوه قدوة لمجرد الادّعاء، وليست هي كالرئاسة بالجعل والتعيين أو الانتخاب أو ما شابه ذلك، فالقدوة ليس منصباً يُجعل ويُوضع، فيقال جعلنا فلاناً قدوة لكم، ولا يستطيع أحد أن يجعله؛ فمفهوم الاقتداء يعني أن ينجذب الآخرون له، عندما يشاهدون أخلاقة وسلوكه وتعامله وعلاقاته وإدارته للأمور، فيقتدون به و يسيرون خلفه.

ويشير شهيد المحراب في هذا الشرط إلى عنوانين أساسيين:

أولاً: لماذا يجب أن يكون المتصدي قدوة؟

وثانياً: ما الصفات التي تجعل الإنسان في موضع القدوة؟

يذكر شهيد المحراب ثلاث نقاط في الإجابة عن السؤال الأول:

الأُولى: إن القدوة هي من أهم الأساليب في التكامل الإنساني، فالإنسان الذي يريد أن يتكامل ذاتياً وأخلاقيا وعملياً، يجب أن يضع نفسه

في موقع عمل الآخرين الذين يقتدون به، فيسأل نفسه: كيف أنجز العمل الفلاني؟ هل هو مقبول مني وأنا في الواجهة؟ ولذلك قد يتنكر البعض عندما يذهب في سفرة شخصية إلى مكان لا يعرفه فيه أحد، فيأخذ راحته أكثر؛ لأنه يتقيد في بيئته التي يعرفونه فيها ويحرم نفسه من كثير من المباحات، ويصنع البعض ذلك لأنه يرى نفسه في موقع القدوة، فيراقب نفسه في الكلمة التي يتفوه بها، والتصرف الذي يتعامل به، وهكذا تتحول حالة القدوة للمتصدي، لتكون أُسلوباً من أساليب البناء الذاتي للإنسان الذي يريد أن يكون قدوة.

الثانية: إن القدوة من أهم أساليب التأثير في الآخرين، فالأوامر والنواهي العسكرية لا تبني مجتمعاً، بل القدوة من موقعه وبسلوكه وأدائه، عندما يشاهده الآخرون يغبطونه ويتمنون أن يكونوا مثله، ويقولون فلنتعلم منه ولنصبح مثله في حركته ومساراته وتعامله وإدارته للأمور.

الإنسان القدوة إنسان مميّز، والجميع يحبون التميّز، وقد ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) قوله: (كونوا لنا دعاة صامتين)[228]، و (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم)[229]، وعندما يصبح الإنسان قدوة ستسير الناس على خطاه، وتحاول أن تتعلم منه، وهذا الأُسلوب هو الأُسلوب المهم بالتأثير في الناس، فالإنسان القدوة حين يفعل ما ينبغي فعله، ويترك ما لا ينبغي فعله، فسوف يقتدي به الناس عندما يرون مثابرته في هذا العمل.

الثالثة: القدوة من أهم موارد ومداخل استنزال الرحمة الإلهية لتحقيق النصر والنجاح؛ فالله سبحانه وتعالى عندما يرى الإنسان يتحكم بإيقاعاته، وينظم سلوكه وحركاته وسكناته، ويريد دائماً أن يكون هو الأفضل، ويريد أن يسير بالاتجاه الصحيح، فإنه سبحانه سيرحم مثل هذا الإنسان ويعينه في تحقيق النصر.

228. دعائم الإسلام 1 : 56.

229. الكافي 2 : 78 ح 14.

وكذلك الأمر بالنسبة للجماعة النخبوية والصفوة الصالحة الطيبة، التي تريد دائماً أن تكون في موضع القدوة للناس، وعندما يشاهدهم الآخرون يقولون: (هؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفراً ما كان أحسن ما يؤدب أصحابه)[230] كما ورد على لسان الإمام الصادق(عليه السلام)، وهكذا كان الإمام الصادق(عليه السلام) يوجه أصحابه قائلاً: (كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً)[231].

وبهذه الأسباب الثلاثة ـ البناء الداخلي، التأثير في الآخرين، استنزال الرحمة الإلهية ـ يجب أن نجسد في أنفسنا حالة القدوة، وأن نكون، أفرادا وجماعة، في موضع القدوة، ونحاول أن نطرح أنفسنا بديلاً عن مفهوم السياسي، وأكون بديلاً عندما أكون أنا صاحب المشروع وليس ذاك الآخر، أنا الإسلامي، وأنا الأصيل، وأنا صاحب المشروع والرؤية بالسلوك والأقوال والأفعال، وعندما يرانا الآخرون هكذا فسيقتدون بنا ويقتفون خطانا، وليس من الضرورة أن أبقى أقول وأدعي.

سمات القدوة

يذكر شهيد المحراب ثلاث سمات للقدوة في إجابته عن السؤال الثاني:

أولاً: صبر على المكاره، وتحمل البلاء والمنغصات، فهناك متصد يحقق نجاحات فتصفق له الناس، وهناك أُناس على فطرتها تحب المتميز فتصفق له، ولكن هناك بعض الناس من المغرضين والمندسين وأصحاب الأجندة والمشاريع الأُخرى، فهناك صراع مستمر بين الخير والشر، وبين الصلاح والفساد، وقد تحدث الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم عن هذه الظاهرة في عصر رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[232]، أي

230. وسائل الشيعة 8 : 43. ، باب 75 من أبواب صلاة الجماعة ، ح 1.

231. بحار الأنوار 65 : 151 ، ح 6.

232. التوبة : 58.

يتهمون رسول الله(صلى الله عليه وآله) بعدم العدالة والمحاباة، وأنه يعطي جماعته فقط؛ أي يعطي المهاجرين دون الأنصار، يعطي حزبه ولا يعطي الآخرين، وهذه القصص لا تنتهي، وهكذا الأمر في المجالات المختلفة الأُخرى، فيحتاج المتصدي دائماً إلى الصبر، والذي يريد أن يتصدى ولا يتكلم عنه أحد أو يؤذيه أو يسمعه كلاما مزعجاً، فالانسحاب له أسهل والزحف له أيسر، وليعلم أمثال هؤلاء أنهم لا يعيشون مع الملائكة ولا في الجنة، بل يعيشون في الدنيا التي هي دار ابتلاء وامتحان.

فالقاعدة العامة للتصدي هي أن نتحمل، وأن نواجه، وأن نعدّل، ونصحح، وأن نكون أكثر أهلية للقدوة، وأكثر تحملاً وصبراً على البلاء، واعلموا أنه كلما كان تصديكم أكبر، كان بلاؤكم أعظم.

وقد كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: (ما أوذي نبي مثلما أوذيت)[233]، وانظروا إلى دقة التعبير، فهو لا يقول: ما أوذي إنسان، بل يقول ما أوذي نبي، ومن المؤكد أن الناس لا يتأذون كما يتأذى الأنبياء، فالأنبياء أكثر الناس تحملاً للبلاء، وفي دائرة المبتلين من الأنبياء كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) أعظمهم شأناً وأكثرهم تصدياً وأشدهم ابتلاء.

إذن ينبغي ان يكون المتصدي أكثر الناس تحملاً، وهذه هي القاعدة، وأما من يريد أن لا يؤذيه أحد، فهو لا يريد أن يكون قدوة يقتدى به، وبالتالي فهو غير قادر على أن يكون متصدياً.

ثانياً: العزم والإرادة والإصرار، وهذه صفات أساسية ينبغي توافرها في القدوة، إذ لا يمكن أن يقتدى بشخص ينفد وقوده بسرعة، وينتهي صبره وهو ما زال في أول الشوط، بل لا بد من أن يكون لديه نفس طويل، وتكون لديه استمرارية ومواصلة، فإن «من جدّ وجد، ومن لجّ ولج» كما يقال.

وهذا الشرط هو شرط أساس في من يريد أن يكون قدوة، وإلاّ لماذا اقتدى بك الآخرون؟ فهل يعقل أن يقتدي الراكض بالماشي، أو الماشي

233. بحار الأنوار 39 : 56.

بالجالس؟ فهم يتعبون وأنت مرتاح، والناس متفاوتون في قدراتهم، وكل شخص يتميز بالمهارة التي يمتلكها، فبعضهم يكون متفوقاً بمسابقة المائة متر، وبعضهم يكون متفوقاً في مسابقة المائتي متر، وبعضهم يكون متفوقاً بمسابقة الطفر. وهكذا يتفاوت الناس بحسب تفاوت قابلياتهم، ولكن هل رأيتم شخصاً يصفق له الناس وينظرون له باعجاب وهو جالس في الميدان لا يشارك المتسابقين في سباقاتهم؟! وحينما ينطلق الجميع للتسابق في المباريات لا يعرف من السابق إلاّ بعد أن ينتهي شوطه الأخير، أو بعد أن ينسحب الآخرون من ميدان السباق وتمضي وحدك حتى الشوط الأخير، وحينها يبدو تميزك، فسرّ نجاحنا يكمن في استمرارنا ومواصلتنا للمسيرة بخطى ثابتة ومدروسة، ولا بد من الوصول إلى الهدف مهما كان الطريق طويلاً والمسيرة شاقة وباهظة الثمن، فنحن أصحاب قضية وأصحاب مشروع، ولسنا أصحاب منافع آنية أو مصالح شخصية، ننسحب ونترك الميدان عندما نحصل عليها، ثم ينتهي كل شيء بالنسبة لنا.

عندما بدأ المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق خطواته الأُولى ضحك منه الجميع، واستهزؤوا بقدرته على الوصول إلى أهدافه، ولكن تحول بعد سنوات إلى جهة رائدة حقيقية، واستطاع أن يقود المعارضة العراقية، وثنيت له الوسادة في ما بعد.

لقد كان شهيد المحراب واضحاً في مساراته وأهدافه، وماضيا على كل حال، وكانت المواظبة والاستمرارية من أهم ما تميّز به، ونحن أصحاب تكليف، ومادام هناك واجب وهناك مجتمع، فيجب أن نؤدي واجبنا تجاه المجتمع، ويجب أن نخدم الناس ونبني المجتمع، فإن جاءتنا فرصة للبناء استثمرناها، وإن ذهبت منا فالله تبارك وتعالى أعرف بعباده وبلاده، فالواجب علينا هو أداء التكليف، وأما النتائج فهي بيد الله سبحانه وتعالى، وهذا المنهج في التفكير يجعل الإنسان مرتاحاً في جميع الأحوال، ولكن لا بد له من الصبر والعزيمة والإصرار والعمل.

ثالثاً: حسن المعاشرة مع الناس. إذا أردت أن تكون متصدياً فيجب أن

يقبلك الناس ويحبوك ويريدوك، وأن يروك معهم في الميدان في همومهم وأحزانهم وأفراحهم وقضاياهم وفي كل شيء، وحينئذ يعجبون بك، ويلتفون حولك. إلى غير ذلك.

هذه إذن هي المبررات لأن نكون قدوة، ويجب أن يكون طموحنا في أن نكون قدوة، ولا يجوز أن يتصدى شخص لأمر رسالي ولا يعمل على أن يكون قدوة كشخص، وقدوة كجماعة، هذه المبررات، وتلك هي السمات، شكراً لكم، والسلام عليكم.

الوصية السابعة

التواصل ضمن منظومة العمل

أيها المسؤول لا تتخلّ عن مسؤوليتك تجاه من هو دونك في سلسلة المراتب، أيها المتصدي إلى مسؤولية ما، لا تُشكلْ امبراطورية خاصة بك، وتنسَ أن هناك مسؤولاً أعلى، ومركزا، وقيادة، وأن هناك اطاراً يجب أن ينتظم هذا العمل ضمنه ويكمل بعضه بعضاً، فالتواصل في الهرم الاداري يكون من الأدنى إلى الأعلى، وهناك ممارسات اجتماعية، وسلوك اجتماعي يجب أن نتميز به عن غيرنا.

وهكذا كان شهيد المحراب يعتبر هذا الشرط شرطاً أساسياً من شروط التصدي. نتمنى ان نوفق جميعاً لمراعاته في ظروف العمل، والحمد لله رب العالمين.

الوصية الثامنة

التشاور في العمل

التشاور في العمل، والاستماع إلى آراء الآخرين، وتمحيصها بدقة، ولاسيما مشاورة أهل الدين، والعقل، والتجربة، والاستفادة من تجارب الآخرين، والعزم بعد المشاورة، كما ورد ذلك في القرآن الكريم في وصية الله تعالى لنبيه(صلى الله عليه وآله): ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[234] وقد وصف سبحانه المؤمنين الصالحين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[235].

234. آل عمران: 159.

235. الشورى: 38.

الوصية التاسعة

الرقابة والمتابعة

كان من سمات آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين رحمة الله عليه الدخول في التفاصيل، فإذا أراد أن يصعد من مكتبه إلى بيته في الطابق العلوي، وشاهد مصباحاً مضاءً أطفأه وهكذا، وفي إحدى المرات قال لي صهره: قلت للشيخ مرة إنك تشبه كثيراً السيد محمد باقر الحكيم، فهو أيضاً يدخل في التفاصيل، فقال: عجيب! أخبرتني عن منقبة أُخرى في هذا الرجل لم أكن أعرف بها، إذن كانت منقبة لشهيد المحراب أنه يدخل في التفاصيل ويدقق في الأُمور، وينبغي أن تتوافر فينا هذه الحالة؛ وهي أن لا يرى الإنسان نفسه قد أدى الواجب لأنه أصدر تعليمات لمن هو دونه، بل يجب عليه أن يتابع ويشرف ويتأكد .

ويذكر شهيد المحراب ثلاثة أُمور في هذا الشرط :

الأمر الأول: التشديد والتأكيد على أن الرقيب الأول والأعلى هو الله سبحانه وتعالى، وهذا في المنظومة الأخلاقية، ولكن الإنسان المؤمن يرى الله تعالى هو الرقيب عليه حتى في المنظومة الإدارية .

إن جل اهتمامنا في ضبط العمل الإداري ينصب على وضع كاميرات، ودفتر تسجيل الحضور والغياب، واستعمال الجهاز الفلاني الذي يعمل بالبصمات، وهي جميعاً يمكن الالتفاف عليها بطريقة أو بأخرى، ولكن ما غفلنا عنه هو تربية العاملين على أن الله سبحانه وتعالى رقيب علينا والملائكة بعد ذلك ظهير، يستنسخون أفعالنا وأقوالنا، والرقابة الإلهية هي الوحيدة التي يستحيل الالتفاف عليها، وعندما نجعل الأساس في التربية

الأخلاقية هو أن الله تعالى هو الرقيب، فإن كثيراً من المشاكل ستنتهي وتحل.

الأمر الثاني: التشديد على الرقابة كأساس لا يجوز التهاون فيه، ويذكر شهيد المحراب للرقابة سببين:

السبب الأول هو تدارك الأخطاء والاشتباهات، فالإنسان قد يقع في خطأ في العمل، ومن خلال الرقابة تتبين أخطاؤه.

السبب الثاني هو تنبيه الغافلين، فقد يغفل الإنسان أحياناً، ولكن لا يضع في الرقابة احتمال التعمد، والمحاسبة إنما هي لمن يتعمد الخطأ، مفترضين أننا في المنظومة الرسالية نتعامل مع أُناس متدينين، لا يوجد فيهم من يتعمد مخالفة القانون والضوابط، ولكنه قد يخطئ في تشخيص المصداق، ولو غفل عن التطبيق لا يذكر التعمد.

الأمر الثالث: يحذر شهيد المحراب من الانزعاج من عملية التفتيش والرقابة، فلا تنزعج ولا تشكك في نياتك أو نيات المفتش، ولا تعتبر هذا التفتيش تشكيكا فيك، فقد تكون غافلاً أو مشتبهاً في قضية، أو واقعا في خطأ، فلا يُتصور أن تكون ممن يتعمد الخطأ ما دمت في منظومة رسالية وفي حالة إيمانية.

ويقول: إن الانزعاج من أصل وجود نظام التفتيش والرقابة وتطبيقاته في غير محله، ويجب القبول بهذا المبدأ كمبدأ إسلامي صحيح، يساعد على تصحيح المسارات وتنظيم الأُمور بطريقة مؤسسية. اكتفي بهذا المقدار والحمد لله رب العالمين.

الوصية العاشرة

كتمان السر

الالتـزام بكتمـان السـر، وحفـظ الأمانـة، ولاسـيما فـي الأحاديـث التـي تجـري فـي الاجتماعـات، أو المناقشـات، أو جلسـات التقييـم والعمـل، فـان حفـظ السـر مـن الواجبـات، وتسـريب المعلومـات مـن الخيانـة والمحرمـات، وقـد ورد فـي الحديـث الشـريف(إن المجالـس بالأمانـات) ولا يجـوز الحديـث عـن المعلومـات التـي يطلـع عليهـا العامـل فـي عملـه إلـى الأشـخاص الذيـن لا شـأن لهـم بالعمـل، حتـى لـو كانـوا موثقيـن فضـلاً عـن غيرهـم.

كمـا لا تصـح الشـكوى مـن المصاعـب التـي يواجههـا العامـل فـي عملـه، إلا لـذوي الاختصـاص والشـأن، فـان ذلـك مـن كشـف الأسـرار وخيانـة الوظائـف، ولا يجـوز انتقـاد العامليـن فـي أعمالهـم لغيـر ذوي الاختصـاص والشـأن، فـان ذلـك مـن الغيبـة والهتـك، ويـؤدي ـ أيضـاً ـ إلـى إضعـاف العمـل وإيذائـه.

كمـا لا يجـوز انتقـاد العامليـن فـي أعمالهـم لغـرض الإسـاءة إلى شـخصيتهم، فـان ذلـك مـن أعظـم الآثـام ومـن الكبائـر، نعـوذ بـالله مـن ذلـك.

الفصل الخامس

القدوة الصالحة

ذكرى وفاة الإمام الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين الميامين.

إخوتي الأكارم. أخواتي الفاضلات. بداية أرحب بكم جميعاً وأشكر لكم حضوركم، كما أعزيكم بذكرى رحيل الإمام السيّد محسن الحكيم (قدس سره) ليس بدوافع الانتماء النسبي وإنّما لبيان موقعه وشخصيته.

لقد تميّز هذا الرجل بخصائص عديدة، ولذلك ترك بصماته في تأريخ العراق، ودخل إلى القلوب بدون استئذان، واليوم بعد مرور 44 سنة على وفاته، وإذا حسبناها بالهجري 45 عاما، لكنّه مازال حاضراً حتى في وسط جيل لم يعايشه، ولكنّه توارث الاحترام والتقدير والمحبة لهذه الشخصية من الآباء والأجداد، وبالرغم من التعتيم والتشويش الإعلامي، بقي اسم الإمام السيّد محسن الحكيم ناصعاً ومؤثراً.

علاقته بالله منذ صغره

ولعل أهم خصيصة يمكن أن تذكر للإمام الحكيم، هي أنّه استطاع أن يكبر على نفسه ويتجاوز ذاته، وكانت له علاقة خاصة بالله سبحانه وتعالى منذ الطفولة، وهذا شيء غريب، وكأنّ الله يصطفي البعض من عباده.

سافر والده إلى لبنان وهو في الثالثة من عمره، وبقي ثلاث سنوات هناك لم يحصل خلالها لقاء بينهما، وبعد ثلاث سنوات توفي والده، فأصبح يتيماً وهو في السادسة من عمره، وتربى بعيداً عن الإشراف المباشر للأب ورعاية الأب، ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون قلب الطفل منفتحاً نحوه، ويشهد له على ذلك أنّه عندما كان في سن السادسة أو السابعة تزوج

خاله، وكانت مراسيم الزواج آنذاك في النجف الأشرف تعقد ليلاً، ويستمر السمر وتجاذب أطراف الحديث في الشعر والأدب وسائر الشؤون الأُخرى إلى منتصف الليل، ويستمر أحياناً إلى قبيل الفجر في الليالي الصيفية القصيرة، وافتقد الجالسون السيّد محسن، وبحثوا عنه فوجدوه على سطح الدار مشغولاً بصلاة الليل، فلم ينس أو يغفل عنها حتى في ليلة عرس وفرح، يجتمع فيها الأحباب وهو في هذه السن المبكرة من العمر.

صفة الإيثار

ومن الخصال التي تميّز بها الإمام الحكيم خصلة الإيثار؛ فقد سمعت أحد العلماء يقول: قبل أن يتصدى الإمام الحكيم للمرجعية، وكان معدوداً من العلماء الأفاضل في الحوزة، عقدت جلسة علمية ووقعت مطارحة علمية، وذكر السيّد الحكيم رأيا فقهيا في قضية ما لعالم من العلماء، وكان أحد العلماء الكبار حاضراً، فردّ هذه النسبة بقوة، وبطريقة كان فيها انتقاص للسيد الحكيم الذي التزم الصمت ولم يعقّب عليه، فأوحى ذلك للحاضرين أنّ كلامه ليس دقيقاً، ثم استأذن السيّد وخرج بعد فترة وجيزة، وبقي في الخارج منتظراً إلى أن خرج ذلك العالم الجليل، فأخبره أنّ هذا الرأي الذي نسبه إلى الفقيه الفلاني يجده في الكتاب الفلاني في البحث الفلاني، وأنّه متأكد من وجود هذه المقولة وبضرس قاطع ومنسوبة إلى ذلك الفقيه، فأُسقط في يد هذا العالم، واستغرب كثيراً من عدم طرحها في ذلك المجلس العلمي، مع أنّ السيّد الحكيم كان جازماً بها، وعلم أنّه قد راعى سمعته العلمية وخاف عليه من الانكسار، وكان بإمكانه أن يردّ عليه لو قال: اجلبوا الكتاب الفلاني واقرؤوا فيه الرأي المنسوب لذلك الفقيه، كما يفعل الآخرون في مثل هذه الظروف، إذ يحصلون معها على السمعة العلمية التي يطلبونها، ولكنّه آثر على نفسه وحافظ على سمعة ذلك العالم من الانكسار.

واختار السيّد الحكيم في ذلك المجلس العلمي، أن يعطي انطباعاً

للآخرين أنّ مقولته غير دقيقة وأنّه غير متأكد منها، على أن يكسر ذلك العالم أمام الآخرين ويثبت عدم صوابية نفيه، ومن المعلوم في الأوساط العلمية أنّ رأسمال العلماء هو الدقة العلمية، وحينما يتعمّد الإمام الحكيم أن يخاطر بالانطباع عن دقته العلمية، وأن تهتز شخصيته العلمية أمام مجتمع من العلماء، بدل أن يكسر إنساناً مؤمناً من العلماء الأكابر، فمما لا شك فيه أنّ في ذلك إيثارا كبيرا وتضحية جسيمة في نظر الوسط العلمي، لا يقدم عليهما إلا من آثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، وأي منّا الآن لو حدث معه هذا الأمر لاعتبره فرصة في تلك اللحظة، خصوصاً إذا كان الطرف المقابل أكبر شأناً منّا، وإثبات الوهن في كلامه وصحة كلامنا أمام هذا الجمع من العلماء، يعتبر ورقة لتسجيل واقعنا العلمي.

ويمكن أن يتلمس الإنسان الكثير من هذه الذكريات ومن هذه المشاهد عن الإمام الحكيم، واللافت أنّ كل من تعامل معه يحمل ذكريات كثيرة عنه.

خصيصة الاستيعاب

ومن الخصائص والمميزات الأُخرى التي تميّز بها الإمام الحكيم، هي قدرته على استيعاب التيارات السياسية المتعارضة في الحوزة، فقد كان فيها آنذاك خط ثوري جديد، وخط تقليدي كلاسيكي، ولكل منهما منهج سياسي متقاطع جداً مع الآخر، ولكن لا أحد منهما يكفّر صاحبه وإن كان يخطئه إلى حدّ كبير، وكان الإمام الحكيم يجمع أقطاب التيارين في حاشيته ويقرّبهم إليه، ويعتمد عليهم في إدارة الأُمور، ويوزع الأدوار بينهم بطريقة يستثمر فيها جميع هذه الطاقات في اطار مرجعيته، بدون أن يتقاطعوا مع وجود خلافات منهجية حادّة بينهم، وكان كل منهما يتوقع من الإمام الحكيم أن يقف إلى جانبه، فكان الخط الثوري يريد من الإمام الحكيم مواقف واضحة ودخولاً وتصدياً، بينما كان الخط الآخر يريد أن تبقى المرجعية بعيدة تماماً عن إقحامها في السياسة، وكان الإمام الحكيم يتعامل معهما

بطريقة يمسك فيها العصا من الوسط، ويجمع الجميع في مسار واحد، وكانت قضية معقدة جداً.

سعة معرفته بالناس

وتميّز الإمام الحكيم أيضاً بأنّه كان يملك معرفة تفصيلية بالعشائر والأفخاذ والامتدادات والأسماء، ويحفظها عن ظهر قلب، فمثلاً لو جاءه شيخ عشيرة يسأله: كيف حالك أبا فلان، وكيف صحة أُم فلان، وكيف حال إخوانك فلان وفلان، وكيف أحوال أخوال الأولاد فلان وفلان، فكان يعرف اسم الرجل واخوانه وزوجته وأبيها وإخوتها، ويسأل عنهم بأسمائهم، ويسأل عن أولاده بأسمائهم، وهكذا، بحيث أنّ من يأتي كان يستغرب ويندهش من السيّد الحكيم؛ كيف هو ملمّ بكل هذه الأسماء، حتى أنّه كان يعرف نسب أزواج أولاد الرجل من أي عشيرة، ويسأل عنهم بالأسماء والتفاصيل، فكان يتعزز انطباع لهذا القادم أنّه لم يقدم لشخص يجهله، لأنّه يعرفهم وكأنّه يعيش معهم، بسبب حافظته الشديدة وتركيزه على التفاصيل والجزئيات، وكان عندما يأتيه الناس يسأل عن أحوال القرى وعشائرها والمدن والعوائل الساكنة فيها وتفاصيل عن أحوالهم، وعندما يأتي آخرون من تلك القرية أو المدينة يكون على معرفة بأهلها، ويعرف مثلاً أنّ ساق السيّد فلان قد كسرت، وكان يسألهم عن أحوال سيّد فلان وهل جُبر الكسر في ساقه، فيثير دهشتهم ويشعرون أنّه قريب منهم، ويعيش معهم ويتابع همومهم اليومية، فيترك ذلك أثراً كبيراً في نفوس هؤلاء الناس.

عرفانه ومنزلته المعنوية

ومن خصائصه أيضاً أنّه كان عارفاً ومنفتحاً على العوالم الأُخرى، مما يكشف عن منزلة معنوية رفيعة، وقد نقل لي المرحوم الوالد كلاماً في سنوات ماضية، وقد يكون ذكر ذلك لبعضكم أيضاً، يقول: جاء جماعة من قرية نائية، ذكر اسمها السيّد الوالد ونسيتها الآن، إلى السيّد محسن الحكيم وأصرّوا على لقائه، وكان الوالد حاضراً، فاشتكوا للسيّد الحكيم من أن نفراً

من الجن يأتون إلى قريتهم ويعبثون في بيوتهم ويقلبون أثاثهم وأدواتهم، وأنّهم في حيرة من أمرهم لا يعلمون ماذا يفعلون، وأنّه لم يبق أمامهم إلا أن يتركوا قريتهم ويرحلوا إلى مكان آخر، فقال لهم السيّد محسن الحكيم: ارجعوا إلى بيوتكم وإذا جاؤوكم مرة أُخرى فليصعد كبيركم في مكان عال، وليقل لهم إذا جئتم مرة أُخرى فسأشكوكم إلى السيّد محسن الحكيم، وبعد فترة جاؤوا بهدايا كانت عبارة عن رز أو سمن، وقال أحدهم: لقد جاؤوا فصعدنا وقلنا لهم ما أمرنا السيّد الحكيم به، فرحلوا ولم يعودوا بعدها.

وكانت مثل هذه المقاطع من حياته لا يعلم بها حتى أبناؤه، وعلى كل حال، فهي تكشف عن مراتب معنوية عالية، والوصول إلى مستويات في العرفان والسلوك إلى الله تعالى، والهيمنة المعنوية على عوالم بعيدة عن الحالة الطبيعية. وما يُسجّل للإمام الحكيم أنّ هذا العرفان لم يكن يؤثر في سلوك السيّد اليومي، فقد رأينا لدى بعض العرفاء من العلماء سلوكا خاصا، وأنهم ينعزلون عن الناس ولا يستقبلون أحداً، ولهم برامج خاصة.

فمثلاً كان آية الله العظمى المرحوم المقدّس الشيخ بهجت من العرفاء، وقد عشنا في قم فترة من الزمن ولم نره يتكلم أو يستقبل أحداً، فكان يأتي إلى المسجد ويصلي بالناس صلاة الجماعة ثم يرجع إلى منزله، وحتى الاستخارة التي يأخذها لمن يجتمع حوله من المصلين بعد انتهاء صلاة العشاء لم يكن ينطق بها، كأن يقول جيدة أو غير جيدة أو متوسطة، بل كان يبيّن ذلك بالإشارات فقط، وكان قليل الكلام جداً وقليل اللقاء بالناس.

وبما أنّ ذكرى وفاة الإمام الحكيم تقترن مع ذكرى وفاة آية الله المقدّس السيّد محمد علي الحكيم التي توافق هذه الأيام أيضاً، فمن المناسب ذكر لقائي مع الشيخ بهجت (قدس سره)، فعندما كنت فتى في قم ذهبت لأعبر الشارع الذي فيه دار الشيخ، ورأيت وفداً وفيه أحد الأشخاص الذين أعرفهم، فقال لي: لقد أخذنا موعداً لزيارة الشيخ بهجت، فهل تأتي معنا؟ وكان ضمن الوفد مجموعة من الطلبة الأجانب، فقلت في نفسي: هذه فرصة، ووافقت على الذهاب معهم، وبعد دخول الدار جلست على جانب، وأخذ

أعضاء الوفد يعرّفون بأنفسهم حتى وصل الدور لي فقالوا هذا فلان (عمار الحكيم) فقط، وعند ذكر الاسم لم يعرفني، فسألني: من أنت؟ فقلت: أنا حفيد السيّد محسن الحكيم.

وبدأ الشيخ القليل الكلام يتكلم في ربع ساعة عن السيّد محسن الحكيم والسيّد محمد علي الحكيم، وبدأ يوضح لهم من هو السيّد محمد علي الحكيم بشكل مفصّل، وكان الجميع مندهشاً؛ لأنّ اللقاء المخصّص له خمس دقائق استغرق ربع ساعة، وهو يتحدّث فقط عن السيّد محسن والسيد محمد علي، وسألني بالتفصيل أين السيّد الآن، وماذا يعمل؟ إلى آخره، وكان للشيخ بهجت علاقة وثيقة جداً مع السيّد العم شهيد المحراب، ولاحظناه أيضاً وعلى خلاف عادته يسمح بالتصوير، وقد قيل لنا: إنّنا لم نر أحداً أدخل كاميرا، والتقط صاحبها صوراً بدون اذن الشيخ، ولكن عندما خرج لم ير أي صورة في الكاميرا من غير أن يعرف السبب، ولم يكن لها تفسير عنده.

إذن، فالعرفاء لهم سلوكهم الخاص، ويعيشون حالة من العزلة، وأما السيّد محسن الحكيم، ففي الوقت الذي كان يحظى فيه بمراتب عالية من العرفان، كان يعيش حياته الطبيعية وحياة التصدي الاجتماعي بأوسع حالاته، وكان يدخل إلى مرحلة التفاصيل الشخصية مع الناس في حياتهم اليومية.

إعادة الهيبة للمرجعية

لقد أعاد السيّد الحكيم الهيبة للمرجعية الشيعية التي أُريد لها أن تُكسر بعد ثورة العشرين، فقد أخذ البريطانيون من المراجع الكبار آنذاك تعهدا بعدم تدخلهم بالسياسة، وإلاّ هُجّروا جميعاً من العراق، واضطروا الى أن يعطوا هذا الالتزام ووقّعوا على ألاّ يتدخلوا في السياسة، وكانت العادة المألوفة في لقاء الملوك مع المراجع، أنّ الملك يأتي إلى النجف بحجة زيارة ضريح أمير المؤمنين(عليه السلام)، وهناك يلتقي المرجع بعد إخباره بوصول

الملك، وكأنّ اللقاء حدث صدفة وبدون تنسيق، فالملك لا يزور المرجع في منزله، وكذلك لا يذهب المرجع إلى بغداد لزيارة الملك، ولذلك يلتقون في الحرم الشريف لأمير المؤمنين(عليه السلام)، وكانت هذه هي السنّة الجارية في اللقاء.

وأول من كسر هذه السيرة هو السيّد محسن الحكيم، فقد جاؤوا كعادتهم مع المراجع السابقين، وأخبروه أنّ الملك قدم إلى النجف ليزور ضريح أمير المؤمنين(عليه السلام)، فقال لهم: أهلا وسهلاً، زيارة مقبولة، فقالوا: يريد أن يزورك، فقال: من أراد أن يزورني فليأت إلى داري، فكانت قضية أشبه بالخيال، وجاء محافظ كربلاء مهرولاً ـ وكانت النجف آنذاك قضاء تابعا إلى محافظة كربلاء ـ وقال للسيّد الحكيم: سيّدنا، هذا هو السياق المعروف في لقاء الملك مع المراجع، فأجابه السيّد الحكيم: سياق الآخرين لا أعرفه، من أراد فليأتني إلى داري، ومن لا يريد فهو حر، وفوجئوا بموقف جديد ومنطق جديد؛ فالملك هو الذي يزور المرجع في داره، وكانت قضية أشبه بالخيال في حينها.

وعندما رأى الملك ذلك اضطر الى أن يأتي لزيارة السيّد الحكيم في داره، وتبدل السياق، فالملك يزور المرجع في داره وليس في الحرم.

وهناك الكثير من الخصائص الأُخرى التي يلاحظها من يقف على حياته الشخصية والاجتماعية، والذي يرى عمقه وبُعد نظره وسعة صدره واستيعابه للأوضاع والتعقيدات، يدرك أنّ هذه المنزلة التي يحظى بها السيّد الحكيم، إضافة إلى أنّها منزلة معنوية، ولكن جزءاً منها مرتبط أيضاً بالأدوات المادية والطبيعية، والأسباب التي يقيضها الله سبحانه وتعالى، وتجعل الإنسان في موقع تمتد جذوره في الأعماق، لتكون له مثل هذه الموقعية الخاصة.

الفهرست

المقدمة 5

الفصل الأول

مفاهيم رسالية 9

أهل الحق والكثرة العددية 11

خدمة الخلق والقرب من الله 13

حركة الإنسان ومخافة الله 16

العمل بين الإخلاص والرياء 21

الموقف الصحيح واحتمال الخطأ 25

علامات الأشقياء 29

مفازع الناس 32

الإحسان والحب 36

حقيقة الإيمان 39

تخشّع النفاق 46

خصال الإيمان 49

مبدأ الكتمان 51

الدنيا وسنّة الابتلاء 53

عاقبة الظلم 61

الأهداف الإستراتيجية 65

الحاجة إلى النور الدائم والعطاء المستمر 72
الميزان الحقيقي للقوة والضعف 76
واقع الحياة الدنيا 79
علم جواهر الرجال 86
مبدأ الإتقان في العمل 90
استعراض سمات المؤمنين 91
التوأمة بين العقل والقلب 94
التقارن بين الحكمة والشجاعة 99
المعايير الصحيحة في تقييم الناس 101
التوازن بين التوقعات والأداء 103
أهمية المشورة 108
صيانة الإيمان من الشك 114
الخطوة الصحيحة في الأجواء المضادة 116
رؤية الإسلام في الوجاهة الاجتماعية 811
مقومات التوازن في الشخصية الإنسانية 121

الفصل الثاني

دروس رسالية 123
الدرس الأول الكريم والمسؤولية 125
الدرس الثاني الجد والمثابرة 127
الدرس الثالث حدود المخالطة 129
الدرس الرابع اكتساب الاخوان 131
الدرس الخامس استيعاب الناس 133
الدرس السادس استثمار الوقت 135

الدرس السابع مرونة المؤمن 136
الدرس الثامن منهج التعامل مع الناس 138
الدرس التاسع الكتمان والبشاشة والاحتمال 140
الدرس العاشر مفاتيح التواصل 141
الدرس الحادي عشر الإنسان بين التوفيق والإخلاص 143
الدرس الثاني عشر خطورة التلون 145
الدرس الثالث عشر أخلاقية العمل الاجتماعي 147
الدرس الرابع عشر بناء الذات 153
الدرس الخامس عشر معيار التعاطي مع الواقع 157
الدرس السادس عشر العلاقة بين الهمة والطموح 161
الدرس السابع عشر مواصفات المسؤول 361
الارتباط بين التقييم والمهام المناطة 166
الدرس التاسع عشر تحديد الأهداف وتشخيص الغايات 168

الفصل الثالث

توصيات رسالية 171
سمات الحازم 173
الهمة والحمية 174
التعامل بين المال والأخلاق 175
شرف الهمة 176
قبول النقد 177
الإخلاص 178
صيانة الأسرار 179
التركيز على العمل 180

اغتنام الفرص 181
المؤمن بين الصلابة والذلّ 182
تقارن العلم والعمل 183
استشارة الشبان والشيوخ 184
الحزم والتواني 185
علاج مرض التواكل 187
محاسبة الذات 190
الإخلاص لله 194
الصبر والثبات والاستقامة 201
الأخوة الإيمانية وقبول العذر 206
أهمية التخطيط والتدبير 210
ثقافة الاعتذار وبراءة الذمة 214
فن مخاطبة الناس 217
الهمّة العالية 221
تضافر الجهود وإنجاز الأعمال الكبيرة 223
الارتباط بين العجز والفشل 227
أهمية العمل بالتكليف الشرعي 231
الرغبة بالكلام والاستماع إلى كلام الآخرين 233
خطورة الوساطة في تعيين المسؤولين 236
أهمية مراعاة الناس وعدم الإسراع بما يكرهون 238

الفصل الرابع

وصايا شهيد المحراب للعاملين 241
الوصية الأُولى **العمل للخدمة لا للسلطة** 243

الوصية الثانية **التخطيط للوقت** 248
الوصية الثالثة **سعة الصدر** 255
الوصية الرابعة **التعامل باللين** 258
الوصية الخامسة **الاحتراف في العمل** 259
الوصية السادسة **القدوة** 262
الوصية السابعة **التواصل ضمن منظومة العمل** 268
الوصية الثامنة **التشاور في العمل** 269
الوصية التاسعة **الرقابة والمتابعة** 270
الوصية العاشرة **كتمان السر** 272

الفصل الخامس

القدوة الصالحة 273
ذكرى وفاة الإمام الحكيم 275

مؤلفات

السّيدعمّار الحكيم

١- نساؤنا

٢- المرأة المكرمة

٣- شبابنا الجزء الاول

٤- كربلاء رسالة حياة

٥- كربلاء منهج وعطاء

٦- امام الانسانية علي بن ابي طالب

٧- مجددون

٨- في رحاب الطف . . . . التوكل

٩- شبابنا الجزء الثاني

١٠- مودة ورحمة

١١- رسالة الامل

١٢- مفاتيح التواصل

١٣- لمحات من سيرة وحياة عزيز العراق

١٤- في رحاب الطف . . البصيرة الجزء الاول .

١٥- العلاقات الاجتماعية في الاسلام الجزء الاول

١٦- شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام الجزء الاول

١٧- بناء الدولة وادارتها ٣ أجزاء

١٨- النظرية الاسلامية في الحكم دروس من عهد امير المؤمنين عليه السلام لمالك الاشتر - الطبعة الاولى .

١٩- رؤيتنا السياسية .

٢٠- مفاتيح التواصل ج-٢-

٢١- في رحاب الطف . . البصيرة الجزء الثاني .

٢٢- السيد عمار الحكيم . . خطاب الاعتدال والبناء - ١٠ اجزاء . ط٢ منقحة ومزيدة .

٢٣- ومضات من العترة الطاهرة . . الجزء الاول والجزء الثاني .

٢٤- الشباب والدولة العصرية العادلة

٢٥- هن المجتمع

٢٦- الأُخوة الإيمانية

٢٧- البصيرة

٢٨- التحالف الوطني-الرؤية والانجازات